تهامة
TIHAMA

الكتاب العربي السعودي ٥

الدكتور سليمان بن محمد الغنّام

قراءة جديدة لسياسة محمّد علي باشا التوسعيّة (١٨١١ - ١٨٤٠) في الجزيرة العربيّة والسّودان واليونان وسوريا

الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٤٠٠٠٠

قراءة جديدة

لسياسة محمد علي باشا التوسعية

(١٨١١ - ١٨٤٠)

في

الجزيرة العربية

والسودان واليونان وسوريا

تقديم

هذا الكتاب ليس عرضا تاريخيا لأحداث فترة يعتبرها البعض بدء النهضة العربية الحديثة ، ولكنه وقفة متأنية وفاحصة لجانب من أهم جوانب احداث هذه الفترة الذى هو سياسة محمد على التوسعية ، ومحاولة لالقاء الضوء على هذه السياسة بنظرة شاملة متفحصة مع الأخذ بعين الاعتبار ان هذه المنطقة ، ومنذ بدء تلك الفترة (بداية القرن التاسع عشر) او بشكل اكثر تحديدا منذ الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ قد أدخلت فى دوامة الصراعات الدولية وانها اصبحت جزءا مهما من لعبة الامم على مسرح السياسة الدولية ، وان اى دراسة جادة لا تأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار ستقود الى نتائج خاطئة ومغلوطة .

ان من العبث البحث عن اسباب مشاكل هذه المنطقة وايجاد تفسير سليم للهزات التى تتعرض لها فى تاريخها المعاصر فى ثنايا الاحداث القريبة او فى الصراعات الدولية الحالية او النزاعات الاقليمية القائمة بقدر ماتعود جذور هذه الاسباب ـ فى رأيى ـ الى تلك الفترة التى يعالج هذا الكتاب جزءا هاما وخطيرا من جوانبها ....

سياسة الفتح والتوسع التى انتهجها محمد على طوال ثلاثين عاما من حكمه الطويل لم تحظ فى رأيى بدراسة موضوعية ناقدة تضعها فى اطارها التاريخى الصحيح ، وان كانت هذه الظاهرة بكل اسف تنطبق على دراستنا للتاريخ بشكل يكاد يكون عاما ، فان هذه السياسة قد ترتب عليها نتائج لازالت آثارها تفعل فعلها فى المنطقة وستظل الى ماشاء الله

والادهى من ذلك ان هذه السياسة نفسها توشك اليوم ان تتكرر بشكل ماقد تؤدى ، اذا تمت لاسمح الله ، الى نتائج أشد خطورة واكثر ضررا لايعلم مداها الا الله .

ومن هنا تأتى اهمية هذه الدراسة التى ارجو ان تكون اسهاما ـ ولو متواضعا ، ولكنه جهد المقل ـ لخدمة هذا الدين القويم وهذه الأمة الكريمة بالتنبيه على موضوعها (اى موضوع هذه الدراسة) من ناحية ومن ناحية اخرى آمل ان تكون لفتة جديدة للمعنيين والمتخصصين بالاسراع الى اعادة فحص التاريخ العربى والاسلامى وكتابته بشكل علمى وموضوعى هادف الى ابرازه على حقيقته، فالحقيقة ضالة المؤمن وبالتالى يمكن هذه الأمة من تجنب المزالق وتكرار المآسى التى طبعت تاريخها طوال قرن ونصف وجعلها تدور فى حلقة خبيثة مفرغة تراوح خطواتها لاتدرى فى اى اتجاه تسير .

والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل . ،،

سليمان بن محمد الغنام

جدة فى ١٤٠٠/٢/٥هـ

تمهيد

انه لمن المثير للتساؤل حقا انّ تتمكن مصر فى اقل من ثلاثة عقود خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر الميلادى (١٨١١ ـ ١٨٤٠) من ان تبسط سيطرتها على منطقة شاسعة امتدت من هضبة الحبشة ومرتفعات اليمن جنوبا وحتى ضواحى استانبول شمالا بما فى ذلك معظم انحاء الجزيرة العربية ، مستوعبة فى هذا النطاق اهم محطات وطرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب البرية منها والبحرية التى بسببها قامت حركة الكشوف الجغرافية الكبرى ونتج عنها اكتشاف العالم الجديد (الامريكتين) والالتفاف حول رأس الرجاء الصالح ، وبسببها ايضا قامت الحروب بين الدول الكبرى فى العالم القديم والدول الاوروبية الكبرى فى العصر الحديث وأبرزها بالنسبة للفترة التى نحن بصددها الهلع الذى اصاب بريطانيا من جراء الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ م حيث لم يهدأ لها بال حتى تم اخراج الفرنسيين من مصر ـ احدى المعابر الرئيسية الى الشرق ـ واطمأنت الى هيمنتها عليها .

ويزداد عجبنا وتتضاعف علامات الاستفهام اذا أخذنا فى الاعتبار الحقائق التاريخية التالية :

اولا : ان مصر كانت ـ ومازالت ـ بلدا متخلفا هزيل البنيـة السياسيـة والاجتماعيـة والاقتصادية ، فلم يحدث فيها مثلا ماحدث فى بلدان اوربا الغربية من تحول صناعى ـ او مايعرف بالانقلاب الصناعى ـ ومانتج عنة من ضغوط للبحث عن مواد الخام الاولية لتسيير حركة الآلة او البحث عن اسواق لتصريف المنتجات الصناعية ، مما يستدعى بالضرورة ، وعلى مفاهيم ذلك العصر من حتمية التحرك نحو الاستعمار والسيطرة على الشعوب الأخرى لهذين السببين .

ثانيا : ان المنطقة التى كانت مسرح هذا التوسع لم تكن بالمنطقة ذات الاهتمام القليل او الثانوى بالنسبة للدول العظمى المعاصرة ، بل كانت مجالا حيويا ـ بل هو بالنسبة لبريطانيا

بشكل خاص يأتى فى مقدمة اهتماماتها العالمية ، اذ هى تحتوى على الطرق الأهم والاخطر لدرة تاج امبراطوريتها ـ الهند ـ.

ثالثا : ان حركة التوسع هذه لم تكن مدفوعة بموجة من الحماس الدينى لإعلاء كلمة الله والاستشهاد فى سبيله كما حدث فى نفس هذه الفترة بالنسبة للدولة السعودية الاولى (١٧٤٧ ـ ١٨١٨) بل العكس هى التى تسلطت ـ او سلطت ـ عليها حتى دمرتها بكل عنف وشراسة .

رابعا : انها لم تكن نتيجة لنشوء حركة سياسية ذات مضمون قومى تهدف الى توحيد رقعة من الارض تسكنها شعوب متماثلة كما يزعم البعض ، والا فما معنى ان تتكفل هى بقمع ثورة فى الجانب الآخر من البحر المتوسط ـ الثورة اليونانية ـ وتقف على استحياء ثم تنكفىء عن التقدم الى منطقة أهم وأجدى بالنسبة لها وهى منطقة الخليج العربى ؟

وحتى لانتسرع فى الاستنتاج ومن ثم ابتسار حكم غير عادل يجدر بنا ان نتتبع حركة التوسع هذه فى كل منطقة على حدة ـ الجزيرة العربية ، السودان ، اليونان واخيرا سوريا .. ومن ثم نحاول استخلاص العامل او العوامل المشتركة بينها وبالتالى نصل الى نتائج مبنية على معطيات تاريخية ثابته بدون عسف أو قسر .

الا اننا قبل ان نتتبع حركة التوسع هذه ونكشف الاسباب والدوافع الحقيقية لها ـ كل منطقة على حدة ـ سنحاول اعطاء صورة ولو موجزة عن الاوضاع السائدة فى مصر والمنطقة إبان تلك الحركة .

الحملة الفرنسية على مصر وآثارها :

لم تكن حملة نابليون على مصر واحتلالها (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) مغامرة طارئة مدفوعة بظروف آنية يأتى على رأسها الصراع الفرنسى البريطانى ، وفى محاولة فقط لضرب عدوته اللدود ـ بريطانيا ـ بقطع شريان مواصلاتها ومن ثم تهديد أعز مستعمراتها ـ الهند ـ وانما كانت ـ واضافة الى ذلك ـ حركة بارعة ذات هدف استراتيجى مدروس بعناية فائقة ، فلاشك ان نابليون يدرك جيدا ـ وفى ذهنه صورة الحروب الصليبية وما انتهت اليه ـ ان مصر هى مفتاح الشرق ، وانها هى الحاجز المنيع الذى يحمى هذا الشرق بامكاناتها البشرية ومكانتها

الثقافية والحضارية كقلعة من أهم ـ ان لم تكن أهم قلاع الذود عن العالم الاسلامى ، وموقعها الجغرافى المتميز . ولكنه يدرك أيضا وبكل وضوح انه وان استطاع اختراق هذا الحاجز بحراب جيشه لن تلبث هذه الحراب أن ترتد وتتكسر ان لم ينسف هذا الحاجز من اساسه . هذا الحاجز هو الحاجز الدينى بايديولوجيته الثقافية ومضمونه الحضارى ومن ثم يستطيع ان يحول مصر الى قاعدة اوربية يستطيع بواسطة امكانياتها البشرية وموقعها الاستراتيجى المتميز أن يبسط سيطرته على كل هذا الشرق ويحقق اهداف اسلافه رواد الحركة الصليبية متجنبا المواجهة السافرة بين الاسلام والمسيحية باستخدام قوة اسلامية لتحقيق اهداف صليبية ، بالاضافة طبعا الى تحقيق الهدف البارز وهو قطع طريق الهند ومن ثم السيطرة عليها ـ لهذا لم تكن عدته وعتاده ، لهذه المهمة الجنود والذخيرة والسلاح وانما الاهم من ذلك والاخطر هو جيش العلماء والمتخصصين فى شتى الحقول والميادين الذين صحبهم معه . وقد كشفت الحملة الفرنسية عن اهدافها وطبيعتها عاجلا وقبل الاوان وذلك امام تطور الاحداث لغير صالحها عندما لجأ الفرنسيون الى استخدام قوة مسلحة مصرية للدفاع عن البلاد ضد القوى المعادية للوجود الفرنسى فى مصر فكونوا فرقة من اقباط مصر [1] فى محاولة خبيثة لزرع الفرقة والنزعات الطائفية بين عموم السكان وتسليط الاقلية المسيحية على الاكثرية المسلمة . وكما سلفت الاشارة ، هلعت بريطانيا لهذا التحرك الفرنسى وهى تدرك اهدافه ومراميه بعيدة المدى . فاستطاع القائد الانجليزى نلسون Horatio Nelson مفاجأة الاسطول الفرنسى الضخم وانزل به هزيمة ساحقة فى نفس العام (١٧٩٨) .

ظل الفرنسيون فى مصر ثلاثة أعوام يحاولون خلالها تثبيت وجودهم العسكرى وتقويض المؤسسات الاجتماعية ، بل والقيم الاجتماعية والدينية ، واحلال المؤسسات على النمط الاوربى محلها . وفى محاولة شبه يائسة امام الضغوط الخارجية الانجليزية والعثمانية والداخلية متمثلة فى الرفض الشعبى للفرنجة قام نابليون بغزو سوريا للدفاع عن موقعه فى مصر إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل واضطر الفرنسيون فى النهاية الى الانسحاب من مصر سنة ١٨٠١ « وعادت مصر لتصبح ولاية عثمانية ولكن هذه المرة أصبحت تعانى من وجود ثلاث قوى استبدادية متناحرة حول الاستئثار بالحكم خاصة القوة العثمانية والمملوكية ، اما الانجليز وكان لهم جيش فى البلاد ـ فكانوا يعملون على أن تكون لهم كلمة مسموعة فيمن يتولى الحكم

---

(١) نوار ، عبد العزيز ، تاريخ العرب المعاصر ، مصر والعراق ، بيروت سنة ١٩٧٣ ص ٧٩ .

وأن يكون الحكم فى مصر متمشيا مع أهدافهم وسياستهم ولذلك أخذوا جانب المماليك ضد العثمانيين ... حقيقة لم يلبث ان خرج الانجليز من مصر بمقتضى اتفاقية (AMIENS)اميان سنة ١٨٠٢ ولكنهم كانوا يرقبون بدقة التطورات فى مصر ويعملون على أن تكون الحكومة فى مصر ممالئة لهم وإلا أتخذوا التدابير ضدها حتى لايفسحوا فرصة لأية قوة أوربية.لأن تجد موضع قدم لها فى مصر[1] » .

ان الحملة الفرنسية ، وان كانت قصيرة العمر حيث لم تتجاوز ثلاث سنوات ، إلا أن آثارها كانت خطيرة لا على مصر وحدها وإنما على منطقة المشرق العربى ككل فهى قد أرست القواعد التى قامت عليها مصر منذ ذلك الحين وكيفت مسيرة المنطقة فى مسار منحرف عن طريقها الطبيعى « لقد كان نزول نابليون أرض مصر فاتحة عصر جديد فى نواحى عديدة فهو يؤرخ أول العهد الذى وقعت فيه القطيعة مع الماضى »[2] . ولكن هذه الحملة لم يكن ليقدر لها النجاح وتحقيق أهدافها البعيدة لو لم يهيأ لها من داخل المنطقة نفسها ـ وفى مصر بالذات من يتبنى أهدافها ويعمل بشتى الوسائل والاساليب فى سبيلها . فقد كانت المنطقة على أبواب مرحلة جديدة تبشر بتحول جديد ولكنه فى المسار الطبيعى والتاريخى وأبرز سماتها :

١ ـ ان الانقلاب الصناعى ومن قبله ومعه الانقلاب التجارى بدأ يعطى زخمه خارج القارة الأوربية وخاصة فى تلك المنطقة الحيوية من العالم فكان يمكن أن تتأثر المنطقة ايجابيا لو قدر أن تقوم فيها حكومات وطنية تسترشد مصالح أوطانها الحقيقية وتستلهم تاريخها فى تحركها الاستراتيجى بالاستفادة من المواد الأولية الكامنة فيها بمقايضتها بوسائل التقدم التكنولوجى والصناعى الاوربى وتطوير مؤسساتها الاجتماعية والثقافية والسياسية مع المحافظة على طابعها الحضارى المتميز .

٢ ـ إن هذه المنطقة ونتيجة للعامل الأول المذكور اعلاه ـ ونتيجة لاستخدام البخار فى تسيير السفن بدلا من السفن الشراعية بدأت تستعيد مكانتها الهامة كطريق رئيسى للتجارة العالمية بين الشرق والغرب عبر البحر الأحمر والخليج العربى والطرق البرية بين هذين الشريانين وبين سواحل البحر الأبيض المتوسط والتى نضبت وتلاشت اهميتها اثر اكتشاف رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ومانتج عن ذلك من خراب اقتصادى شامل ترتب عليه تدهور سياسى وتفكك اجتماعى وانحطاط حضارى . فى بداية هذا

---

(١) المصدر السابق ص ٨٠ .

(٢) حتى ، فيليب ، تاريخ العرب مطول ، بيروت سنة ١٩٥١ ص ٨٧٦ .

القرن ـ التاسع عشر ـ لم تستعد هذه المنطقة أهميتها كحلقة وصل عالمية كما كان الشأن قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح فحسب ، وانما تضاعفت اهميتها نظرا لتقدم وسائل النقل والانقلاب الصناعى والتجارى آنفى الذكر[1] .

٣ ـ فى خلال هذه الفترة شهدت ساحة الجزيرة العربية يقظة اسلامية أصيلة متمثلة فى الدولة السعودية الأولى استطاعت فى مدة تقارب نصف قرن توحيد معظم اقاليم الجزيرة العربية فى دولة واحدة ولأول مرة منذ صدر الاسلام ، كان من الممكن أن تنتشل ، لاشبه الجزيرة العربية وحدها وانما عموم المنطقة بأسرها ، من براثن التمزق السياسى والانحلال الاجتماعى والانحطاط أوالجمود الحضارى وتضعها بمفاهيمها الأصيلة ومضامينها الحضارية فى مرحلة العصر الذى تعيش فيه لا كما يزعم البعض أنها ستعيد المنطقة قرونا الى الوراء فمظاهر العنف التى صحبت قيامها والممارسات الساذجة لتطبيق المفاهيم الاسلامية فى الحكم والادارة وتنظيم الاقتصاد والعلاقات الدولية مظهر طبيعى بل يكاد يكون حتميا بحكم ظروف نشأتها ومستوى الجهل المحيط بها ، ولكن التزامها العقائدى ومايعنيه من استناد الى تراث حضارى اسلامى ضخم و بالاحتكاك بظروف العصر ومفاهيمه كفيلة بتهذيب تلك المظاهر وتطوير تلك الممارسات ، ولكن بشرط توفر عنصر أساسى وهو إعطاؤها فسحة كافية من الزمن ، ولكنها وئدت قبل الأوان بعنف وشراسة على يد حملة صليبية فى ثوب اسلامى .

٤ ـ أن الفترة أياها شهدت محاولات جادة من واحد من أعظم سلاطين بنى عثمان منذ سليمان القانونى ، وهو السلطان محمود الثانى (١٨٠٧ ـ ١٨٣٩) لإصلاح أحوال الامبراطورية العثمانية والاستفادة من منجزات العصر مع الاحتفاظ بالأسس الاسلامية التى قامت عليها تلك الدولة ، ولكن الدول الأوربية التى تدرك جيدا خطورة نتائج هذه الاصلاحات لو قدر لها النجاح لجأت الى تعطيلها بشتى وسائل الدس والتآمر وقد لعب محمد

---

(١) تضاعف صادرات بريطانيا عبر مصر سنة ١٨١٤ حتى سنة ١٨٣٢ على الشكل التالى :
ـ بلغت سنة ١٨١٤ (٨١٧,٠٠٠ ياردة من المنسوجات القطنية)
وصلت سنة ١٨٣٢ الى (٥١,٨٣٣,٩١٣ ياردة من المنسوجات القطنية) .
ـ وبلغت قيمة القطن المصدر الى الهند سنة ١٨١٤ (٢٠١,١٨٢ جنيه انجليزى) .
ـ ووصلت سنة ١٨٣٢ الى (٣,٢٣٨,٢٤٨ جنيه انجليزى) .
وقيمة الصادرات الى الهند سنة ١٨١٤ (١,٨٧٤,٦٩٠ جنيه انجليزى) .
ـ ووصلت قيمة الصادرات الى الهند سنة ١٨٣٢ الى (٣,٦٧٤,٦٧٣ جنيه انجليزى) .
عمر ، عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، بيروت سنة ١٩٧٥ ص ٢٢٠

على باشا الدور الاساسى فى إحباط هذه المحاولات وكان له كل الفضل فى إضعاف هذه الدولة وتصييرها ألعوبة بين الدول .

استيلاء محمد علي على السلطة في مصر :

فى خضم الفوضى الناجمة عن الانسحاب الفرنسى اصبحت مصر مسرحا لصراع القوى المتنافسة حول السلطة ، وهذه القوى هى الانجليز ، العثمانيون والمماليك . اما المماليك فعلى الرغم من انهم لا يزالون يشكلون قوة لها جذورها وسيطرتها الا ان الحملة الفرنسية هزت هذه الجذور من الأساس واسقطت هيبتهم شعبيا كطبقة عليا مسيطرة واصبحت جماهير الشعب تتخذ موقفا هو أقرب الى المتفرج من المشارك الفعلى خاصة بين موقف المماليك والعثمانيين . اما الانجليز فعلى الرغم من انهم وبدون شك الاقوى عسكريا الا انهم مرفوضون قطعيا ، واضطروا للانسحاب فى العام التالى لخروج الفرنسيين (مارس سنة ١٨٠٣) ولكنهم كانوا يرقبون الموقف بدقة وحاولوا تبنى احد زعماء المماليك (محمد بيك الالفى) الذى زار لندن مرتين سنة ١٨٠٢ وسنة ١٨٠٤[(١)] لإقامة حكومة موالية لهم ، الا ان هذه المحاولة فشلت[(٢)] اثناء حملة سنة ١٨٠٧ وخروج شخصية أقدر على ذلك .

فى هذا الجو المضطرب كان مسرح الاحداث مهيئا لخروج اى ممثل بارع قادر على انتهاز الفرصة السانحة بشرط ان يكون على ادراك واع بحقيقتين هامتين :

الاولى : مراعاة المشاعر الدينية لدى السكان وأن يكون مخلصا ـ أو يتظاهر ـ بأنه مخلص لمصالحهم .

والثانية : أن يدرك اهداف السياسة البريطانيه ويتصرف بما لا يتعارض معها ، وفى هذه المرة لا بد ان يكون مخلصا وإن تظاهر بعكس ذلك . وكان هذا الفارس هو محمد على باشا .

خدمت الظروف محمد على الى حد كبير فبعد خروج الانجليز سنة ١٨٠٣ سادت الفوضى والتناحر والاقتتال بين المماليك ، ضد بعضهم البعض وبين المماليك والعثمانيين ، وكان السلطان العثمانى منشغل بالأحداث الكبرى فى الجبهة الاوروبية ، واشتركت الحامية الالبانية بجنودها الارناؤط التى جاءت للاشتراك فى محاربة الفرنسيين ، فى الصراع الدائر بقيادة طاهر باشا ضد الوالى العثمانى ، خسرو باشا ، واستطاع طاهر باشا السيطرة على القاهرة فى ٦ مايو

(١) المصدر السابق ص ١٥٢ .

(٢) نوار ، نفسه ، ص ٩٤ .

سنة ١٨٠٣ « واعلن العلماء (المشايخ) اختيار طاهر قائمقاما ، ولكنه لم يظل طويلا فى هذا المنصب اذ اغتاله الانكشارية فى ٢٦ مايو سنة ١٨٠٣ »(١) وحل محله فى قيادة الحامية الالبانية محمد على باشا واستطاع هذا الأخير فى خلال العامين القادمين ان يكسب ثقة العلماء حتى أصبح مناط أملهم فى تخليص مصر من وضعها المتردى فأجمعوا على خلع الوالى العثمانى وإقامة محمد على فى النيابة فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ حتى يأتى الوالى الجديد او تثبيته فى الولاية ، وتزعم نقيب الاشراف الشيخ عمر مكرم العلماء فى هذه الحركة واشترطوا عليه ان يسير بالعدل « واقامة الأحكام والشرائع ، والاقلاع عن المظالم وألا يفعل أمرا الا بمشورته (اى الشيخ عمر) ومشورة العلماء وانه متى خالف الشروط عزلوه »(٢) . لقد كان للعلماء بزعامة عمر مكرم الدور الرئيسى فى تولية محمد على حتى لم يجد السلطان العثمانى بدا من الموافقة على تعيينه واليا على مصر ابتداء من ٢٠ ربيع اول سنة ١٢٢٠ هـ (١٨ يونيه سنة ١٨٠٥م)(٣)

وأثناء الحملة الانجليزية المعروفة بحملة فريزر (١٨٠٧) خطا محمد على خطوة كبرى نحو تثبيت قدمه كحاكم مطلق على مصر وبلورة توجهه السياسى وارتباطه العضوى بالسياسة البريطانية . فعلى الرغم من انه لم يشترك بشكل فعلى فى مقاومة الانجليز عند انزالهم العسكرى ، وكان اثناء معركة الحماد التى هزم فيها الانجليز موجودا فى الصعيد يحارب المماليك فقد استثمر هذا النصر الى ابعد الحدود وشرع فى مفاوضة الانجليز مبديا لهم استعداده للتعاون معهم ضد اعدائهم ـ الفرنسيين والاتراك مقابل انسحابهم من الاسكندرية من ناحية وحمايته من هؤلاء الأعداء الخارجيين ـ اعداء الجميع فى تلك الفترة ـ من ناحية اخرى وكان تخوف محمد على من عزله من قبل السلطان اشد من خوفه من الانجليز على مصر .

كان الانجليز على صلات ببعض زعماء المماليك لتسهيل احتلالهم الا انهم بعد احتلالهم الاسكندرية وهزيمتهم فى معركة الحماد وجدوا ان محمد على هو الرجل القوى فى مصر الآن وليس غيره . وقد استمرت المفاوضات قرابة اربعة شهور اثبت خلالها محمد على جديته واخلاصه بل وقدرته على الوصول الى اتفاق معهم . وبعد ان جدت ظروف خارج نطاق مصر نفسها تقضى بانسحاب الانجليز كان التفاهم قد تم بين الجانبين يمكن تلخيص خطوطه الاساسية فيما يلى :

---

(١) عمر ، نفسه ص ١٥٣ .

(٢) الجبرتى ، عبد الرحمن ، عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، القاهرة ١٩٦٧ ، ١٣٨٦ هـ (حوادث سنة ١٢٢٠ هـ)

(٣) المصدر السابق .

اولا : تكفل محمد على بحماية المصالح البريطانية ورعايتها فى مصر وتسهيل مواصلاتها للهند .

ثانيا : ان لا يسمح الباشا لأى قوة اخرى بتهديد تلك المصالح او مزاحمتها .

ثالثا : انسحاب الانجليز من الاسكندرية وتسليمها للباشا ، وكانت حتى ذلك الوقت خارج نطاق سلطته .

رابعا : ان يقف الانجليز الى جانب الباشا ضد اعدائه الخارجيين بما فيهم السلطان العثمانى .

ولقد ادرك دروفتى القنصل الفرنسى فى مصر وحتى قبل الوصول الى التفاهم النهائى وقرار الانجليز بالانسحاب من الاسكندرية اهمية ذلك وما يمكن ان يترتب عليه من نتائج بقوله : « وواقع الأمر سوف ينطوى على اخلاء الاسكندرية بناء على اتفاق هو من نوع معاهدة (مبرمة بين محمد على والانجليز) على الاعتراف بذلك الاستقلال الذى يبتغيه الباشا وسوف يضمن عند الحاجة تزويده بالنجدات اللازمة لقتال العدو المشترك وببعض المبالغ المالية لسد مطالب جيشه ، ومن ناحية اخرى فان هذا الاتفاق سوف يزود الانجليز بالوسائل التى تمكنهم من تموين مالطة واساطيلهم فى البحر الابيض فضلا عن تأمين حرية العلاقات التجارية (بين مصر وانجلترا) وحماية التجارة الانجليزية فى هذه البلاد وتسهل المواصلات مع الهند وغير ذلك ، وانه ليبدو لى ان مثل هذه المعاهدة عند ابرامها سوف تحقق الاغراض التى توخاها الانجليز من ارسال حملتهم على مصر (اى حملة فريزر) أن لم يفق اثرها من هذه الناحية كلما كان يتوقعه هؤلاء من ارسال هذه الحملة »(١) .

صحيح انه لم يتم توقيع اتفاقية بالمعنى المعروف ، باستثناء اتفاقية انسحاب الانجليز من الاسكندرية وسبب ذلك رفض الانجليز التسرع فى اتخاذ مثل هذه الخطوة التى تعنى الاعتراف بمحمد على حاكما مستقلا عن السلطان العثمانى وهم لا يريدون ذلك لأسباب سنعرض لها فيما بعد ، الا ان التفاهم تم على هذه الأسس التى اشار اليها دروفتى .

وقد تخلى الانجليز عن اصدقائهم المماليك حيث وجدوا فى محمد على ضالتهم المنشودة وقد كشف فريزر Fraser نفسه عن جانب من مفاوضات التفاهم هذه مع الباشا فى خطابه الى الجنرال مور Moore فى ١٦ اكتوبر سنة ١٨٠٧ جاء فيه : « أرجو أن تسمحوا لى بأن أبسط

---

(١) شكرى ، محمد فؤاد ، مصر فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠١ ـ ١٨١١) ، القاهرة سنة ١٩٥٨ جـ ٢ ص ٨٢٦ ـ ٨٢٧ .

لكم ليكون موضع نظركم فحوى محادثة جرت بين باشا مصر و « الميجور جنرال شريروك » « والكابتن فيلوز » اثناء قيامهما بمهمتهما لدى سموه . ولدى ما يجعلنى اعتقد ان هذه المحادثة ، ومن اتصالات خاصة كثيرة اخرى كانت لى معه ، بأنه جاد وصادق فيما يقترحه .

« ولقد ابدى محمد على باشا والى مصر ، رغبته فى ان يضع نفسه تحت الحماية البريطانية ووعدنا بابلاغ مقترحاته الى الرؤساء فى قيادة القوات البريطانية كى يقوم هؤلاء بإبلاغها الى الحكومة الانجليزية للنظر فيها .

« ويتعهد محمد على من جانبه بمنع الفرنسيين والاتراك او اى جيش تابع لدولة اخرى من الدخول الى الاسكندرية من طريق البحر ويعد بالاحتفاظ بالاسكندرية كصديق وحليف لبريطانيا العظمى ولكنه لا مناص له من انتظار ان تعاونه انجلترا بقواتها البحرية اذا وقع هجوم عليه من جهة البحر لأنه لا يملك سفنا حربية .

« ويوافق محمد على باشا فى الوقت نفسه على تزويد كل السفن البريطانية التى تقف على بعد من الاسكندرية بما قد تحتاج اليه من ماء النيل عند اعطائها اشارة ـ يصير الاتفاق عليها »[١] .

وبعد انسحاب الانجليز تفرغ محمد على لتصفية خصومه الداخليين فارتد على من حمله الى السلطة وفى مقدمتهم العلماء والمشايخ وعلى رأسهم عمر مكرم ففرق شملهم ونفى زعيمهم وفرض عليه التشرد حتى مات سنة ١٨٢٢ .

وفى سنة ١٨١١ انزل بالمماليك الضربة القاضية عندما دعاهم الى وليمة عامرة فى القلعة أنقلبت الى خيانة غادرة وذبحهم عن بكرة ابيهم الا من استطاع الفرار بأعجوبة ومن ثم تتبعهم تقتيلا ومصادرة حتى أصبح هو حاكم مصر المطلق له الحرية فى عمل ما يشاء الا من متطلبات وتبعات التفاهم مع بريطانيا ومن ثم بدأ مشواره الطويل فى الفتح والتوسع فى انسجام كامل مع اسس هذا التفاهم .

---

(١) المصدر السابق ص ٨٥٦، ٨٥٧ .

الفصل الأول

غزو الجزيرة العربية

(أ) قيام الدّولة السُّعوديّة الأُولى

(ب) موقف الدّولة العُثمانية مِن التوسُّع السُّعودي

(جـ) الحملات العسكريّة

(د) تصفية القواسِم في الخليج

(أ) قيام الدولة السعودية الأولى :

فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى)كانت الاوضاع الاقتصادية والسياسية والدينية فى الجزيرة العربية عامة وفى نجد على وجه الخصوص قد بلغت حدا كبيرا من التدهور والانحطاط ، فمن الناحية الاقتصادية فان الجزيرة العربية قد دخلت مرحلة جديدة مظلمة اثر التفاف البرتغاليين حول رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى وما ترتب على ذلك من تحويل طرق التجارة الدولية والتى كانت ومنذ اقدم العصور المعبر الرئيسى للتجارة بين الشرق والغرب عبر البحر الاحمر والخليج العربى وما يتفرع منهما ومن ساحل الجزيرة الجنوبى على بحر العرب من طرق برية للقوافل حيث كانت تشكل مصدر رزق دائم للسكان ومعابر اتصال حضارى بين سكانها وشتى شعوب الارض . فان تحول هذه الطرق الى الطريق الجديد قد اصاب بالخراب والكساد كل الجزيرة العربية بل وكل الشرق العربى قاطبة بما فيه مصر . (١) .

وصاحب - أونتج - عن هذا التدهور الاقتصادى وطوال القرون الثلاثة التالية جمود وانحطاط فى شتى مظاهر الحياة الاخرى ، فمن الناحية السياسية انضوت معظم اقاليم الجزيرة العربية تحت مظلة السيادة العثمانية بدرجات متفاوته من الخضوع الفعلى او الاسمى وذلك منذ سقوط آخر سلاطين المماليك فى مصر ، قانصوه الغورى فى معركة مرج دابق ٩٢٢/١٩١٦ ، ونتيجة لهذين العاملين اصبحت الجزيرة العربية فى شبه عزلة كاملة عن حركة العصر وأضحت مسرحا للفوضى والتمزق ، ففى الحجاز عمت الفتن والاقتتال بين اشراف مكة المتنافسين على الامارة فيها مما ترتب عليه ضياع الأمن وفقدان الاستقرار واصبح الحجاج عرضة بشكل يكاد يكون مستمرا للنهب والسلب (٢) والضرائب الفادحة وتدنت الخدمات فى المشاعر حتى كادت تكون معدومة . اما نجد فكانت عبارة عن مجموعة من امارات المدن والتجمعات القبلية المتناحرة يغزو بعضها بعضا طلبا لثأر او تنافس على مرعى او مورد ماء او ما شابه ذلك ، وفى

---

(١) انظر ابن اياس ، ابو البركات ، محمد بن احمد ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، (حوادث شهر ذى الحجة ، سنة ٩١٢) .

(٢) انظر السباعى ، احمد ، تاريخ مكة ، مكة ط ٣ سنة ١٣٨٧ هـ ج ٢ ص ٢٧ ،٣٣ و ٤١ و ٥٣ ... الخ .

عمان انهارت دولة اليعاربة التى قامت بدور بطولى فى التصدى للبرتغاليين ونجحت فى اخراجهم من الخليج وتعقبهم فى شرقى افريقيا وسواحل الهند [1] ، انهارت نتيجة لعوامل عدة أبرزها الوجود الاوروبى فى البحر العربى والخليج والمحيط الهندى والغزو الايرانى والتنافس الأسرى ، ولم تكن اليمن أحسن حظا من بقية اقاليم الجزيرة العربية فقد انكفأ السكان على انفسهم وولوا البحر ظهورهم وظهر التعصب المذهبى والتناحر القبلى .

ومن الناحية الدينية عادت الجزيرة العربية الى ما يشبه الجاهلية الاولى فظهرت الوثنية بشتى صورها واشكالها من تقديس اشجار واحجار ، واصبحت قبور الاولياء والصالحين مزارات حج وتقديس وعمت الجهالة والشعوذة . [2] .

وأنحدرت الامة انحدارا راسيا مريعا لم تشهده فى تاريخها نتيجة لهذين العاملين آنفى الذكر ـ التطويق الاوروبى من الجنوب والشرق والهيمنة العثمانية فى الداخل ، وساد الجمود وتعطل الفكر واصبح العلماء ـ اصطلاحا ـ حفظة نصوص ليس الا ، ينسخون ويترجمون لأسلافهم العظام ، واصبحت شعائر الدين طقوسا تؤدى ليس لها من تأثير على حياة الانسان كفرد وكمجتمع .

فى هذا الجو الحالك الظلمة خرج الشيخ محمد بن عبدالوهاب بدعوته الاصلاحية داعيا الأمة إلى العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . لاشك أن ابن عبدالوهاب قد هاله الفرق الهائل بين ماضى هذه الأمة الزاهر وحاضرها المزرى وأدرك بوعى ، كما أدرك نفر غيره من معاصريه[3] أن لاخلاص لهذه الأمة الابالاسلام منهجا وتطبيقا .

كان يمكن ان تتلاشى دعوة ابن عبدالوهاب كما تلاشت سياسيا على الأقل دعوات أمثاله ـ من قبله ومن بعده ـ ابن القيم ، جمال الدين الافغانى ، محمد عبده ، الا ان سيف ابن سعود شيخ الدرعية ، وموقع المنطقة السياسى والجغرافى التى خرج فيها ابن عبدالوهاب ، وهى

---

(١) انظر السالمى ، حميد الله ، تحفة الاعيان فى تاريخ عمان ، الكويت ، سنة ١٩٧٤ ص ٦٣ .

(٢) انظر ابن غنام ، حسين ، روضة الافكار والافهام ، مصر ، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ ج ٢ ص ٧ ـ ١١ .

---

(٣) انظر ابن بشر ، عثمان ، عنوان المجد فى تاريخ نجد . ١٣٩١ ، جـ١ ، ص٢٠ ، حيث يذكر ان الشيخ محمد بن عبدالوهاب عندما زار المدينة المنورة ، قبل بدء الدعوة التقى بالشيخ عبدالله بن ابراهيم بن سيف من رؤساء المجمعة وان هذا الأخير قال له يوما : « اتريد ان اريك سلاحا اعددته للمجمعة ؟ قلت : نعم ، فأدخلنى منزلا فيه كتب كثيرة فقال : هذا الذى أعددنا لها » .

بعدها عن منطقة اهتمام الدولة الكبرى (الدولة العثمانية) كفل لها فسحة من الزمن مكنتها من التأثير والتغلغل فى البيئة التى خرجت فيها ـ منطقة نجد ـ ونلاحظ أن الدعوة والدولة واجهتا صعابا جمة وكان تقدمها السياسى وتأثير الدعوة الجديدة بطيئا للغاية فى منطقة نجد نفسها فقد استغرق ذلك قرابة نصف قرن (١١٥٧ ـ ١٢٠٠هـ) حتى تم لها فى نهاية ذلك القرن ـ الثانى عشر الهجرى السيطرة على كل منطقة نجد . وفى خلال هذه الفترة كانت دعوة ابن عبدالوهاب تتغلغل ببطء ولكن بثبات فى المناطق المجاورة ـ الاحساء ، الحجاز ، اليمن ، عمان ـ لهذا لم تمض عشر سنوات من القرن الجديد ـ الثالث عشر ـ حتى تمت السيطرة على كل اقليم الاحساء وأصبحت جيوشها تطل على ضفاف الخليج فى الشرق وتمضى بعيدا فى الجنوب الشرقى مهددة عمان كلها وملتقية وجها لوجه مع أوضاع جديدة وحقائق جديدة . ولم تمض عشر سنوات أخرى حتى تم لها السيطرة على كل الحجاز ، وسقط الحرمان الشريفان فى قبضتها ، وفشلت محاولات أشراف مكة فى الوقوف امام هذه الموجة العارمة التى لم تكن موجة مسلحة فقط ، وانما كانت موجة عقائدية معززة بسرعة انضمام القبائل في هذه المنطقة لهذه الدعوة والدولة بدافع الايمان بالعقيدة ، أوبدافع الانضواء تحت لواء المنتصر أوبسبب هذين العاملين معا . وماقيل عن هذين الاقليمين ـ الاحساء والحجاز ـ يقال ايضا عن اليمن ، كما توغلت قواتها ومبادئها فى العراق العثمانى . وهكذا لم يشارف القرن الثامن عشر الميلادى على الأفول إلا وكانت الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، باستثناء بعض الجيوب فى اليمن وعمان ، تنضوى تحت لواء وحدة سياسية جديدة لم تشهدها منذ صدر الاسلام الأول .

(ب) مَوقف الدَّولة العُثمانية مِن التوسُّع السُّعودي :

على الرغم من أن الجزيرة العربية فى تلك الفترة كانت تخضع ـ من الناحية الاسمية على الأقل ـ لسيادة الدولة العثمانية إلا أن هذه الأخيرة لم تعر مايجرى فى وسطها كبير اهتمام ، فهى لاتعدو ، من وجهة نظرها ، ان تكون حركة داخلية فى منطقة نائية معزولة محدودة الأثر والتأثير . إلا أن هذا الموقف بدأ يتغير تدريجيا منذ بدأ تأثير هذه الحركة ، الدينى والسياسى والعسكرى ، يصل الى مناطق هامة كالعراق والشام على وجه الخصوص ، فاستجابت لضغوط ولاتها فى تلك المناطق وجردت حملات عسكرية ضد الدولة السعودية الاولى إلا أن هذه

المحاولات والتى تمت سنة ١٢١١ وسنة ١٢١٣ من قبل ولاة العراق منيت بالفشل الذريع[١] وعندما تصاعد التهديد السعودى للحجاز لم تفلح محاولات ومبالغات شريف مكة - غالب بن مساعد - فى اقناع الدولة بخطورة هذا التهديد ، لابل حتى بعد أن وقع الحجاز بأكمله تحت سيطرة السعوديين سنة ١٢٢٠ لم يتغير الموقف العثمانى كثيرا عن الموقف السلبى السابق على الرغم من استمرار تهويل شريف مكة وافتراءاته ، ولكن هذا الموقف السلبى لم يظل طويلا إذ أخذ يتحول إلى موقف ايجابى من السيطرة السعودية فما هى الأسباب الحقيقية لهذا التغير ؟ . .

يذهب معظم - ان لم يكن كل - من عالجوا هذا الموضوع الى ان ذلك يتلخص فى الأسباب والعوامل الآتية :

١ - ان السلطان العثمانى قد تأثر بشدة لفقده لقب (حامى) أو (خادم الحرمين الشريفين) نتيجة إنهاء السيادة العثمانية على الحجاز على يد السعوديين ، وان هذا اللقب اصبح له فى تلك الفترة اهمية كبيرة نظرا لضعف الدولة العثمانية فأصبحت فى مسيس الحاجة للاحتفاظ بهذا اللقب لتعزيز نفوذها الادبى والمعنوى[٢] لدى الشعوب الاسلامية والأمم الغربية على حد سواء .

٢ - ان السعوديين منعوا الحجاج القادمين من الأقطار الخاضعة للدولة العثمانية من أداء فريضة الحج[٣] وان هذا بدوره أثر على هيبة الدولة العثمانية أمام الشعوب الاسلامية .

٣ - ان الدولة العثمانية تخشى من امتداد تأثير النفوذ السعودى والدعوة الاصلاحية الى مناطق هامة من الامبراطورية .

هذا هو مجمل الاسباب التى يزعم عادة انها الدوافع الاساسية للحملة المصرية - العثمانية ضد الدولة السعودية الاولى ، ومع التسليم بأهمية هذه الاسباب النسبية الا اننا لكى

---

(١) انظر ابن بشر ، نفسه ، حوادث سنة ١٢١١ ، سنة ١٢١٣ .

(٢) عبدالرحيم ، عبدالرحمن عبدالرحيم ، الدولة السعودية الأولى ، القاهرة ، ط٢ سنة ١٩٧٦ ، ص١٥٢ .

(٣) يفند الجبرتى هذه التهمة فى كتابه عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ٧ ص٤٧ حوادث سنة ١٢٢٣ بقوله : « ومنها انقطاع الحج الشامى والمصرى معتلين بمنع الوهابى الناس عن الحج ، والحال ليس كذلك فأنه لم يمنع أحدا يأتى إلى الحج على الطريقة المشروعة وانما يمنع من يأتى بخلاف ذلك من البدع التى لايجيزها الشرع مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا فى هذا العام وماقبله ولم يتعرض لهم أحد بشيء » .

كما تثبت الوثيقة رقم ١٩٦٨٧ من مجموعة الوثائق التركية الصادرة من رئيس الكتاب إلى السلطان فى شهر شوال سنة ١٢٢٤ عدم اعتراض الامام سعود بن عبدالعزيز على قدوم الحجاج بشرط عدم اصطحابهم اسلحة أو آلات موسيقية وعدم السماح لغير المسلمين بدخول الحرم .

نضعها فى حجمها الحقيقى دون تقليل اومبالغة علينا ان نأخذ بعين الاعتبار مجمل الاوضاع السياسية السائدة فى المنطقة ككل فى تلك الفترة والتى بكل تأكيد لها ابلغ الأثر فى تشكيل خط سير الأحداث فيا نحن بصدده .

أولا - ان البحر الاحمر ، والذى أصبح الجزء الرئيسى من ساحله الشرقى فى نهاية العقد الأول من القرن التاسع عشر الميلادى ، يخضع للدولة السعودية الأولى كان قد بدأ يستعيد اهميته التى فقدها أثر اكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ تدريجيا منذ منتصف القرن الثامن عشر تقريبا وبلغت هذه الأهمية نقطة متقدمة ومن ثم أصبحت فى تصاعد مستمر منذ حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ وضاعف من هذه الأهمية الانقلاب الصناعى والتجارى فى اوربا وبوادر عصر استخدام البخار فى تسيير السفن ، فأصبح هذا البحر - أوهو فى طريقه لأن يصبح ، كما كان قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح المعبر الرئيسى للتجارة الدولية بين اوربا والشرق وأكثر الدول اهتماما بهذا البحر لهذا الوضع هى أكثر الدول الاوربية تقدما فى هذين المجالين - التجارى والصناعى - وأوسعها استعمارا فى الشرق وهى بريطانيا العظمى ، لهذا رأيناها تهلع عندما احتل الفرنسيون مصر لا لأهمية مصر فى حد ذاتها وحسب وانما لموقعها الاستراتيجى الهام وخاصة باشرافها على مدخل البحر الأحمر ، وعندما نجحت فى إخراج الفرنسيين من مصر وضعت لها سياسة ثابتة لاتحيد عنها تقضى بعدم السماح لأية قوة كبرى بالسيطرة على مصر وعدم السماح لأية قوة محلية معادية يمكن أن تهدد هذا الطريق الحيوى لمستعمراتها فى الشرق ، وسارعت الى عقد اتفاقية مع سلطان الحج سنة ١٨٠٢ تقضى بمنح بريطانيا تسهيلات لاستعمال ميناء عدن الهام على مدخل ذلك البحر من الجنوب[١] ، فهل من المعقول أومن المنطق أن تقف بريطانيا موقف اللامبالاة أوعدم الاكتراث من قيام دولة كبرى فى الجزيرة العربية ، هى بحكم مبادئها ومنطلقاتها الاساسية والعقائدية معادية بالطبيعة لوجود الاستعمار البريطانى فى أى بلد أومنطقة اسلامية ؟ .. أولا يشكل هذا الوجود على هذا النحو تهديدا معروف النتائج لهذا المعبر المائى الهام ؟ ومن هى القوة الأكثر تضررا من قيام دولة قوية من هذا النوع فى تلك المنطقة ؟ أهى مصر ؟ أم الدولة العثمانية ؟ أم هى بريطانيا العظمى ؟ . .

ثانيا : ان الخليج العربى أيضا بدأ يخرج من عزلته التى فرضت عليه أثر اكتشاف طريق رأس الرجاء وبدأ يستعيد اهميته لنفس الاسباب والعوامل التى ذكرناها بالنسبة للبحر الأحمر

---

(١) Macro, Eric, Yemen and the Western world, London, 1968, p.20

وأصبحت بريطانيا اياها تعنى به اكثر من أية دولة اخرى لهذا السبب نفسه ويجدر أن نشير هنا إلى انه حينما تم الانزال الفرنسى فى مصر سنة ١٧٩٨ سارعت بريطانيا فعقدت اتفاقا مع سلطان عمان السيد سلطان بن أحمد يصبح لبريطانيا بموجبه الاولية فى استخدام موانىء عمان وإلزام هذا السلطان بالتعاون معها ضد الفرنسيين فيما لو حاولت الوصول الى مياه الخليج كما تجدد هذا الاتفاق سنة ١٨٠٠[١] . وأصبح قيام الدولة السعودية ينذر بخطر جسيم خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه الدولة أصبح لها وجود فعلى متصاعد فى هذه المنطقة ، ونمت قوة دولة القواسم البحرية المرتبطة سياسيا وعقائديا بالدولة السعودية[٢] وأصبحت سفن هذه الدولة تجوب مياه الخليج وتصل إلى مياه المحيط الهندى[٣] ، علاوة على النهديد المباشر من قبل حكومة الدرعية - فيما لو أرادت - لطريق البريد البرى عبر العراق ، فماذا يمكن أن تصل اليه الاحداث اذا استمر سيرها فى هذا الطريق ؟ لاشك أنه الصدام المباشر مع هذه القوة الاسلامية النامية ومايمكن ان يتمخض عنه من أثار تحريك عواطف المسلمين فى الهند وغيرها .

ومرة أخرى نطرح نفس التساؤلات : من هو المتضرر أكثر من نمو هذه الدولة ؟ . . او من هو المستفيد اكثر من القضاء عليها ؟ أهى مصر أم الدولة العثمانية ؟ أم هى بشكل لايقبل المقارنة الامبراطورية البريطانية ؟ . .

ويجب أن نضع فى الاعتبار فى هذا المجال رد الفعل البريطانى ، كيفية ومعنى ، والمتمثل فى الهجمات السريعة والخاطفة ضد عاصمة دولة القواسم ، رأس الخيمة ، سنة ١٨٠٦ وسنة ١٨٠٩[٤] والذى ركز على تحطيم الاسطول القاسمى من جانب ومحاولة عدم التورط والاصطدام بالسعوديين مباشرة من جانب آخر والتظاهر بأنها لاتعادى الدولة السعودية وإنما تحارب ماأسمته بالقرصنة ، هذه القرصنة التى تراها الدرعية حركة جهاد إسلامى ، فتجنب بريطانيا الدخول فى حرب مكشوفة معها قد تتحول إلى حرب صليبية غير مضمونة النتائج .

ثالثا - ان العلاقات البريطانية - العثمانية دخلت فى طور من التحسن جديد أثر توقيع اتفاقية سنة ١٨٠٩[٥] ، وفى العام التالى (سنة ١٨١٠) استولى الانجليز من الفرنسيين على

---

(١) قاسم ، جمال زكريا ، دولة بوسعيد ، القاهرة ، ص١١١

(٢) العابد ، صالح محمد ، دولة القواسم فى الخليج العربى ، بغداد ، ١٩٧٦ ص١١٥

(٣) Winder, R.B., Saudi Arabia in the Nineteenth Century, New York, 1965, p.38

(١) لوريمر ، ج. ج. ، دليل الخليج ، القسم التاريخى ، الدوحة ، ١٩٦٧ ، جـ١ ، ص٢٨١ و٢٨٤

(٥) Marriott, Sir John, The Eastern Question, London, 1940, p.236; وأنظر نص هذه الاتفاقية والتحالف السرى فى الملحق الثانى لهذا الكتاب . Richmond, J,C.B.Egypt 1798-1952, London. 1977,p.35.

جزر Bourbon, MARITIUS،[١] كما انهم اى الانجليز فى نفس هذا العام قاموا بضرب شرس عنيف وحاقد على أحد الموانىء السعودية (ميناء شناص) فى عمان بالتعاون مع السيد سعيد بن سلطان، سلطان عمان بعد أن فشل هذا الأخير فى التصدى للمد السعودى، ثم انسحبوا على عجل كعادتهم فاستولى عليه السعوديون مرة أخرى، وفى هذا العام نفسه (١٨١٠) قبل محمد على القيام بمهمة غزو الدولة السعودية .

فهل كل هذا من قبيل الصدف البحته ؟ !

ولن نقف هنا ايضا لتفنيد الاسباب المزعوم بأنها وراء الغزو المصرى ـ العثمانى وانما سنتابع مراحل الغزو، ثم نحاول استكشاف النتائج التى حققها فالنتائج وحدها هى الدليل القاطع على صدق تلك الاسباب، فان كانت هذه النتائج تتلاءم مع الاهداف او الاسباب التى يقال انها هى سبب هذا الغزو فعندئذ لا مبرر للاستقراء والتقعر للبحث عن اسباب اعمق واخطر، وان كانت هذه النتائج تتناسق بشكل جلى واضح بل انسجام يثير العجب، مع المجرى العام للاحداث والمخطط الشامل الذى تتلاقى اطرافه فى نقطة واحدة، وهى المصالح البريطانية، فعندئذ تبرز الاسباب الحقيقية من الاسباب السطحية الزائفة وتبين بجلاء دور المخططين الحقيقيين وأدوات التنفيذ التى سخرت نفسها وشعوبها لخدمة هذه الاهداف، ومما يلقى مزيدا من الضوء على حقيقة هذه الدوافع والاهداف تجدر الاشارة هنا الى انه فى نفس هذا العام ايضا (١٨١٠) بعثت حكومة الهند البريطانية ومندوبا لها هو Belzoni للتفاوض مع الباشا على عقد معاهدة بين الجانبين « وقد جاء فى نصوص هذه المعاهدة المقترحة. . . انه فى حالة نشوب حرب بين بريطانيا والدولة العثمانية فقد نصت المعاهدة على عدم قيام محمد على باهانة الرعايا البريطانيين او الاستيلاء على أية ثروات بريطانية، هذا الى جانب تعهده بأعادة الهاربين من السفن البريطانية حتى ولو كانوا يعتنقون الاسلام، وفيما يتصل برعاية المصالح البريطانية داخل الاراضى المصرية فقد نصت المعاهدة على حرية المسافرين فى المرور عبر الاراضى المصرية ومعهم امتعتهم الشخصية دون دفع أية ضرائب مع ضمان سلامة مرور القوافل التجارية تحت حراسة حكومة محمد على من السويس واليها[١] » الا ان هذه المعاهدة لم يتم التصديق عليها بسبب عدم رغبة بريطانيا نفسها وذلك لأسباب تتعلق

---

(٣) عبدالرحيم، نفسه، ص٢٧١ .

(٤) اباظه، فاروق، عدن والسياسة البريطانية، القاهرة، ١٩٧٦ ص٩٧، انظر ايضا : الرافعى، عبدالرحمن، عصر محمد على، القاهرة، ١٩٥١، جـ٣، ص١٢٤ .

(٣) اباظة، نفسه ٩٨ ـ ٩٩

بسياستها الشرقية ككل وتجاه الدولة العثمانية بشكل خاص فالمهم من وجهة النظر البريطانية هو تأمين مصالحها سواء فى مصر او غيرها او من خلال استخدام امكانيات مصر لتأمين تلك المصالح خارج مصر نفسها عن طريق تفاهم غير مكتوب هو فى الحقيقة افضل بكثير من الزام نفسها بمعاهدات رسمية تضعها فى مواقف متناقضة مع سياستها تجاه المحافظة على وحدة الامبراطورية ربما يثير تعقيدات ومشاكل مع الدولة العثمانية نفسها ، ومع الدول الاخرى المعنية . فى هذا الاطار وفى تلك الظروف والملابسات استجاب محمد على - كما قلنا سلفا - لرغبة السلطان العثمانى فى تجهيز الحملات العسكرية للقضاء على الدولة السعودية واجتثاث جذورها وبدأ الغزو فى العام التالى سنة ١٨١١ .

(جـ) الحملات العسكرية :

بعد ان حققت جيوش محمد على نصرا مبدئيا فى الاراضى الحجازية باستيلائها على ينبع مكان التقاء القوات البرية والبحرية القادمة من مصر منيت بهزيمة ساحقة فى وادى الصفراء على يد السعوديين فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٢٢٦ هـ) ١٨١١ م) ويقدم لنا المؤرخ المصرى المعاصر لتلك الاحداث عبدالرحمن الجبرتى وصفا يحمل الكثير من المعانى عن اسباب هذه الهزيمة بقوله « فانهزموا جميعا وولوا الادبار ، وطلبوا جميعا الفرار وتركوا خيامهم وأحمالهم وأثقالهم وطفقوا ينهبون ويخطفون ماخف عليهم من امتعة رؤسائهم ، فكان القوى منهم يأخذ متاع رفيقه الضعيف ، ويأخذ دابته ويركبها وربما قتله ... حتى كانوا من شدة حرصهم وخوفهم واستعجالهم على النزول فى القطائر يخوضون فى البحر الى رقابهم ، وكأنما العفاريت فى اثرهم تريد خطفهم ... ولقد قال لى بعض اكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع : اين لنا بالنصر واكثر عساكرنا على غير الملة وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهبا ، وصحبتنا صناديق المسكرات ولا يسمع فى عرضينا أذان ولا تقام به فريضة ، ولا يخطر فى بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين .

« والقوم اذا دخل الوقت أذنّ المؤذن وينتظمون صفوفا خلف امام واحد بخشوع وخضوع ، واذا حان وقت الصلاة والحرب قائم ، أذّن المؤذن وصلوا صلاة الخوف ، فتتقدم طائفة للحرب

وتتأخر الاخرى للصلاة ، وعسكرنا يعجبون من ذلك لأنهم لم يسمعوا به فضلا عن رؤيته ، وينادون فى معسكرهم : هلموا الى حرب المشركين المحلقين الذقون .. والشاربين للخمور ، التاركين للصلاة ، الأكلين الربا ، القاتلين الانفس .. ، المستحلين المحرمات ..[١]

لم تفت هذه الهزيمة فى عزيمة محمد على ، وانما استغلها اوسع استغلال للحصول على امدادات جديدة من السلطان متخذا منها دليلا على صعوبة المهمة التى أوكلها اليه السلطان ومن هم وراء هذا السلطان[٢] ، كما اتخذها ذريعة ، ان كان يحتاج الى مثل هذه الذريعة ، لفرض ضرائب جديدة وسلوك مسالك جديدة لمصادرة ونهب اموال المصريين[٣] ، وأُطلق العنان لجنوده الاغراب للعبث فى ارض مصر وامتهان كرامة انسانها ، وأعّد تجهيزات جديدة وزودها بالكثير من الاموال لشراء ضمائر بعض زعماء العشائر فى الحجاز ، واستطاع ابنه طوسون فى هذه الجولة وبالتعاون مع شريف مكة ، غالب بن مساعد ، ان يستولى على المدينة بعد مقاومة عنيفة من حاميتها ، ومن ثم تقدم نحو جده ومكة حيث استولى عليهما بدون مقاومة تذكر .

الا ان تقدم طوسون باشا اخذ يتعثر امام الرد السعودى بقيادة الامام سعود بن عبدالعزيز ـ الكبير ـ حيث استطاع هذا الاخير القضاء على الحامية الموجودة فى الحناكية[٤] ، وكما ان تربة ابدت مقاومة عنيفة وانزلت بالجيش الغازى هزائم شديدة .

وحينما ادرك محمد على تأزم موقف جيشه جاء بنفسه الى الحجاز سنة ١٢٢٩ وكانت اولى خطواته هى عزل الشريف غالب بن مساعد[٥] الذى اصبح وجوده يتناقض مع المخطط العام المعد للمنطقة الذى يسير ضمنه الباشا ، حيث كان الشريف يعتقد ان هدف هذه الحملة كما

---

١ ـ عجائب الآثار ، جـ ٧ ص ١٤٧ و ١٥١ و ١٥٢

٢ ـ يذكر الجبرتى ، نفسه ص ١٧٥ انه فى سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢) وصلت الى الاسكندرية سفينة من الانجليز فيها « بضائع واشياء للباشا منها خمسون الف كيس نقود » !

(٣) انظر الجبرتى نفسه ص ١٤٩ ، ١٥٧

(٤) ابن بشر ، نفسه ص ٢١٥ (حوادث سنة ١٢٢٨)

(٥) يذكر David Williams فى كتابه :

British Commercial Policy and Trade Expansion (1750-1850)' Oxford' 1972 P. 112

انه اثر حملة نابليون على مصر بعثت حكومة كلكتا البريطانية الكابتن Home Popham لمكة وصنعاء فى محاولة لعقد اتفاقيات تجارية ولكن هذه المحاولة فشلت . فهل لهذا علاقة بما حل بالشريف من عزل ونفى الى سيلانيك حتى مات هناك سنة ١٢٣١ رغم ما ابداه من تعاون وقدمه من خدمات للباشا ؟

هو معلن عنها ، هو طرد السعوديين واعادة سلطته ضمن السيادة العثمانية كما كان الحال فى السابق ، ولعله من المفيد ان نلاحظ ان محمد على ركز اهتمامه ونشاطه العسكرى على ساحل جنوب الحجاز حتى تم له الاستيلاء على ميناء القنفذة[١] ، على الرغم من الصعوبات الجمة والهزائم العنيفة التى منى بها هناك .

لقد لعب الحظ دوره الى جانب محمد على فى هذه المرحلة من الصراع مما كان له اثر كبير فى تعجيل تحقيق الاهداف المنشودة بوفاة الامام سعود بن عبدالعزيز سنة ١٢٢٩ (١٨١٣) ففى العام التالى ١٢٣٠ (١٨١٤) جرت المعركة ، الحاسمة بين القوات السعودية بقيادة فيصل بن سعود وجيش محمد على بقيادة الباشا نفسه فى بسل ، وقد علق محمد على على هذه المعركة اهمية كبرى وخطط لها وأعد بعناية فائقة واعتبرها البعض « من اهم المعارك فى تاريخ مصر الحربى »[٢] ، واستطاع فعلا تحقيق نصر حاسم على القوات السعودية أعقبه انهيار شبه شامل فى الجبهة السعودية ، فتساقطت المناطق والمدن تباعا واستطاع ابنه طوسون الايغال فى نجد نفسها حتى وصل الى منطقة القصيم ، كما ان جيوشه الاخرى اوغلت فى جنوب الحجاز حتى قرب اليمن . وبعد هذا الانتصار الذى حققه محمد على عاد الى مصر تاركا ابنه طوسون حيث هو فى القصيم . وسبب عودة محمد على فى هذا الظرف قيل انها بسبب خشيته من مؤامرة داخلية للإطاحة به[٣] وقيل ايضا انها بسبب تطور الاوضاع فى اوربا وخاصة هرب نابليون بونابرت من منفاه فى جزيرة ألبا وعودته الى فرنسا ، ونعتقد أن السبب الاخير هو الأقوى والأحرى ، وهذا لا ينفى عدم صحة الاحتمال الاول ، والذى يجعلنا نميل الى هذا هو انه لو كان الامر مجردخوفه من مؤامرة داخلية لما توقفت الحرب ، فالظرف انسب بكثير لمتابعة الغزو

---

(١) طلب محمد على اذن الانجليز فى انزال قوة بحرية للرد على اهانات الوهابيين فى البحر الاحمر ، وقد استحسن القنصل البريطانى Salt هذا الطلب ، انظر

H. Dodwell' The Founder of Modern Egypt' Cambridge; 1967' P.58.

وفى خطاب بعثه Salt الى حكومته بتاريخ ١٥ يونيو ١٨١٦، يبين بشكل واضح حجم محمد على الحقيقى وعدم امكانيه قيامه بأى دور يتناقض مع المصالح البريطانية يقول

"The Admiral Commanding in the Mediteranean might in my opinion at any time bring him to our own terms' in the event of a rupture' without additional Force than that always under his commed' by the same thing might be done in the Red Sea' as twofrigtes stationed between Gedda and Suez would cut off all their Communication by Sea and soon reduce him to terms. Dodwell op. cit. pp. 56-59"

(٢) الرافعى ، نفسه ، ص ١٤٦

(٣) مؤامرة لطيف باشا

قبل ان يتمكن الخصم من اعادة ترتيب اوضاعه والاستعداد للمقاومة ، ولكن الذى حدث هو تجميد الموقف وقيام حالة من اللاحرب واللاسلم ، وقامت بين الطرفين ، طوسون باشا وعبدالله بن سعود ـ الامام الجديد ـ مفاوضات للصلح تم على اثرها عودة طوسون الى مصر وبدى وكأن الحرب على وشك ان تضع اوزارها ، وهذا ينسجم تماما مع الاهداف المعلنة للحملة ، فقد حقق محمد على استرداد الحجاز باسم السلطان العثمانى وطرد السعوديين ، بل وميلهم للخضوع لسيادة السلطان فما هو مبرر تجدد الحرب ؟ .. وماذا يريد محمد على باشا وسلطانه من صحراء نجد ؟ ام هو كما يقال الخوف من عودة السعوديين للحجاز ؟ .. هذا أمر اصبح غير وارد بدليل ان الدولة السعودية الثانية طوال عهدها لم تحاول ذلك اطلاقاً .

عاد محمد على الى مصر واوقفت الحرب بسبب عودة نابليون الى فرنسا وخشيته ـ او فى الحقيقة ـ خشية بريطانيا من محاولة فرنسية جديدة لتهديد مصر ومن ثم تهديد امبراطوريتها فى الشرق وضياع المكاسب التى حققها او فى سبيل تحقيقها محمد على لترتيب اوضاع المنطقة حسب ماتقضيه مخططاتها ومصالحها ، فبعد هزيمة نابليون النهائية فى معركة واترلو WATERLOO سنة ١٨١٥ نسف محمد على كل بادرة لإقامة صلح او احلال سلام مع السعوديين وبدأ الاستعداد لجولة جديدة ونهائية بعزم اقوى وتصميم اشد على سحق الدولة السعودية .

وهكذا بدأت الحملة الجديدة بقيادة ابنه ابراهيم باشا سنة ١٢٣٢ (١٨١٦) وقد أعد لها اعداداً هائلا من حيث العدة والعتاد والمؤن الطبية والاموال الطائلة لرشوة القبائل وشراء ضمائر بعض الزعماء .

ابدى النجديون مقاومة ضارية[١] على الرغم من عدم تكافؤ الامكانيات والخبرات العسكرية حيث كان يصحب ابراهيم باشا خبراء وقادة خبروا الحروب الحديثة ومارسوها بينما النجديون يحاربون بأسلحة بدائية بمقارنتها بأسلحة هذه الحملة ، وبرغم ذلك فقد اهلك ابراهيم باشا قرابة اثنى عشر الف رجل من رجاله ، عشرة آلاف منهم عند أسوار العاصمة السعودية الدرعية[٢] وحدها . وبعد حرب ضروس استمرت قرابة عامين منها سبعة أشهر فى الدرعية وحدها وبعد نفاذ كل وسيلة للمقاومة استسلم الامام السعودى ، عبد الله بن سعود ، مقدما نفسه فداء للمدينة وسكانها ومن ثم حمل الى مصر ومنها الى استانبول حيث قتل هناك رحمة الله عليه .

---

(١) انظر كمثال على ذلك المقاومة البطولية التى ابداها اهل الرس وضرمى ، ابن بشر ، نفسه حوادث سنة ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ .

(٢) ابن بشر ، نفسه حوادث سنة ١٢٣٣ .

لقد تحقق الهدف بالكامل ، ولكن ماهو هذا الهدف ؟ هل هو استرداد الحجاز تحت السيادة العثمانية ، وتأمين سبل الحج ؟ لا ، مطلقا ، الهدف هناك على ضفاف الخليج ، وهدف من ؟ هدف مصر ؟ ام السلطان العثماني ؟ ام بريطانيا العظمى ؟ الاحداث تجيب على هذه التساؤلات .

(د) تصفية القواسم في الخليج :

كما سلف القول ، اخذ الخليج يستعيد مكانته كطريق رئيسى للمواصلات بين الشرق والغرب ، وازدادت هذه الاهمية بشكل خاص اثر حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ م وقد رأينا كيف بادرت بريطانيا الى قطع الطريق على نابليون وحالت دون اتصاله بسلطان عمان اذ نجحت فى اقناع هذا الاخير بتوقيع اتفاقية معها باقامة حامية او قوة عسكرية بريطانية ، وعدم السماح لأية قوة اوربية أخرى بالتواجد فى ممتلكات السلطان ، بل ومشاركة قوات السلطان مع القوات البريطانية فى مقاومتها وتجدد هذا الاتفاق سنة ١٨٠٠ . فى تلك الفترة كان الخليج يشهد نمو قوة عربية بحرية على ساحل عمان الشمالى وهو الساحل الذى اطلق عليه الانجليز (ساحل القراصنه Pirate coast) . هذه القوة الوطنية تحاول الخروج عن طوق الحصار الذى ضرب على الخليج منذ ثلاثة قرون عند مجيء البرتغاليين وتحطيمهم للقوى المحلية العربية التى كانت تمارس الاتجار عبر القرون فى هدوء وسلام ، هذه القوة هى قوة القواسم فى رأس الخيمة ، ونتيجة للتماثل المذهبى بين سكان تلك المنطقة والنجديين والتشابه السكانى ، بل والعدو الواحد المشترك ، سلطان مسقط وحلفاؤه الانجليز ، فقد وجدت دعوة ابن عبدالوهاب قبولا عاما لدى السكان[١] ، وانضوت تحت لواء السعوديين ، ونتيجة لهذا الانضواء فقد اصبحت قوة القواسم امتدادا عضويا للدولة السعودية ، وتضاعف نشاط القواسم البحرى واصطبغ بصبغة الجهاد فى سبيل الله ، هذا الجهاد الذى أصبح فى نظر الانجليز (قرصنة) . وان كان هذا ليس موضوع بحثنا الا اننا نجد من الصعوبة والموضوعية العلمية قبول هذه الوصمة دون تمحيص ، الا اذا كنا مثلا سنقبل ما يصف الاسرائيليون اليوم

---

(١) عرض حكومة المملكة العربية السعودية ، التحكم لتسوية النزاع الاقليمى بين مسقط وابو ظبى والمملكة العربية السعودية ١٣٧٤ / ١٩٥٥ جـ ١ ص ١١٤ و ١٢١ .

الكفاح الفلسطيني بانه ارهاب ، وان الفلسطينيين الذين يقاتلون في سبيل وطنهم ارهابيون ، وما وصف الامريكيون به الفيتناميين بأنهم كذلك والا فهل من المعقول ان تكون قوة اصبح لها اسطول هائل تقدره المصادر الغربية نفسها بأنه يتكون من ٨١٣ سفينة صغيرة و ٦٣ سفينة كبيرة يعمل عليها ما يقرب من عشرين الف رجل[١] وظيفتها الاساسية القرصنة والنهب وقطع الطريق ؟ ..

ان قوة هذا حجمها لا يمكن الا ان يكون لها وجود محسوس وخطير ليس في مجال القوة الحربية فحسب ، وانما في مجال التنافس الاقتصادي والتعامل مع التجارة الدولية في الخليج والبحر العربي والمحيط الهندي .

اقلق تصاعد هذه القوة بريطانيا ، بل ارهبها ، واشد جوانبه خطورة هو انها ترفع لواء الاسلام ، فأي حرب مكشوفة ستكون بدون شك طويلة ومريرة ، ولن تكون ناجحة الا اذا قضي على الأصل ، اي على الدولة السعودية في قلب الجزيرة العربية ، واذا أقدمت بريطانيا على هذه الحرب فانها ستكون مغامرة محفوفة بالمخاطر طويلة المدى قد تتحول بفعل تفاعل الظروف والاحداث الى حرب صليبية ، فماذا سيكون اثرها على الشعوب الاسلامية عامة ورعايا بريطانيا المسلمين في شبه القارة الهندية خاصة ، بل اكثر من هذا ماذا سيكون موقف السلطة العثمانية نفسها امام حرب بين المسلمين والنصارى ؟ .. بالاضافة الى ما قد يترتب على هذا وذاك من نتائج ومضاعفات لا يمكن التنبؤ بها على المستوى الدولي . نعتقد ان مخططي السياسة البريطانية أذكى من ان يقعوا في هذا الخطأ الفادح ، لهذا لجأت بريطانيا الى مقاومة هذا التنامي ـ سواء في جبهته البرية او البحرية بالتستر خلف صديقها سلطان عمان ، الا ان هذا الأخير لم يفلح في مهمته بل اضطر الى الخضوع للسعوديين وأجبر على دفع الزكاة الشرعية لهم[٢] ، واضطرت بريطانيا ، منتحلة أوهى الاسباب ، وقامت بحصار جزيرة كشم التابعة للقواسم سنة ١٨٠٥ ، واجبرت القواسم على توقيع اتفاقية مجحفة في العام التالي (١٨٠٦)[٣] .

---

(١) لوريمر ، نفسه ، جـ ٢ ص ٩٨٤

(٢) ابن بشر ، نفسه ط ص ١٩١ (حوادث سنة ١٢٢٣) ، لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب ، الرياض ، سنة ١٣٩٤ ص ٨٧ ؛ وثائق الحكومة السعودية ص ١٢٢ ؛ لوريمر ، نفسه ص ٦٨٧ .

(٣) لوريمر نفسه ص ٩٧٩ .

الا ان هذه المحاولة لم تنجح فى الحد من تصاعد قوة القواسم فاضطرت مرة اخرى الى تجريد حملة عسكرية وهاجمت رأس الخيمة فى ١١ نوفمبر ١٨٠٩[١] وكان الهجوم عنيفا وشرسا وخاطفا لم يستغرق اكثر من ٣٦ ساعة احرقت فيها السفن واشعلت النار فى مدينة رأس الخيمة ثم انسحبت دون ان تدخل فى اشتباك مع قوات القواسم او القوات السعودية التى هبت لنجدتها[٢]، وجدير بالذكر ان بريطانيا حرصت على التظاهر بالتفريق بين السعوديين والقواسم فى تعاملها حتى تتجنب - كما اسلفنا - الصدام المباشر مع السعوديين الذيـن فى امكانهم الاضرار بطرق مواصلاتها البرية عبر الطرق .

وعلى الرغم من النتائج المدمرة لهذه الحملة بالنسبة لأسطول القواسم ونشاطهم البحرى ، وعلى الرغم من حظر توريد الاخشاب لمنطقة الخليج خشية عودة القواسم الى بناء السفن والنزول الى ميدان التنافس - او الجهاد - على الرغم من ذلك كله استطاع القواسم بتأييد السعوديين ودعمهم خلال السنوات القليلة التالية العودة الى نشاطهم بشكل أقوى مما كانوا عليه . وفى خلال تلك الفترة كانت الدولة السعودية قد وحدت معظم اقاليم الجزيرة العربية ، وأصبح الساحل الشرقى للبحر الاحمر كلة تقريبا باستثناء مدخله الجنوبى الذى اصبح قاب قوسين او ادنى من السيطرة السعودية . فاذا تم للسعوديين تحقيق هذا ، فانهم بذلك يشكلون خطرا بالنسبة لبريطانيا يتضاءل عنده خطر الفرنسيين عندما حاولوا السيطرة على مدخل البحر الأحمر سنة ١٧٩٨ .

بعد سقوط الدرعية (١٢٣٣ / ١٨١٨) واستسلام الامام عبد الله لم يتقدم القائد المظفر ابراهيم باشا نحو الشرق حيث واحة الاحساء الغنية بامكانياتها الزراعية - مقارنة على الاقل بصحراء نجد - والتى لن يكلفه فتحها سوى مشقة السير الى هناك ، ولم يغره الخليج بموقعه الاستراتيجى الهام ! . وانما مكث فى نجد قرابة تسعة أشهر[٣] مارس خلالها ابشع انـواع الوحشية والبربرية وتخلى خلالها عن سياسة اظهار الاحترام لزعماء القبائل الذين استقطبهم

(١) اتخذت بريطانيا من هجوم القواسم على السفينة Minerva فى السنة التى قبل تلك السنة ذريعة لهذا الهجوم ، قاسم ، جمال زكريا ، نفسه ص ١٦٧ . الا ان سبب هذا الهجوم القاسمى غير معروف ولا يستبعد ان تكون هذه السفينة قامت باستفزاز مبيت ضد القواسم او انها رفضت دفع ضرائب معينه مقابل مرورها فى الموانى القاسمية .

(٢) لوريمر ، نفسه ص ٩٩٠ .

(٣) ابن بشر ، نفسه جـ ٢ ص ٢٨٦ (حوادث سنة ١٢٣٤)

بأمواله وترك لجنوده حرية ممارسة العبث والاستهتار بالقيم الدينية والاخلاقية وقام بتصفية جسدية للزعماء واعيان القوم[1] ونكل بالعلماء وأذلهم[2] وبعث بقواته تجوب انحاء نجد تدك الحصون والأسوار[3] ، كما قام بترحيل مايقرب من اربعمائة من عائلتي آل سعود وآل الشيخ الى مصر .[4] ثم توج هذه الاعمال ، وهو رسول الحضارة الغربية[5] ، بهدم مدينة الدرعية ، التى سلم الامام عبد الله نفسه بشرط الابقاء عليها[6] ، وتركها اطلالا مازالت تقوم شاهدا حيا على عظم الجريمة النكراء .

وهنا يجب ان نتوقف قليلا لالقاء بعض الضوء على موقف السيد سعيد بن سلطان ـ سلطان عمان خلال هذه الحرب العدوانية .

رأينا كيف تحركت بريطانيا على عجل لتطويق مخاطر التحرك الفرنسى لتهديد طريق مستعمراتها ومن ثم تهديد الهند نفسها ، وكان تحركها فى ثلاث اتجاهات ، فى مصر نفسها بالتعاون مع العثمانيين والمماليك ، حتى تم اخراج الفرنسيين من مصر ، ومن ثم وضعت مصر تحت المراقبة الدقيقة واتخاذ موقف صارم بعدم السماح لأية قوة اوربية اخرى بتكرار المحاولة الفرنسية[7] . وفى الخليج حيث سارعت الى عقد اتفاقيتى سنة ١٧٩٨ ، سنة ١٨٠٠ مع سلطان بن احمد ، سلطان عمان ، للحيلولة دون اى تهديد فرنسى لمدخل الخليج . وفى مدخل البحر الاحمر الجنوبى سارعت الى احتلال جزيرة بريم فى ٣ مايو سنة ١٧٩٩ ، الا انها اخلتها فى الاول من سبتمبر من نفس هذا العام[8] ، لعدم صلاحية هذه الجزيرة للاقامة والسكنى ،

---

(١) نفسة ، ص ٣٩١

(٢) نفسه ، ص ٢٨٢ ، حوادث (سنة ١٢٣٣)

(٣) نفسه ، ص ٢٩١ (حوادث سنة ١٢٣٤)

(٤) نفسه ، ص ٢٨٦

(٥) يذكر على مبارك ، الخطط التوفيقية ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٧٧ عند الحديث عن استعدادات محمد على لغزو الحجاز سنة ١٨١٠ / ١٢٢٥ ان السلطان رأى « ان ما فعله ذلك من اجل الخدمة الدينية .. فاهدى ذلك السرور لقلب فرنسا وموافقة الانجليز ، وابلغت دولة فرنسا الباشا على يد قنصلها انها ممنونة مما رأته من اقتداره على نشر اعلام التمدن فى البلاد الاسلامية » ؟

(٦) الرافعى ، نفسه ص ١٦٥ .

(٧) نوار ، نفسه ، ص ٨٠ .

(٨) اباظه ، فاروق ، التنافس البريطانى الامريكى ، بحث القى فى ندوة البحر الاحمر فى التاريخ ، فى جامعة عين شمس التى عقدت فى الفترة من ١٠ الى ١٥ مارس سنة ١٩٧٩ ص ١٤ .

ثم فى سنة ١٨٠٢ استطاعت ابرام اتفاية مع سلطان لحج نالت بموجبها امتيازات هامة ابرزها تخفيض الضرائب على البضائع البريطانية فى ميناء عدن الى ٢ ٪ وشراء مقر دائم لشركة الهند ، والاعتراف للوكيل البريطانى بفض المنازعات ، ليس بين الرعايا البريطانيين فقط بل وايضا بين هؤلاء ورعايا السلطان .[١]

وبهذا طوقت بريطانيا الجزيرة العربية بمثلث قاعدته البحر الاحمر ورأسه فى الخليج .

وخلال الحروب النابليونية ، حاول سلطان مسقط ان يقيم توازنا فى علاقاته مع القوتين العظميين ، بريطانيا وفرنسا[٢] ، ليس حبا فى الفرنسيين اوكرها للبريطانيين ، وانما كأى سياسى بعيد النظر يدرك تماما ان من الخطأ الفادح الارتماء فى حضن دولة عظمى ، اذ لن يلبث حتى يتحول الى دمية مسلوبة الارادة فى يد تلك الدولة الكبرى تحركها أنّى شاءت وكيف شاءت مصالحها هى لا مصالحه هو ولا مصالح شعبه . الا ان هذه المحاولة ـ او هذه اللعبة من قبل سلطان مسقط لم تلبث ان فقدت امكانية ممارستها بحكم تطور الصراع بين فرنسا النابليونية وبريطانيا ابتداء من سنة ١٨١٠ لصالح تلك الاخيرة فى المحيط الهندى على وجه الخصوص .[٣]

هذه الفترة اياها شهدت تنامى القوة السعودية بشكل يهدد بتداعى هذا المثلث البريطانى من الداخل ، وخاصة فى زاويتيه الجنوبية الغربية ، مدخل البحر الاحمر الجنوبى ، والجنوبية الشرقية ، مدخل الخليج ، وبالتالى يبطل اهمية الزاوية الثالثة ـ اى مدخل البحر الاحمر الشمالى ـ مصر ـ بالاضافة طبعا الى خطورة هذا التنامى بمضمونه العقائدى وما يمكن ان يترتب عليه من مضاعفات على مستوى المنطقة ككل .

وبالنسبة لسلطان عمان ، اصبح التوسع السعودى يشكل خطرا مباشرا بالنسبة له ، ووجد فى بريطانيا الحليف الطبيعى ، ووقفت بريطانيا خلف صديقها تمده بالمساعدات العسكرية لإيقاف هذا الزحف الا انها حاولت عدم التورط فى التدخل العسكرى المباشر ضد السعوديين للأسباب التى سبقت الاشارة اليها الا فى حالات محدودة ، وضد دولة القواسم بشكل خاص ، متمسكة وبإصرار على التفريق بين موقفها من السعوديين التى تحرص على

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٥
(٢) قاسم ، جمال زكريا ، نفسه ص ١٢٢
(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٦

عدم الاصطدام[١] معهم وبين موقفها من القواسم التى تصر على وصف نشاطهم بأنه قرصنة ، وفى كل الحالات منيت هذه المحاولات ـ اى محاولاتها مساعدة السلطان للتصدى للسعوديين ، وتدخلها العسكرى المباشر ضد القواسم ـ بالفشل الذريع .

وعند مابدأت حملات محمد على حاول الباشا التنسيق مع السيد سعيد بن سلطان للهجوم على السعوديين ووضعهم بين فكى الكماشة فكتب اليه يستحثه لاستئصال « الخارجي المرقوم ومن وراءه من الاطراف والاحزاب ، فنؤمل ظهور همتكم العلية بتأييد مقدمات قضايا اتحادكم بايراد براهين العمل الظاهر كما هو الملحوظ بشأن مشرفكم الكريم الفاخر ... وان حسن لديكم وباشرتم من الآن اسراء السرايا للغزو والجهاد على التوالى لجهة ذلك الغادر واشياعه وذوى العناد ، فيكون ذلك من مستحسنات الرأى ، وجميل السداد ، وبمشيئة الله تعالى حين وصولنا الى الحجاز نستوفى كمال حزم التدابير باجراء مراسم المخابرة مع سيادتكم السنية ، وترتيب توجيه الجيوش المظفرة كما ذكرنا لاستئصال الشقى المرقوم وازالة معالم الدرعية ، وقد اشخصنا اليكم حامل الكتاب نخبة ارباب التحرير والقلم عبد القادر أفندى ، كاتب ديوان ولدنا المشار إليه يقرر لكم ما أودعناه لنا لديه ...[٢] » .

الا ان موقف السيد سعيد تجاه التعاون مع جيوش محمد على اتسم بالتردد فى البداية ثم بالرفض المطلق عندما وصلت جيوش محمد على مشارف الدرعية نفسها ، وقد علل السيد سعيد موقفه هذا بالوحشية التى مارسها ابراهيم باشا[٣] ! هذا الموقف يبدو غريبا للوهلة الاولى ، فالعدو واحد والمحرك او مصدر الايحاء الرئيسى لكلا الطرفين واحد ، فلماذا لم يتعاون السلطان مع الباشا ؟ ..

فى رأينا ان هناك مجموعة من العوامل أسهمت فى تحديد موقف السيد سعيد :

الاول : ان حكم البوسعيد من قبل واثناء ومن بعد عهد السيد سعيد لم يستطع ان يفرض وجوداً حقيقيا على كل عمان ، واقتصرت السلطة المركزية منذ عهد مؤسس هذه الاسرة احمد بن سعيد ، على الشريط الساحلى ، اما الداخل فكان عبارة عن مجموعة من المقاطعات شبهُ المستقلة ، تخضع كل منطقة لزعيم قبيلة او امام[٤] . واثناء فترة توغل النفوذ السعودى

---

(١) **Miles' S.B' The Countries and Tribes of the Persian Gulf' London' 1966' p.318**

(٢) مجموعة الوثائق التركية ، الوثيقة رقم (٣٨١٤) (دارة الملك عبد العزيز مكتبة الوثائق (٥ / ١ ـ ١٦٢) .

(٣) **Winder' op. cit.' P. 41**

(٤) قاسم ، جمال زكريا ، نفسه ، ص ٥٩ ـ ٩١ و ١٣٥ و ١٣٩ .

(١٨٠٠ ـ ١٨١٨) ازداد تقلص سلطة السيد سعيد على عمان ، كما ان هذا الوضع لم يتأثر كثيرا اثناء حملات محمد على لسبب بسيط هو ان النفوذ السعودى لم يكن يرتكز على تواجد قوات سعودية ـ اى من نجد ـ وانما كان يقوم اساسا على القبائل العمانية نفسها ، التى انضمت عن رغبة وطواعية ـ فى معظم الحالات ـ للدولة الفتية[١] ، فلم يكن والحالة هذه فى امكان السيد سعيد ان يقوم بدور عسكرى ذى بال لمؤازرة جيوش محمد على .

الثانى : ان بريطانيا نفسها لم تطلب من السيد سعيد ان يقوم بهذا الدور لادراكها صعوبة ـ ان لم يكن استحالة ذلك للسبب آنف الذكر ، وأنها لو طلبت منه ذلك فان هذا يحتم عليها ان تتدخل مباشرة فى تلك الحرب ، وهذا قطعا مالا تريده ، وانما فضلت العمل خلف ستار كثيف من التعتيم على دورها الحقيقى الذى تقوم به فى استانبول والقاهرة ومن ثم قطف الثمار عند نضجها .

صحيح ان حكومة الهند بعثت « سادلير » Sadleir للتنسيق مع ابراهيم باشا والسيد سعيد ولكن يجب ان نلاحظ شيئين : (أ) أن ذلك تم بعد أن أصبح انتصار جيوش محمد على ضد الدرعية محققا (ب) أن هدف التنسيق بين الأطراف الثلاثة السيد سعيد ، ومحمد على ، وبريطانيا كان منصبا على الهجوم على القواسم وليس على الدولة السعودية ذاتها .[٢]

الثالث : انه وان كان الاثنان ، السيد سعيد ومحمد على ، يدوران فى فلك السياسة البريطانية ، ويخدمان فى النهاية اغراضها ومصالحها ، الا ان هذا لا ينفى وجود تناقض مصلحى بينهما ، فالسيد سعيد لاشك تساوره مخاوف ان تضحى به حليفته اذا رأت أن حصانها الآخر والاقوى سيكون اكثر نفعا لها ، هذا بالاضافة الى أن بريطانيا كانت تصر حتى آخر يوم منْ حياة محمد على انه تابع للسلطان ويأتمر بأمره ! فمن حق السيد سعيد ان يتخوف من هذا القادم الجديد سواء على وهم انه مدفوع بقوته الذاتية ، أو انه ممتثل لأمر السلطان العثمانى ، أو انه يدرك الحقيقة التى يحرص الجميع على التستر عليها وهى انه مجرد اداة لتحقيق اغراض بريطانيا العظمى .

بعد أن انجز ابراهيم باشا مهمته باستسلام الامام عبد الله مكث فى الدرعية تسعة اشهر ينتظر تعليات والده بشأن الخطوة التالية ، وكان يريد أو يتوقع ان يواصل السير نحو الشرق

---

(١) عرض حكومة المملكة العربية السعودية ، جـ ١ ص ١١١ و ١١٤

(٢) Winder' op.' cit,

حتى ضفاف الخليج ، الا ان تعليات السلطان لمحمد على بهذا الخصوص كانت صريحة وواضحة بعدم التقدم خطوة واحدة فى هذا الاتجاه[1] ، وقد استجاب محمد على لأمر السلطان فأمر ابراهيم بهدم الدرعية والعودة الى مصر !

وهنا موقع التساؤل : فمتى كان محمد على يأتمر بأمر السلطان ، خاصة اذا كانت هذه الاوامر تتناقض مع اهدافه ومصالحه وطموحاته ؟ وايها اكثر اغراء له : صحراء نجد التى كلفته قرابة ثلاث سنوات من الحرب الضروس والاموال الطائلة ثم ينسحب منها ؟ اليست الاحساء بواحاتها الغنية ومواردها الزراعية وساحل الخليج بموقعه الاستراتيجى الهام اكثر اغراء خاصة وانها اصبحت فى متناول يده ، ولن يكلفه الاستيلاء عليها ـ كما سلف القول ـ اكثر من مشقة السير الى هناك ؟..

واذا فرضنا انها مجرد استجابة لرغبة السلطان فما هى دوافع السلطان نفسه لإتخاذ هذا الموقف ؟ اليس من مصلحته ان تتولى جيوشه ـ او المحسوبة عليه ـ المنتصرة اكمال هذا النصر والقضاء على من يسمونهم أتباع الوهابيين ـ او القراصنة ـ أى القواسم وتعزيز نفوذه فى الخليج والعراق ؟ ..

اننا نعتقد ان السلطان فى تلك الفترة لم يكن فى موقف يسمح له بأن يتخذ اى قرار من زاوية المصالح العليا للدولة العثمانية بقدر ما يجب ان ينسجم هذا القرار مع معطيات الموقف الدولى وخاصة فيما له علاقة مباشرة بالمصالح البريطانية فى المناطق ذات الاهمية لتلك الاخيرة مثل منطقة الخليج والبحر الاحمر ، وان الدولة السعودية الاولى شكلت تهديدا خطيرا لتلك المصالح فوجب اتخاذ القرار لتدميرها من قبل السلطان العثمانى لا استجابة للمصالح العليا للدولة العلية بقدر ما هو حماية للمصالح البريطانية ، ولم يكن الباشا الالبانى فى مصر يجهل هذه الحقيقة فهو يدرك جيدا أن أى قرار يصدره السلطان وله مساس بالمصالح البريطانية يجب ان ينال مباركة هذه الدولة أو على الاقل عدم معارضتها .

بهدم الدرعية ، وبالتصفية الجسدية لرجالات الدولة السعودية حقق محمد على المهمة بالكامل ، اما ان يتقدم نحو الخليج فعلى الرغم من استعداده للقيام بهذه المهمة ضمن الاطار الذى يدرك جيدا أنه يسير فيه فان هذا سيوجد فى المنطقة اوضاعا معقدة لاداعى لها بالنسبة لبريطانيا ، فهو سيثير مخاوف حليفها السيد سعيد بن سلطان ، وسيجعل ترتيب العلاقات بين

(١) مجموعة الوثائق التركية ، الوثيقة رقم ١٩٥٧٢ من محمد على الى رئيس الكتاب ؛ والوثيقة رقم ١٩٦٥٠ من والى مصر الى السلطان .

هذه الاطراف الثلاثة امرا بالغ التعقيد والحساسية لا مبرر له ، كما أن التعاون المباشر بين بريطانيا وجيوش محمد على سوف يسبب حرجا للسلطان العثماني فى ممتلكاته الاسلامية خاصة الشام والعراق ، كما انه سوف يسقط القناع عن حقيقة محمد على والدور الذى يقوم به وهذا بالقطع مالا تريده بريطانيا ، فهى لم تنته بعد من اللعب بهذه الورقة فيهمها المحافظة عليها لاستثمارها فى المكان المناسب فى الظرف المناسب وهذا ما سنراه فيما بعد .

تحرج موقف القوات السعودية فى الخليج بعد سقوط الدرعية فسارع امير المنطقة بتال بن محمد المطيرى الى مقابلة السيد سعيد بن سلطان لترتيب اتفاق معه وفق الظروف الجديدة[١] كما ادرك القواسم خطورة الموقف فحاولوا الدخول فى صلح مع الانجليز ، ولكن « الأمر قد قضى بليل » فقد نضجت الثمرة وحان قطافها فجردت بريطانيا حملة عسكرية فى التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨١٩ هاجمت عاصمة القواسم بكل عنف وشراسة فأحرقت ودمرت كلما وصلت اليه يداها الطويلتان بتصميم عنيد وحاقد على الا يقوم مرة اخرى لمثل هذا الخطر قائمة ، وتوجت هذه الحملة فى العام التالى بفرض اتفاقية اسمتها اتفاقية السلام الشامل General Treaty of Peace

وبدلا من ابرامها مع ابرز شيوخ هذه المنطقة. عمدت الى توقيعها مع عدد من الشيوخ (٨ شيوخ) جعلتهم على نفس الدرجة من المساواة فيما بينهم وانداداً لبعضهم فأوجدت كيانات من شبه لاشيء وكانت هذه الاتفاقية ، التى هى نتيجة مباشرة لحملات محمد على ومكملة لها ، خطوة حاسمة فى سبيل توطيد الهيمنة البريطانية لا على الخليج فحسب ، وانما على كل المنطقة بأسرها لفترة طويلة مظلمة قادمة .

وكما لم تتقدم جيوش محمد على نحو الخليج ايضا توقفت دون المركز الاستراتيجى الهام الآخر فى الركن الجنوبى الغربى من الجزيرة والمدخل الجنوبى للبحر الاحمر ـ اليمن ـ وانما تخلى محمد على عن بعض المقاطعات التى كانت تحت سيطرة السعوديين لإمام اليمن بشرط دفع مقدار معين من البن كل عام وقبول سيادة السلطان العثمانى .[٣]

وهنا وفى هذا الظرف بالذات افتعلت بريطانيا مبررا واهيا[١] وقامت بضرب عنيف للموانى اليمنية ، واجبرت امام اليمن على توقيع اتفاقية تتضمن اقامة حرس خاص للوكالة

---

(١) Winder' op. cit. P 37

(٢) اباظه ، فاروق ، عدن السياسة البريطانية ، ص ١٠٥

(٣) اباظه ، نفسه ص ٩٠ وقارن Cf' Dodwell' op. cit. P. 61

البريطانية ، واضفاء الحماية على جميع العاملين فيها ، وكذلك تجار « سورات » Surat وان يكونوا من الناحية القضائية تابعين للوكيل البريطانى كما يجب تخفيض الضرائب على التجارة البريطانية الى (٢١/٤٪)[١] كما أن الكابتن بروس William Bruce مبعوث حكومة الهند البريطانية للتفاوض مع امام اليمن طلب من هنرى سولت Henry Salt قنصل بريطانيا فى القاهرة تأكيد تبعية مخا لمحمد على[٢] ! « بل أن حاكم بومباى الفنستون El phinstone طلب من (سولت) Salt .. تأكيد تبعية اليمن لمحمد على واستئذانه فى حالة الضرورة فى قيام حكومة بومباى بمحاصرة الموانى اليمنية »[٣] ولكن هذه التبعية لا تعنى وصول قوات الباشا الى مضيق باب المندب وانما تعنى فقط لوى ذراع امام اليمن فيما لو حاول التصدى للمصالح البريطانية وتهديد مدخل البحر الاحمر .

---

(١) اباظه ، نفسه ص ٩٠ Cf' Dod well' op. ct. P. 61

(٢) اباظه ، نفسه ص ٩٠

(٣) المصدر السابق ص ١٠٦

الفصل الثاني

مِن السُّودان إلى اليُونان

(أ) غـزو السُّـودَان

(ب) غـزو اليُـونـان

- علاقة الثورة اليونانية بالقوى الأُوروبيّة
- موقف محمّد علي من الثورة اليونانية
- التّـواطؤ والخيانة

(أ) غـــزو السُّـــودَان :

كما هو معروف فان بريطانيا العظمى كانت فى هذه الفترة ـ الفترة المعاصرة لحكم محمد على فى مصر ـ اكثر الدول المعنية خاصة بعد مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ بتماسك ممتلكات الدولة العثمانية لأسباب ليس هنا موضوع بحثها ، الا ان هذه الدولة ، اى الدولة العثمانية ، كانت قد وصلت الى درجة من الضعف ، اصبحت غير قادرة على الاعتماد على قوتها العسكرية للوقوف فى وجه اى قوة اوروبية ، او غير اوروبية للدفاع ولو لفترة معقولة من الزمن ، ريثما يتم تسوية اسباب النزاع بالوسائل الدبلوماسية ، عن اى جزء من اراضيها يتعرض للعدوان .

ومن ناحية اخرى فان بريطانيا ليس فى امكانها ان تتولى مباشرة مهمة الدفاع بقواتها العسكرية عن هذه الدولة ، فان هذا لو حدث لترتب عليها نتائج خطيرة على مسرح السياسة الاوربية تتعارض مع جوهر سياسة تثبيت الاوضاع القائمة التى تبناها مؤتمر فيينا المشار اليه وجند المستشار النمساوى مترنيخ Metternich نفسه لمهمة المحافظة عليها ، وهى اى بريطانيا لا تريد فى الحقيقة احباطها .

لهذا ، وبعد نجاح تجربة محمد على فى ضرب القوة السعودية (الوهابية) باسم المحافظة على ممتلكات السلطنة العثمانية ، فان امكانية استخدامه فى ظروف مشابهة ، فى جزء آخر من اجزاء الامبراطورية العثمانية ،اصبح بدون شك امرا واردا ، ان لم يكن قد اصبح بعد سياسة مرسومة .ولعلنا نلاحظ فى هذا الصدد ان العلاقة المباشرة بين محمد على والقنصل البريطانى فى القاهرة هنرى سولت Henry Salt فى هذه الفترة بالذات كانت حميمة ، وان الاول لا يسمح لفرصة تمر دون ان يؤكد للأخير حرصه الشديد على صداقته ـ أو ولائه ـ لبريطانيا ، وانه يدرك انه لا يستطيع ان يقوم بعمل جليل دون موافقة بريطانيا [١] وان Salt فى نفس السنة التى بدأ

---

(١) 1. Dodwell, op.cit,p.105

فيها محمد على غزو السودان قد استأذن حكومته للسفر الى لندن لأسباب صحية فى الظاهر ، ولكن لأسباب اهم فى الحقيقة وهى على حد تعبير Salt نفسه « ان رجلنا العظيم هنا (اى محمد على باشا) يلح من اجل اتصالات لا يمكن كتابتها على الورق » .(١)

يكاد يكون هناك اجماع بين من كتبوا عن غزو محمد على للسودان ، والذى بدأ سنة ١٨٢٠ ان دوافعها وأهدافها تتلخص فيما يلى :

(١) تعقب فلول المماليك الذين فروا من مصر ، اثر مذبحة القلعة سنة ١٨١١ م خشية ان يتمكنوا من تثبيت اقدامهم هناك فيشكلون بذلك خطرا يهدده من الخلف .

(٢) الوصول الى مناجم الذهب والفضة التى كثرت الاشاعات حينها عن وفرتها فى بعض مناطق جنوب السودان .

(٣) ان السودان هى العمق الاستراتيجى والامتداد الطبيعى لمصر ، وان الاستيلاء عليها يحقق لمحمد على السيطرة الكاملة على البحر الاحمر ، بعد ان نجح فى القضاء على السعوديين وبسط نفوذه على الساحل الشرقى لذلك البحر .

(٤) الحصول على اعداد كبيرة من العبيد لانشاء جيش قوى وفق النظام الجديد (النظام الاوروبى) .

وكل هذه الأسباب منطقية ووجيهة ، فتعقب المماليك ـ وان كان فى رأينا أوهى هذه الاسباب ، وان محمد على اتخذه كذريعة فقط ، الا انه من حق اى حاكم سياسى ـ فى ظروف ذلك العصر فى الشرق ، ان يصفى خصومه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، كما ان الغزو والاحتلال من اجل السيطرة على مواد الخام الأولية كالذهب والفضة ، مع ان النتيجة بالنسبة لمحمد على لم تكن على مستوى التوقعات من حيث كمية الذهب الذى وجد ، هى فى حد ذاتها مبرر جيد لتجييش الجيوش واحتلال تلك المناطق الشاسعة ، فالعصر عصر استعمار وتسلط بحثا عن تلك المواد الخام وامثالها .

اما السبب ـ او الهدف الثالث ، وهو ان السودان هو العمق الاستراتيجى والامتداد الطبيعى لمصر ، او بعبارة اخرى ، ان غزو جيوش محمد على للسودان هو نوع من التوحيد السياسى ، بلغة العصر السائدة ، اى القوة العسكرية ، حيث ان التشابه والتكامل بين

---

(١) وهى بالنص الحرفى :
"Our great man here having pressed me to make communications which I cannot commit to papers"
Ibid, p.83

القطرين ـ المصرى والسودانى ، تستدعى مثل هذا التحرك ، فهو بدون شك انبل هذه الأسباب وأوجهها ، فعوامل الوحدة الجغرافية والسياسية بل والسكانية والتراثية ـ ان صح هذا التعبير ـ التى تشجع مثل هذا الاتجاه اكثر فيما بين هذين القطرين من تماثلها مع اى قطر آخر .

وليس هنا مجال تقييم النتائج التى ترتبت على هذا التوحيد بشكل مفصل وكاف الا ان الحقيقة التى تفرض نفسها على اى بحث جاد تؤكد ان الاساليب التى اتبعت والاهداف الاساسية المتوخاة أبعد ما تكون عن تحقيق هذا الهدف النبيل ـ اى توحيد شعبى وادى النيل . فالاساليب البربرية التى اتبعت اثناء الغزو وبعده [١] ، وفرض الضرائب الباهظة على السكان العزل [٢] وتسليط الاجانب فى الدين واللغة والانتاج ،واخيرا تسليم البلاد كلها لقمة سائغة للمستعمر الاجنبى ، لا شك اعطت نتائج سلبية فى هذا الجانب وعززت عوامل الانفصال والكراهية على حساب عوامل الوحدة والانسجام بين هذين الشعبين .

وعلى الرغم من ان غزو السودان لم يكن يتوقع ان يثير حساسيات قوى كبرى ، فاننا لا نعتقد ان بريطانيا على وجه الخصوص كانت بريئة من المشاركة باسداء النصح لمحمد على ـ ان لم تكن هى مصدر الايحاء الرئيسى . فكما سبقت الاشارة ، انه ليس من قبيل الصدفة ان يسافر قنصلها فى مصر Henry Salt الى لندن ،فى نفس او قبيل بدء الغزو لاجراء مشاورات لا يمكن كتابتها على الورق هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان جيوش محمد على عند ما أمعنت فى التوغل فى جنوب السودان خشى Salt ان من بين اهدافها فتح الحبشة ، او بتعبير أدق الوصول الى مدخل البحر الاحمر الجنوبى من جهته الغربية [٣] ، ابلغ Salt محمد على ان مثل هذا غير مرغوب فيه من قبل انجلترا ، اجاب الباشا بشكل قاطع انه « رغم ان هذه المنطقة مليئة بالذهب والمجوهرات ، وان فتحها مؤكد فانه (يختار) التخلى عنها محافظة على علاقته ببريطانيا العظمى » ويعقب Salt على ذلك بقوله « لم اعهده مطلقا يعطى كلمة لنا وهو لا يعتزم الوفاء بها .[٤]

(١) ضرار ، ضرار صالح ، تاريخ السودان الحديث ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٢٩ و ٣٠ و ٣٩ ..الخ .

(٢) شبيكة ، مكى ، السودان فى قرن ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) نفس الموقف الذى حدث عندما أمعنت جيوش محمد على فى جنوب غرب الجزيرة وتوقفت دون الوصول الى مدخل البحر الاحمر !

(٤) Dodwell, op. cit. p 59.

الا ان الذى يعنينا على اى حال فى مجال بحثنا هذا هو الهدف او السبب الرابع ، وهو (الحصول على اعداد كبيرة من العبيد لانشاء ، جيش قوى وفق النظام الجديد ـ النظام الاوروبى) . وبغض النظر عن الوسائل اللا انسانية التى اتبعت لتحقيق هذا الهدف فانه من المؤكد انه هو الهدف الرئيسى للغزو فبعد حوالى شهرين من دخول ابنه اسماعيل سنار بعث محمد على بخطاب الى الكتخدا فى مصر يقول « علمنا من مكاتبة نجلنا صاحب السعادة الباشا سر عسكر السودان الواردة مع بشكيرجيه انه ارسل بصحبة سلحدار سليم اغا نحو الف وتسعمائة زنجى »[1] وفى خطاب موجه للدفتر دار يقول الباشا « ونأمل ان تبذلوا جواهر همتكم للحصول على العبيد بكثرة ، وهذا هو الباعث لتحرير مكاتبة مودتنا هذه ، فخالص املنا لدى حصول الشرف بوصولها ان شاء الله تعالى ان تصرفوا همتكم الجليلة على الوجه المحرر » كما ذيل هذا الخطاب بحاشية يقول فيها « حيث ان الاهم ، والالزم لنا هو الحصول على العبيد قبل كل شىء سواء من كردفان او موردفان فقد وافيناكم بهذا الاشعار تكرارا لأجل التأكيد » .[2]

كما يؤكد محمد على فى خطاب آخر للدفتردار هذا الهدف بقوله « ولما كان المقصود من اختيارنا كل هذه الجهود والمواد تجشمنا هذه المشاق ، وكان ما تعود ضميرنا الانطواء عليه عندما بذلنا تلك الأموال والمهمات ، لما كانت الغاية المرجوة من هذا كله منحصرة فى جلب العبيد بكثرة ووفرة فان مطلوبنا هو ان تدبروا هذا الأمر على الوجه الذى تقتضيه غيركم وتستدعيه حميتكم ، وتبذلوا مزيد الجهد وقصارى العناية فى تحرّى كل ما هو ممكن فى سبيل جلبهم وارسالهم مهما بلغ قدره ، وان تنفقوا فى تحقيق هذه الغاية ما تصل اليه قدرتكم ، وتصرفوا فى ادائها على الوجه المرغوب جعبة همتكم » .[3]

الا أن محصول صيد العبيد لم يكن بالعدد الكافى الذى يحتاجه الباشا فى فترة الغزو الاولى فبعث بخطاب من صورتين واحدة لابنه اسماعيل والآخر للدفتردار فى ١٢ محرم سنة ١٢٣٨ (١٨٢٢) يستحث فى طلب المزيد يقول فيه « حمدا لله ثم حمدا ان تكنات اسوان

---

(١) شبيكة ، مكى ، مقاومة السودان للغزو والتسلط ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٢ ص ٢٩ .

(٢) شبيكة ، نفسه ، ص ٣٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٣١

وفرشوط قد اكتسبت نظامها ، ولم يبق شيء من الأمر الا ورود العبيد الذين نطلبهم ، وقد كنا فهمنا من كتبكم الواردة اولا وآخرا انه ينبغى الصفح عما حدث فى العام الماضى والاهتمام بثمرات المساعى فى هذه السنة ، وقد انقضى الآن موسم الأمطار وآن زمن الغزو من اجل ذلك ، ولا نرتاب فى انكم نفرتم من حيث تقيمون ، فقصدتم الموضع الذى عزمتم السفر اليها للحصول على عدد كبير من العبيد ، الا اننا لما كنا فى انتظار ورود العبيد بمقتضى الوقت والحال ، اخذنا نذكركم بهذه المسألة فى كل كتاب ارسلناه اليكم ، كما اكدنا عليكم قبل ايام بإرسال الاغا خفتا نينا ، ولما كانت هذه المسألة لا تقاس على سائر الامور ، وكان الواجب يقضى عليكم ان تغزو الجهات التى عزمتم غزوها بشجاعة ، مهما كلفكم ذلك وتأتوا بعبيد كثير ، فقد كتبنا كتابنا هذا خاصة وضمناه الاستعجال مرة اخرى وبعثنا به معجونينا (؟) ابراهيم اغا ، فاذا جاءكم وعلمتهم من افادته مفاد ارادتنا فأرنى همتك يا بنى واغز الاماكن التى يرجى فيها وجود العبيد بشجاعة وشهامة ولا تقس هذا الامر على الامور الاخرى واعتن بالاستياق بكثير من العبيد واسع فى ارسال ما تقدر عليه منهم الينا وابذل جهدك وحميتك فى هذا الشأن كما ارجو منكم » .(١)

هذا هو الهدف الرئيسى اذن من حملة السودان ، وبالرغم من ان هذا الهدف لم يتحقق بسبب عدم قدرة العبيد المجلوبين على التأقلم فى الاجواء الجديدة وموت الكثير منهم لهذا السبب(٢) فان هناك عددا من التساؤلات تفرض نفسها فى هذا المجال .

الاول : ما هو موقف بريطانيا من قضية هؤلاء المسترقين اسلوبا وغاية .

الثانى : لماذا لجأ محمد على الى تكوين جيشه من غير المصريين مع ان الكثافة السكانية(٣) فى مصر فى ذلك الحين اعلا منها فى أى قطر من أقطار المنطقة ؟ .

الثالث : ما هو هدف محمد على من انشاء هذا الجيش القوى ، او بعبارة اخرى ما هو الخطر المحدق بمصر حتى يسعى محمد على لإنشاء جيش قوى لدرئه ؟

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٣ ـ ٣٤

(٢) يقدر عدد العبيد الذين تم جمعهم وارسالهم إلى الثكنات العسكرية فى أسوان بحوالى ٢٠,٠٠٠ إلا أنه لم يبق منهم على قيد الحياة سنة ١٨٢٤ إلا حوالى ٣٠٠٠ فقط حسب خطاب Salt المؤرخ فى ٨ فبراير سنة ١٨٢٤ (F.O. 78-126) .

(٣) يقدر عدد سكان مصر خلال الحملة الفرنسية بـ ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة

Bowle, John, The Imperial Achievement, England, 1974, P.449.

هذه التساؤلات تبدو للوهلة الاولى وكأن لارابط بينها الا انها فى الحقيقة مظاهر أو جوانب متعددة لحقيقة واحدة ، أو بتعبير آخر ، لموقف استراتيجى متخذ سلفا ، اما ما هى هذه الحقيقة أو هذا الموقف الاستراتيجى فسيبرز لنا واضحا جليا بعد مناقشة كل مظهر أو جانب على حده .

فالاول : وهو موقف بريطانيا من قضية هؤلاء المسترقين اسلوبا وغاية :

فالمعروف ان بريطانيا فى تلك الفترة ، وخاصة فى الثلاثينيات من ذلك القرن فما بعدها ، كانت تحمل راية محاربة الرق فى طول الكرة الارضية وعرضها وخاصة فى القارة الافريقية ، وقد اصبح من المسلم به اليوم ان هذا الموقف لم يكن بدوافع انسانية او اخلاقية بقدر ما هو وسيلة لتحقيق اغراض مصلحية وسياسية ، ليس هذا مجال عرضها ، ومع هذا نرى بريطانيا تلتزم جانب الصمت الكامل وتتجاهل هذه الممارسات مع ان رسائل قناصلها فى القاهرة تثبت بشكل قاطع انها كانت على اطلاع دقيق بكل ما يجرى ، مع انها هى الدولة الوحيدة التى تستطيع ان تنصح ـ او تأمر ـ الباشا فيستجيب دون تردد ، الا ان انسانيتها ، او ضميرها قد استيقظ بعد حين حينما جدت ظروف جديدة ، او بوجه أصح زالت مبررات هذا الاسترقاق فمارست نفوذها لإيقاف هذه الممارسات اللا انسانية .[1]

والسؤال هو : ما هى النتيجة التى تستخلص من هذا الموقف ؟ هى ببداهة ان تجنيد هؤلاء العبيد ليس فقط لايضار مصالحها بشىء ، وانما هو ينسجم تماما مع مخططها ، هو يحقق مصلحتها ، فهى ان لم تكن صاحبة الفكرة او مصدر الايحاء بها اصلا فهى على الاقل تباركها .

والثانى : وهو لماذا لجأ محمد على الى تكوين جيشه من غير المصريين مع ان الكثافة السكانية فى مصر فى ذلك الحين اعلا منها فى اى قطر من اقطار المنطقة :

فإنه من الصعب بل من غير الموضوعية قبول التبرير الذى يقدمه من تعرض لهذا الموضوع حتى من الاخوة المصريين وهو كراهية المواطن المصرى للخدمة العسكرية[2] او كما

---

(١) انظر ادناه ص ١١٩

(٢) الرافعى ، نفسه ص ٣٨٥ ، عمر ، نفسه ، ص ١٧١ ، السروجى ، محمد محمود ، الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر ، مصر ١٩٦٧ ، ص ١٧

وصفه د . ج . بورينج Dr. G. Bowring [1] عند حديثه عن هجر الفلاحين المصريين لأراضيهم فى عصر محمد على حيث يعزو ذلك بأنه « بسبب مااعتادوه (اى المصريين) من الالتجاء الى تشويه اجسامهم فرارا من الخدمة العسكرية التى يبغضها المصريون من ابناء العرب بغضا لا نظير له ، لا لأنهم يخشون مايتعرضون له بسببها من اخطار فحسب بل لأنهم يحبون واديهم حبا عميقا يتجلى فى جميع افراد الشعب »[2] هذا الوصف يعنى بكل وضوح ناحيتين : الاولى ان الشعب المصرى شعب جبان ، والثانية انه شعب محب لوطنه ! ويعطى آخرون تبريرا لذلك ان الشعب المصرى ظل منذ عهد الفراعنة يخضع للغرباء[3] ، وهؤلاء الغرباء ـ طبعا بما فيهم العرب المسلمون ـ هم الذين يحكمون ويتولون الدفاع عن مصر ، اما الشعب فهو مطية ذلول لكل راكب ! وواضح ما فى هذه الادعاءات من مزاعم غير موضوعية واحكام لا تستند الى براهين ودلائل يعتد بها ، وان كان هذا ليس مجال تقييم ما يتصف به الشعب المصرى من سمات الشجاعة او الجبن ، ولكننا نعتقد أن نعت شعب من الشعوب بصفات معينة واعطاؤها صفة الثبات والديمومة ، بغض النظر عن الظروف والاحوال المتغيرة بطبيعتها مجاف للحقيقة ، وجهل او تجاهل لسنن وقوانين التطور الاجتماعى ، وفى حالة الشعب المصرى نعتقد ان هذه الاوصاف المزرية التى تلصق به فى هذا المجال هى جزء من إعلام خبيث مبيت وخطورته فى تصديقه .

واذا اخذنا وصف بورينج Bowring السابق كنموذج لهذه المزاعم ـ وربما هو مصدرها الاساسى ـ فاننا نجدها بدون عناء كبير واضحة التناقض ، فالشعب المصرى على حد زعمه شعب جبان ، ولكنه محب لوطنه جدا ! واننا لنتساءل كيف يكون المحب جبانا فى الدفاع عن من او مايحب ؟ فالشخص او الشعب صادق الايمان بعقيدته لابد ان يكون شجاعا فى دفاعه عنها وكذا الشخص او الشعب صادق الحب والولاء لوطنه لابد ان يكون شجاعا للدفاع عن

---

(١) Dr. John Bowring هو عضو مجلس العموم البريطانى ـ اوفدته الحكومة البريطانية الى مصر سنة ١٩٣٧ لوضع تقرير عن حالة مصر فى ذلك الحين وما ينتظر ان تكون عليه فى المستقبل .. وفى مارس سنة ١٩٣٩ رفع بورينج الى حكومته تقريره المشهور تحت عنوان « تقرير عن مصر وكريت » .
نقلا عن د . محمد فؤاد شكرى وآخرون ، نصوص ووثائق ، مصر ، ص ١٦٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٧

(٣) Dodwell' op. cit. P. 65

هذا الوطن ، وليس هذا ضرب من المثاليات وانما هو قانون الحياة وحب البقاء فالشعب المصرى يحب وطنه لا لمجرد انه وطنه وهذه فى حد ذاتها كافية وانما ايضا لما يقدمه هذا الوطن من وافر الرزق وطيب الحياة ، فدفاعه عن وطنه دفاع عن حياته وبقائه ، ولكن هل مقاومة الشعب المصرى للتجنيد الذى اضطر محمد على الى اللجوء اليه بعد فشل تجربة تجنيد العبيد هى برهان الدكتور بورينج Bowring على جبن الشعب المصرى ؟ وهل كان هذا التجنيد للدفاع عن مصر ؟ فمصر لم تتعرض لعدوان خارجى فى خلال فترة حكم محمد على ، فرفض الشعب المصرى الانخراط فى جيش محمد على هو رفض للعدوان الذى سلكه محمد على لتحقيق اغراض اقل ماتوصف به واقصى ما يمكن للشعب المصرى وقتهـا ان يدركه من اهدافها انها مشبوهة .

ولاتقل المقولة الثانية ، وهى ان سبب كره الشعب المصرى للخدمة العسكرية انه ظل منذ عهد الفراعنه يخضع للغرباء ، لاتقل تهافتا وفجاجة ، بل مغالطة خبيثة المقاصد ، ولا نريد لتفنيدها ان نستعرض التاريخ منذ ذلك العهد ، أى عهد الفراعنة حتى تاريخ الفترة التى نحن بصددها ، فهذا ليس من غرضنا ولا إمكاننا أيضا ولا نريد كذلك ان ننفى خضوعه للغرباء ، فهو كغيره من الشعوب خضع فى فترات من تاريخه للغرباء ، وهذا لايضيره كما لم يضر غيره من الشعوب ، وانما نريد ان نفند هذه المقولة التى تقول أنه طوال تلك الفترة كان بعيدا عن ميدان القتال دفاعا عن وطنه وأن الذى تولى تلك المهمة هم الغرباء ، ولن نعود للتاريخ الاسلامى المبكر ، وانما سنأخذ على سبيل المثال فقط لا الحصر فترة الحكم الأيوبى والمملوكى ، فالشعب المصرى خضع للأيوبيين كما خضع للمماليك ، ولكن ايضـا الشعـب السورى وكذلك الشعب اليمنى ومعظم الجزيرة العربية أيضا خضعت لتلك الدولتين ، فلماذا لايوصف الشعب اليمنى والشعب السورى بتلك الصفة ؟ وهل جيوش صلاح الدين الايوبى والظاهر بيبرس التى حققت انتصارات باهرة على الصليبيين والتتار كلهـا من الايوبيـين والمماليك ؟ أم أن الايوبيين والمماليك بمثابة إسرَ حاكمة فقط وأن لحمة الجيوش وسداها من شعوب المنطقة ، سواء كانت سورية أم مصرية . فى ذلك العصر لم يكن ينظر للناس على أساس أصولهم العرقية بقدر ما ينظر الى معتقدهم ، وكان الاسلام هو القاسم المشترك الأعظم بين السكان ، وسواء كان الحاكم كرديا أو مملوكيا تركى الأصل أو عربيا قحا فهو إن كان

يقيم فى سوريا فهو سورى مسلم أو فى مصر فهو مصرى مسلم وكفى ، لابل هو عربى سورى مسلم بالنسبة للاولى وعربى مصرى مسلم بالنسبة للثانية لأنهما بلدان عربيان . ولا نريد أن ندخل فى متاهات فلسفية لتعريف العروبة ما هى ، ومن هو العربى ، ولكن حتما العروبة ليست عرقية ولا عنصرية شوفينية ، هى ولاء ومواطنة ، والاسلام هو الرابطة الأقوى والأهم .

ولدحض هذه التهمة الموجهة للشعب المصرى من الزاوية التى نحن بصددها والتى تتخذ تبريرا للجوء محمد على الى تجنيد جنده من غير المصريين نورد مقتطفات من مؤلف معاصر للغزو الانجليزى لمصر سنة ١٨٠٧ ، أو ما يعرف بحملة فريزر fraser، ومؤلف هذا الكتاب على جانب كبير من الموضوعية والامانة التاريخية ، هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى كتابه **عجائب الآثار فى التراجم والاخبار** حيث يتبين دور الشعب المصرى - والدور الحقيقى الذى لعبه محمد على افشال الحملة الانجليزية لا بل يتبين رأى المصريين المعاصرين فى محمد على وجيشه الارناؤوطى .

يقول فى حوادث شهر محرم سنة ١٢٢٢ (١٨٠٧) :

« وفى يوم الجمعة رابع عشرينه وردت اخبار من ثغر رشيد يذكرون بأن طائفة من الانكليز وصلت الى رشيد فى صبح يوم الثلثاء حادى عشرينه ودخلوا الى البلد وكان أهل البلده ومن معهم من العسكر متنبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت ، فلما حصلوا بداخل البلده ضربوا عليهم من كل ناحية فألقوا مابأيديهم من الاسلحة وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة واسروا الباقين » .

« وفيه نبه السيد عمر النقيب على الناس وأمرهم بحمل السلاح والتأهب للجهاد فى الانكليز حتى مجاورى الازهر أمرهم بترك حضور الدروس وكذلك أمر المشايخ والمدرسين بترك القاء الدروس » .

« وفى يوم الثلثاء حصلت جمعية بيت القاضى وحضر حسن باشا وعمر بيك والدفتردار وكتخدا بيك والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير فتكلموا فى شأن حادثة الانكليز والاستعداد لحربهم وقتالهم وطردهم فانهم اعداء الدين والملة وقد صاروا أيضا اخصاما للسلطان فيجب على المسلمين دفعهم ويجب أيضا أن يكون الناس والعسكر على حال الألفة

والشفقة والاتحاد وأن تمتنع العساكر عن التعرض للناس بالايذاء كما هو شأنهم وأن يساعدوا بعضهم بعضا على دفع العدو وتشاوروا فى تحصين المدينة وحفر خندق ... وفيه حضر مكتوب من ثغر رشيد ... فيه ان الانكليز لما حضروا الى رشيد وحصل لهم ما حصل من القتل والأسر رجعوا خائبين وحصل لباقيهم غيظ عظيم وهم شارعون فى الاستعداد للعود والمحاربة والقصد أن تسعفونا وتمدونا بارسال الرجال والمحاربين والاسلحة والجبخانة بسرعة وعجلة والا فلا لوم علينا بعد ذلك وعرفناكم بذلك فأرسلوا فى ذلك اليوم عدة من المقاتلين وكتبوا مكاتبات الى البلاد والعربان الكائنين ببلاد البحرية يدعونهم للمحاربة والمجاهدة » .

« وفيه (أى فى يوم الثلثاء) شرعوا فى حفر الخندق المذكور ووزعوا حفره على مياسير الناس واهل الوكائل والخانات والتجار وارباب الحرف والروزنامجى وجعلوا على البعض اجرة مائة رجل من الفعلة وعلى البعض اجرة خمسين وعشرين وكذلك اهل بولاق ونصارى ديوان المكس والنصارى والأروام والشوام والاقباط واشتروا المقاطف والغلقان والفؤوس والقزم وآلات الحفر وشرعوا فى بناء حائط مستدير أسفل تل قلعة السبتية (وفى يوم الخميس غايته) ورد مكتوب من السيد حسن كريت نقيب الاشراف برشيد والمشار اليه بها يذكر فيه ان الانكليز لما وقع لهم ما وقع برشيد رجعوا فى هزيمتهم إلى الاسكندرية واستعدوا وحضروا إلى ناحية الحماد قبلى رشيد ومعهم المدافع الهائلة والعدد ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر الى الجبل عرضا وذلك ليلة الثلثاء ثامن عشرينه فهذا ما حصل اخبرناكم به ونرجو الاسعاف والامداد بالرجال والجبخانة والعدة والعدد وعدم التأنى والاهمال . فلما وصل ذلك الجواب قرأه السيد عمر النقيب على الناس وحثهم على التأهب والخروج للجهاد فامتثلوا ولبسوا الاسلحة وجمع اليه طائفة المغاربة وأتراك خان الخليلى وكثير من العدوية والاسيوطية واولاد البلد وركب فى صحبها إلى كتخدا بيك واستأذنه فى الذهاب فلم يرض وقال حتى يأتى افندينا الباشا ويرى رأيه فى ذلك فسافر من سافر وبقى من بقى » .

وفى حوادث شهر صفر من ذلك العام يقول :

« وفى تلك الليلة ، أعنى ليلة الأحد (ثالث صفر) وصل محمد على باشا ودخل إلى داره ... وأشيع حضوره إلى داره ركب الجميع وذهبوا للسلام عليه ودار بينهم الكلام فى أمر

الانكليز فأظهر الاهتمام ... ثم قالوا له أنا نخرج جميعا للجهاد مع الرعية والعسكر فقال ليس على رعية البلد خروج وإنما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر » !

« وفى يوم الثلثاء وردت مكاتبة من رشيد وعليها امضاء السيد حسن كريت يخبر فيها بأن الانكليز محتاطون بالثغر ومتحلقون حوله ويضربون على البلد بالمدافع والقنابر وقد تهدم كثير من الدور والأبنية ومات كثير من الناس وقد ارسلنا لكم قبل تاريخه نطلب الاغاثة والنجدة فلم تسعفونا بارسال شيء وماعرفنا لأى شيء هذا الحال وما هذا الأهمال فالله الله فى الاسعاف فقد ضاق الخناق وبلغت القلوب الحناجر من توقع المكروه وملازمة المرابطة والسهر على المتاريس ونحو ذلك من الكلام وهى خطاب للسيد عمر النقيب والمشائخ ومؤرخه فى ثانى شهر صفر » .

« وفى ذلك اليوم (أى الخميس رابع عشر شهر صفر) حضر شخصان من السعاة واخبرا بالنصر على الانكليز وهزيمتهم وذلك انه اجتمع الجم الكثير من أهالى بلاد البحرية وغيرها وأهالى رشيد ومن معهم من المتطوعة والعساكر وأهل دمنهور وصادف وصول كتخذا بيك واسماعيل كاشف الطوبجى إلى تلك الناحية فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة وأُسروا من الانكليز طائفة وقطعوا منهم عدة رؤوس » .

« ولما شاع اخذهم « أى الانكليز » الاسكندرية داخل العسكر والناس وهم عظيم وعزم أكثر العسكر على الفرار لجهة الشام .. حتى ان محمد على باشا بلغه حصولهم بالاسكندرية وكان يحارب المصريين ويشدد عليهم فعند ذلك انحلت عزائمه وأرسل يصالحهم على مايريدونه ويطلبونه وثبت فى يقينه استيلاء الانكليز على الديار المصرية وعزم على العود متلكئا فى السير يظن سرعة ورودهم الى المدينة فيسير مشرقا على طريق الشام ويكون له عذر بغيبته فى الحملة فلما وصلت الشرذمه الاولى من الانكليز الى رشيد ودخلوها من غير مانع وحبسوا انفسهم فيها فقتلوا وأسروا وهرب من هرب ووصلت الرؤوس والاسرى وأسرعت المبشرون الى الباشا بالخبر فعند ذلك تراجعت اليه نفسه وأسرع فى الحضور وتراجعت نفوس العساكر وطمعوا عند ذلك فى الانكليز وتجاسروا عليهم وكذلك أهل البلاد قويت هممهم وتأهبوا للبروز والمحاربة واشتروا الاسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق

وأعلاما وجمعوا من بعضهم دراهم وصرفوا على من انضم اليهم من الفقراء وخرجوا فى موكب وطبول وزمور فلما وصلوا الى متاريس الانكليز دهموهم من كل ناحية على غير قوانين حروبهم وترتيبهم وصدقوا فى الحملة عليهم وألقوا أنفسهم فى النيران ولم يبالوا برميهم وهجموا عليهم واختلطوا بهم وادهشوهم بالتكبير والصياح حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم فألقوا سلاحهم وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا الكثير منهم وحضروا بالأسرى والرؤوس على الصور المذكورة وفر الباقون الى من بقى بالاسكندرية وليت العامة شُكروا على ذلك او نُسب اليهم فعل بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره وجوزيت العامة ضد الجزاء بعد ذلك » .

يتضح من النصوص السابقة بشكل جلى ان الشعب المصرى أبدى شجاعة وحماسة للدفاع عن وطنه تتناسب مع حبه لهذا الوطن . فاذن هذا المبرر الذى اتخذ لتبرير عزوف محمد على عن تجنيد المصريين فى جيشه لا يقوم على اى اساس ، ولعلنا نلاحظ فيما يتعلق بحملة الانجليز هذه بروز ثلاثة امور على جانب كبير من الأهمية والدلالة :

الاول : ان الانجليز قد استفادوا من تجربتهم الاولى فى مصر اثناء اشتراكهم مع العثمانيين والمماليك ضد الفرنسيين فأرادوا ان يستغلوا الصراعات القائمة بين القوى الفاعلة فى المجتمع فأوجدوا لهم صديقا - او عميلا - يمهد لاحتلالهم ، وكان هذا الصديق هو الالفى احد زعماء المماليك الذى سبق وأن زار لندن مرتين قبل هذه الحملة ، لهذا فقد بعث الانكليز للمماليك يقولون لهم حسب تعبير الجبرتى : « انما جئنا لبلادكم باستدعاء الالفى لمساعدته ومساعدتكم فوجدنا الالفى قد مات وهو شخص واحد منكم وانتم جمع فلا يكون عندكم تأخير فى الحضور لقضاء شغلكم » .(١)

الثانى : ان المحرك الاساسى لقتال الانجليز هو دينى « فانهم اعداء الدين والملة وقد صاروا ايضا اخصاما للسلطان فيجب على المسلمين دفعهم »(٢) لهذا فان قتالهم دفاعا عن الوطن هو فى نفس الوقت جهاد فى سبيل الله ، ولهذا ايضا ندرك سبب حرص محمد على على عدم مس المشاعر الدينية لدى الشعب المصرى فى مخاطباته وتصرفاته مع عدم ولائه الحقيقى

---

(١) عجائب الاثار ، حوادث سنة ١٢٢٢
(٢) عجائب الاثار ، حوادث سنة ١٢٢٢

للاسلام[1] ، كما ندرك ايضا سبب اصرار بريطانيا على ابقاء تبعية محمد على للسلطان - اسميا طبعا - وذلك الى جانب عوامل اخرى سنتعرض لها فيا بعد ، والتى جعلت بريطانيا ترفض فى كل الظروف استقلال محمد على عن السلطان العثمانى .

الثالث : أن محمد على كان منذ سنواته الاولى فى الحكم ، اى منذ الحملة الانجليزية هذه قد اتخذ قرارا واضحا يقضى بابعاد المصريين عن الجيش ، فهو يقول كما رأينا فى النص السابق : « ليس على رعية البلد خروج وانما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر » . وقد حافظ على هذه السياسة طوال الخمسة عشر عاما القادمة حتى اضطر بعده اضطرارا بعد فشل تجربة تجنيد العبيد فى جيشه . فحتى تلك الفترة ، اى حتى مطلع سنة ١٨٢٣ ، كانت جيوش محمد على التى قامت بغزو الدولة السعودية الاولى وحملة السودان تتكون من اجناد غير مصريين فى معظمهم[2] ، وعندما اضطر محمد على الى اللجوء لتجنيد المصريين فى جيشه اتخذ سياسة حذرة تجاههم تقضى بأن « يكون الجنود من المصريين والضباط من الاتـراك او الشراكسة (المماليك) وكان هذا التقسيم هو نفس المنهج الذى سار عليه فى تسيير دفة الحياة المدنية ، فكان المأمورون من المصريين والمديرون (المحافظون) من الاتراك[3] » بالاضافة الى الاوربيين بمختلف جنسياتهم .

ونعيد طرح السؤال مرة اخرى ، وهو : لماذا لجأ محمد على الى تكوين جيشه من غير المصريين مع ان الكثافة السكانية فى مصر فى ذلك الحين اعلامنها فى اى قطر من اقطار المنطقة ، وقد تبين لنا الآن ان المواطن المصرى لا تعوزه الروح القتالية اذا هيئت الظروف المناسبة ؟ ..

الجواب البديهى ، او السهل هو ان محمد على بحكم كونه لا ينتمى لهذا الشعب ، اى انه غريب عنه من ناحية ، ومن ناحية اخرى انه يطمح الى ان يحكم مصر حكما فرديا مطلقا ، فمن الأفضل له ان يكوِّن جيشا لا يدين بالولاء الا له وحده لا لعقيدة ولا لوطن .

---

(١) اثناء حديث محمد على للقنصل الفرنسى سنة ١٨٣٠ حول مشروع فرنسا قيام الباشا بغزو الجزائر لحسابها وعدوله عن ذلك يقول « وثقوا ان قرارى ... لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفوننى وتعلمون اننى متحرر من هذه الاعتبارات التى يتقيد بها قومى » .

اميل خورى وعادل اسماعيل ، السياسة الدولية فى الشرق العربى ، بيروت ، ١٩٦٠ جـ ٢ ص ٧٨ .

(٢) انظر : عباس ، السيد احمد مرسى ، حقائق جديدة عن حرب الدرعية وهل اشترك فيها الجنود المصريون حقا ، مجلة الدارة ، السنة الثالثة ، العدد ٣ ، شوال ١٣٩٧

(٣) عمر ، نفسه ، ص ١٧٢ .

الا ان مثل هذا التعليل لا يلبث ان يتداعى اذا اخذنا بعين الاعتبار حقيقتين تاريخيتين :

الاولى : ان الانتماء للاسلام ، ليس فى مصر وحدها وانما فى عموم العالم الاسلامى فى تلك الفترة وما قبلها هو الرابطة الأقوى اكثر من أى انتماء عرقى او قومى او وطنى ، ومحمد على وان كان البانى الأصل ، الا ان انتماءه للاسلام ينفى عنه صفة الاجنبى الغريب ، فلم ير العرب مثلا وهم من اشد الشعوب حساسية تجاه الغرباء ، لم يروا فى العثمانيين وولاتهم غرباء يجب مقاومتهم على اساس اصولهم العرقية الا بعد ان تفشت مفاهيم القومية الحديثة فى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، اى بعد الفترة التى نحن بصددها بزمن طويل .

الثانية : كون محمد على باشا يطمح الى ان يحكم مصر حكما فرديا مطلقا ليس فيه شيء جديد فى هذا الشرق وفى تلك الفترة بالذات ، فمحمد على فى هذا فى الحقيقة متبع وليس بمبدع ، فكل حكام الشرق وزعمائه يحكمون شعوبهم بهذه الصفة .

اذن ، وللمرة الثالثة نطرح هذا السؤال ـ نظرا لأهميته ودلالاته ، وهو : لماذا عزف محمد على عن تجنيد المصريين فى جيشه ؟ ..

اعتقد ان القارىء يشاركنى الاقتناع الآن ان ذلك ليس بسبب عدم توفر الروح القتالية لدى الشعب المصرى ، وليس لكون محمد على اجنبيا غريبا عنه ، وليس لأن محمد على يريد ان يحكم مصر حكما فرديا مطلقا . وقبل ان اجيب على هذا التساؤل استأذن القارىء فى تأجيل تلك الاجابة بعض الوقت حتى تتضح معالم الصورة اكثر وتبرز الاسباب الحقيقية وذلك بالاجابة على السؤال الثالث الذى سبق طرحه فى هذا الفصل وهو : ماهو هدف محمد على من انشاء هذا الجيش القوى ، او بعبارة اخرى ما هو الخطر المحدق بمصر حتى يسعى محمد على لانشاء جيش قوى لدرئه ؟ ..

لو ألقينا نظرة على القوى السياسية المحلية المحيطة بمصر فى تلك الفترة لتبين لنا بدون اى عناء ان ليس هناك قوة محلية مجاورة يمكن ان تشكل تهديدا عسكريا على مصر فليس فى غربها او جنوبها اى وحدة سياسية ذات بال . بل ان الخطر ـ كما رأينا فى حالة السودان اتى من مصر نفسها اما الدولة العثمانية فهى أعجز من ان تشكل مثل هذا الخطر ليس فقط لعجزها الذاتى من ان تجيش جيوشا قادرة على تحقيق هذا الغرض وقد تفشى الفساد واللانظام

فى جميع مؤسساتها وخاصة الجيش ، وليس لأنها اصبحت مشلولة الحركة بسبب الاخطار المحدقة بها على الجبهة الاوربية وخاصة الجبهة الروسية وانما وبالاضافة الى ذلك كله لأن الدول الكبرى الاوربية وبالذات بريطانيا لن تسمح بحال بحدوث مثل هذا وانما كلما فى امكان السلطان العثمانى ان يفعله لاستعادة مصر الى حظيرة نفوذه ان يتآمر مع بعض اصحاب النفوذ للاطاحة او اغتيال محمد على وهذا الأمر لا يحتاج الى جيش قوى بقدر ما يحتاج الى بطانة وحرس خاص مخلصين .

ان الخطر المحدق بمصر فى تلك الفترة يأتى من قبل القوى الاوربية وعلى وجه الخصوص من قبل بريطانيا العظمى اما فرنسا فقد تضاءل خطرها العسكرى بعد خروج نابليون ثم تلاشى تماما بعد هزيمة هذا الأخير النهائية فى معركة واترلو سنة ١٨١٥ وعودة اسرة البوربون الى العرش الفرنسى واصبح املها الوحيد فى العودة الى مصر يأتى عن طريق تأثيرها الثقافى ، وبعثاتها الدبلوماسية لاغير ، واما بريطانيا فكما رأينا فى الفصل السابق اصبحت بعد اخراج الفرنسيين من مصر فى مطلع ذلك القرن لا يمكن أن تسمح ليس فقط باستيلاء قوة كبرى عليها وانما ايضا لا يمكن ان تسمح بقيام قوة محلية معادية لها لسبب واضح جلى هو ان مصر بموقعها الاستراتيجى الهام تمثل الحلقة الأهم والأخطر فى طريق مواصلاتها مع اهم مستعمراتها ـ الهند ـ واذا فرضنا جدلا ان هذا الجيش القوى هو للوقوف فى وجه اى هجوم بريطانى فهل هذا ممكن فعلا ؟ ليس من شك فى استحالة ذلك فمهما كان هذا الجيش قويا ومدربا ولديه اكثر الاسلحة تقدما لا يمكن ان يصمد امام غزو بريطانى اذا اخذنا بعين الاعتبار تركيبة الجيش البشرية التى صممها محمد على ـ او من أوحى اليه بذلك ـ وأعنى به ابعاد المصريين عن سبق اصرار وتقدير عن المراكز القيادية فى الجيش وجعلهم فقط جنوداً يأتمرون بأمر قادة اجانب ـ هم على اى حال مرتزقة ـ ولو كانت هذه الفرضية ممكنة وان محمد على كان يتوقع فى المدى القريب او البعيد ان يدخل فى نزاع مسلح مع بريطانيا دفاعا عن مصر أليس اولى له ان يتجه للمصريين ويشكل جيشه منهم جنودا وضباطا ؟ بعد ان أثبتوا قدرتهم على الدفاع عن وطنهم بكل حماس وشجاعة ؟ .. واذا فرض ان محمد على اضطر لذلك اضطرارا بسبب عدم امكانية تدريب ضباط مصريين بالسرعة المطلوبة[1] فاننا لا نلحظ

(١) الرافعى ، نفسه ، ص ٣٧٨

اى اتجاه فى هذا السبيل طوال عهده بل وعهد خلفائه ؛ بل الثابت عكس ذلك ، وهو عدم السماح للمصريين بتولى مراكز قيادية فى الجيش . وعندما استطاع المصريون بحكم التطور الطبيعى الوصول الى بعض الرتب العسكرية ـ الدنيا على اى حال ـ قامت ثورة عرابى فتدخلت بريطانيا واحتلت مصر مباشرة سنة ١٨٨٢ .

وليس من قبيل المصادفة مطلقا ان يكون القنصل البريطانى فى القاهرة Salt فى صحبة محمد على باشا عند اول زيارة يقوم بها هذا الاخير لمعسكرات التدريب فى بنى عدى فى منفلوط بعد حوالى تسعة اشهر فقط من بدء التدريب وفق النظام الجديد وذلك فى شهر ديسمبر سنة ١٨٢٣ « وقام الجند بمناورات حازت اعجاب الجميع »(١)

اذن هدف محمد على من ايجاد هذا الجيش القوى ليس للدفاع عن مصر ضد اى خطر من القوى المجاورة .

وهذا ايضا ليس للدفاع عن مصر ضد الخطر المحتمل ـ الخطر البريطانى ـ هو اذن ليس جيشا دفاعيا .

هو جيش هجومى ..

ولكن ضد من ؟ ولمصلحة من ؟ ..

هذا ماستجيب عليه الفصول القادمة .

نعود بالقارىء الآن للإجابة على السؤال الثانى المطروح فى هذا الفصل ، والذى سبق وأن استأذنا القارىء فى تأجيل الاجابة عليه حتى الاجابة على السؤال الثالث السابق ، وهو :

لماذا عزف محمد على عن تجنيد المصريين فى جيشه ؟ ..

كما اتضح فيما سبق عرضه ليس عزوف محمد على عن تجنيد المصريين فى جيشه مجرد موقف آنى او بسبب ذاتى نابع من تكوين المواطن المصرى واستعداداته وانما هو موقف مبدئى اتخذ وفق سياسة مرسومة لتحقيق اغراض معينة . هذه السياسة المرسومة وتلك الاغراض المعينه تتناقض بشكل جلى وحاسم مع تأسيس جيش وطنى قوى ، وبالتالى قيام دولة تسعى الى تحقيق آمال الشعب المصرى وطموحاته الحقيقية . وبعبارة أكثر وضوحا وأشد صراحة ، هذه السياسة تقضى باستبعاد الشعب المصرى عن مناطق التأثير فى جميع مؤسسات الدولة سواء

---

(١) شكرى ، محمد فؤاد ، وآخرون ، بناء دولة مصر محمد على ، القاهرة سنة ١٩٤٨ ص ١٥٣ .

العسكرية او الادارية او الاقتصادية او السياسية . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى تسخير موارد هذا الشعب المادية وطاقاته البشرية ومركز مصر الاستراتيجى البالغ الاهمية لمصلحة القوة العظمى فى ذلك الوقت وهى بريطانيا وتتمثل هذه المصلحة ، والتى سميناها اغراضا معينة فيا يلى :

الاولى : ضمان عدم قيام قوة وطنية حقيقية تتناقض مصالحها بالضرورة مع المخططات الاستعمارية البريطانية التى تريد ان تجعل مصر ليس فقط سوقا مربحة لبضائعها وإنما وهو الأهم ، ممرا رخيصا ومأمونا لمواصلاتها الامبراطورية نحو مواقعها الاستعمارية فى الشرق .

والثانى : تسخير مصر كموقع استراتيجى وكقوة بشرية كثيفة لضرب القوى الوطنية المحلية ـ التى يمكن ان يشكل وجودها تعارضا او تهديدا للهيمنة البريطانية على هذه المنطقة البالغة الاهمية فى مخططاتها الاستعمارية كما حدث فى الجزيرة العربية وكما سنرى فى اليونان والشام .

لقد ادرك محمد على بفكره الثاقب وحسه الفذ حقيقة الثقل البريطانى واهميته فى نجاح او فشل اى مشروع على ساحة المنطقة بكاملها او على حد تعبير محمد على نفسه لباركر Barker فى ٣٠ مارس سنة ١٨٣٠ اثناء مناقشة المشروع الفرنسى بقيامه بغزو الجزائر حيث يقول : « بدون أصدقائى الانجليز لا استطيع ان اعمل اى شيء ... لقد ادركت منذ زمن طويل اننى لا أستطيع ان احقق اى شيء عظيم بدون إذن بريطانيا »[١] وقبل حديثه هذا بخمسة اعوام اى سنة ١٨٢٥ اسر الى كبير معاونيه ومستشاريه العسكريين الجنرال بواييه الفرنسى بحقيقة موقفه وادراكه للثقل البريطانى حيث يقول : « وانا لا أشعر بخوف الا من بريطانيا لأن باستطاعة اساطيلها ان تشل ارادتى وفعاليتى وتخرب ماليتى بحصار تضرب به على سواحلى ولكن لى سياسة وسأسهر على ان لا يكون فيها ما يغضب هذه الدولة فاذا ساعدتنى الحظوظ من كسب الوقت فانى سأخرج من هذه الظروف الصعبة وانا على اطيب حال »[٢] . ذكاء سياسى لاشك فيه ان يدرك محمد على ابعاد اللعبة السياسية القائمة وحقيقة القوى المؤثرة على الساحة التى يتعامل معها ولكنى اعتقد انه وقع فى وهم خطير ، بل مميت ، عندما تصور انه يستطيع ان يخدع قوة عظمى بالسير فى ركابها وتنفيذ مخططاتها على امل ان تحفظ له

---

(١) Dodwell' op. cit.' P. 105

(٢) اميل خورى وعادل اسماعيل ، نفسه جـ ٢ ص ٢٣

الجميل او يعتمد على عاملى الزمن وقوانين التطور على أمل ان يتمكن فى الوقت المناسب من الانفراد باتخاذ القرار الذى يحقق طموحاته وأغراضه الخاصة اذ لا تلبث هذه القوة عندما تحس بروز عوامل التناقض ووصول خط الانسجام بين مخططاتها واهدافه الى درجة التضاد ان تعصف به وتضعه فى حجمه الطبيعى كما حدث فعلا وكما سنرى .

وكما عزف محمد على عن سبق اصرار عن تجنيد المصريين فى جيشه للأسباب الآنفة الذكر فان المصريين بدورهم عزفوا هم ايضا عن الاستجابة لرغباته بالتجنيد فى الجيش عندما اضطر لذلك اضطرارا اثر فشل محاولة تجنيد العبيد ، فاعتبارا من شهر فبراير سنة ١٨٢٣ اتجه الى المصريين للتجنيد مع التحفظ الذى سبقت الاشارة اليه وهو ان يكونوا جنودا فقط . هؤلاء المصريين الذين هبوا لتلبية نداء السيد عمر مكرم منذ ستة عشر عاما مضت لمقاومة الغزو الانجليزى[1] قاوموا بكل الوسائل نداءات محمد على واغراءاته ودعاياته حيث جند المرتزقة وضعاف النفوس من بعض علماء الدين لحضهم على الانخراط فى الجيش ، ولجأوا الى كل حيلة ووسيلة للفرار من التجنيد مما اضطره الى استعمال أبشع الوسائل اللاإنسانية لارغامهم على الانخراط فى الجيش . يقول بعض من تعرضوا لهذا الموضوع - مع انهم ليسوا محايدين ، بل هم متعاطفون مع الباشا وخططه ومشاريعه :

« على ان الطريقة التى كانت متبعة فى تجنيد الفلاحين للنظام الجديد ظلت موضع تعليقات شتى من جانب المعاصرين ذلك بأن المديرين كانوا - عندما يكلفون بارسال عدد معين من الرجال - يوزعون العدد المطلوب على القرى فيتولى مشايخها جمع الفلاحين دون تمييز بين من تقدمت بهم السن ومن لم يشبوا عن الطوق ، او بين ارباب الاسر الكبيرة ومن لا يعولون احدا على الاطلاق او بين الاصحاء المعافين وغيرهم من المرضى وذوى العاهات ولما كان يحدث فى اثناء نقل هؤلاء المجندين الى معسكرات التدريب ان يهرب كثيرون فى الطريق او يموتون من المرض والاعياء فقد رأى المشرفون عليهم ان يجمعوا عددا يزيد على العدد

---

(١) وحتى فى جيش محمد على نفسه بعد ان تم تطويع المصريين واستخدمهم لتحقيق مشاريعه المشبوهة ابدى المصريون كفاءة وشجاعة يشهد بها بعض المعاصرين حيث يقول البارون بوالكونت فى احدى رسائله « ان العرب يريد المصرين » هم خير من رأيتهم من الجنود . فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على المتاعب مع انشراح النفس وتوطينها على احتمال صنوف الحرمان وهم بقليل من الخبز يسيرون طوال النهار يحدوهم الشدو والغناء » .

نقلا عن الرافعى ، نفسه ، ص ٤٠٣

المطلوب حتى يكمل هذا النقص، كما وجدوا من الحكمة ان يضعوا الاغلال فى ايديهم ويسوقوهم الى المعسكرات سوقا وكثيرا ماكان يخرج اقارب المجندين من النساء والاطفال يتبعونهم فى سيرهم مرحلة بعد اخرى حتى اذا بلغ الحشد المعسكر المقصود قامت الى جواره قرية صغيرة كقرية جهاد اباد تأوى اليها هذه الخلائق وكان اقارب الجند يشاركونه ماتخصصه له الحكومة من غذاء ولما كان الطعام لا يكفيهم جميعا فكثيرا ماكان يتسول الاطفال وتنزلق النساء الى مهاوى الفساد وتنتشر الامراض الخبيثة وغير الخبيثة بين تلك الجموع المحتشدة » .[1]

وقد عبّر كثير من الفلاحين عن رفضهم التجنيد فى جيش محمد على بشتى صنوف المقاومة السلبية حيث كانت المقاومة الايجابية غير ممكنة او نكاد تكون مستحيلة فلجأوا الى تقطيع اصابعهم وخلع اسنانهم وفقء اعينهم[2] ويبدو ان هذا اصبح ظاهرة عامة وليست حالات فردية ، لهذا لجأ محمد على الى انزال اشد العقوبات بمن يلجأون الى هذه الوسائل وصلت الى حد الاعدام[3] ، فكانوا يرسلون الى معسكرات التدريب « مقرنين بالحديد كل اثنين معا كأنهم مجرمين قذرين » .[4]

وليس من العسير تفسير هذه الظاهرة والبحث عن اسبابها الحقيقية ، فليس من المقبول ان تكون - كما يزعم الكثيرون - الجهل وكراهية الخدمة العسكرية بقدر ما هو ينم عن الكراهية التى يكنها المصريون لهذا العهد ممثلا فى محمد على وسياساته الداخلية التى انهكتهم بالضرائب الباهظة والتسخير المشين ، والخارجية التى لا يرون فيها قضية عادلة ولا مطمحا وطنيا ولا مصلحة قومية ولا اهدافا سياسية او دينية يؤمنون بها بقدر ما هى لتحقيق اهداف تحوم حولها شكوكهم وان كانوا لا يدركون حقيقة مراميها وابعادها المشبوهة .

وعلى اية حال نجح محمد على فى تكوين جيش قوى بلغ فى مطلع سنة ١٨٢٤ (٢٤ الفا) وفق النظام الجديد مكون من ستة آليات . بالاضافة الى الجيش الغير نظامى والذى

---

(١) شكرى وآخرون ، نفسه ص ١٦١ ، ١٦٢

(٢) Dodwell' op. cit.' p 227

(٣) شكرى وآخرون ، نفسه ص ١٦٢

(٤) Dodwell' op. cit. p. 227

بلغ حوالى عشرة آلاف جندى[1] وعلى الفور وضع محمد على هذا الجيش موضع التجربة العملية او بتعبير آخر بدأ فى استعماله لتحقيق الاهداف المرسومة فأرسل آليا واحدا الى السودان وآليا واحدا آخر الى الحجاز اما القوة الضاربة والبالغ عددها اربعة آليات فبعث بها الى اليونان .

(ب) غـــزو اليـُـونـــان :

« ... وانه لمن المثير للفكر ان يبذل محمد على هذا الجهد الكبير من اجل انقاذ المورة من يد الثوار اليونانيين لصالح الدولة العثمانية ولا يفعل نفس الشىء ازاء الغزوة الفارسية للعراق والمخطط الفرنسى نحو الجزائر »[2] ! و « لماذا لم يرسل محمد على جيشه لانقاذ العراق من الفرس مع ان السلطان طلب منه ذلك فعلا فى سنة ١٨٢٢ / ١٨٢٣ بينما وافق محمد على دون تلكوء كبير فى ارسال جيشه واسطوله الى المورة »[3] .

ولكن الأكثر اثارة للفكر والتساؤل بل والعجب ان تتجاهل الاجابة على هذه التساؤلات الاسباب والدوافع الحقيقية ويلجأ من تصدوا لها الى انتحال اسباب لا تستند الى اساس موضوعى او استقراء تاريخى للأحداث ، فهى طورا استجابة لنداء السلطان ![4] وكل باحث جاد فى تاريخ هذه الفترة يدرك ان السلطان العثمانى فى ذلك الحين اعجز من ان يكلف واليه فى مصر بمهمة لا تنسجم مع المخطط الذى وضعه ـ او وضع ـ لهذا الاخير خاصة اذا كانت تلك المهمة فى نطاق المجال الحيوى للدولة الاوربية ، وقد رأينا منذ قليل كيف ان محمد على رفض الاستجابة لنداء السلطان لإنقاذ العراق من الغزو الفارسى ووقف هذا الاخير عاجزا عن ان يضع طلبه موضع التنفيذ ! وهى طورا لإكساب مصر مركزا مرموقا فى النطاق الدولى[5]

---

(١) شكرى واخرون ، نفسه ص ١٥٣ : الرافعى ، نفسه ص ٣٨٤ . وقد تضاعف هذا الجيش حتى بلغ فى سنة ١٨٣٩ ٢٣٥,٨٨٠ جندى ، الرافعى ، نفسه ص ٤٢٢ ، واصبحت مصروفاته تعادل نصف الدخل القومى ككل ، تقرير Bowringحسب Dodwell' op. cit. p. 209

(٢) نوار ، نفسه ص ١٢٨

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٣

(٤) الرافعى ، نفسه ص ٢١٥

(٥) المصدر السابق ص ٢٤١

او لإكساب الجيش المصرى خبرة وتجربة بمصارعته القوى الاوربية[1] ! ويمضى آخرون فى التصورات الواهمة بتصويرها جزءا من استراتيجية متكاملة وضعها محمد على للتصدى سياسيا وعسكريا ومن ثم حضاريا للقوى الاوربية الاستعمارية[2] ! وهذه الاسباب المنتحلة فى رأينا هى نوع من الهروب او العجز او التقصير الفكرى عن التصدى للبحث الجاد او هى تعبير – واع او غير واع – عن شعور بالنقص فى مجال الامجاد الوطنية .

صحيح ان محمد على من الناحية القانونية تابع للسلطان العثمانى وانه قام بغزو اليونان استجابة لطلب السلطان ، وصحيح ايضا ان الثورة اليونانية تمرد داخلى فى نطاق الدولة العثمانية التى محمد على احد ولاتها ، وصحيح من ناحية ثالثة ان الثورة اليونانية كانت ذات مضمون قومى ذو طابع دينى صليبى وانها نالت تأييدا واسع النطاق من قبل الشعوب الاوربية فألفت القصائد والقيت الخطب لالهاب حماس الجماهير الاوربية لتأييدها ضد المسلمين ممثلين فى الدولة العثمانية ، ولكن هناك عوامل اهم بكثير من هذه الاعتبارات العاطفية تتمثل فى مصالح القوى الكبرى وموازين القوى بين هذه الدول متمثلا بشكل خاص فى الموقف من الدولة العثمانية ككل والاختلاف او الاتفاق فى كيفية تقسيمها ومداه ومراحله . وبالطبع ليس من مهمتنا هنا تقصى هذه المواضيع وابرازها بقدر ما نهدف الى ابراز الظروف التى سمحت لمحمد على بالقيام بهذا الغزو والدوافع الحقيقية التى كانت وراءها ومن ثم النتائج التى ترتبت عليها من زاوية السياسة التى انتهجها محمد على فى الفتح والتوسع حتى تتمكن من اضافة ضوءجديد على هذه السياسة يُمكّننا بالتالى من وضعها ككل فى اطارها التاريخى الصحيح .

علاقة الثورة اليونانية بالقوى الأوروبيّة :

حظيت الثورة اليونانية – كما سبق القول – بتأييد واسع النطاق فى الاوساط الشعبية الاوربية وتصدى كثير من قادة الفكر والادب للاشادة بها وتمجيدها امثال Delacroix

---

(١) نفسه

(٢) نوار ، نفسه ص ١٢٤

وفيكتور هيجو Victor Hugo وسانوبريان بل بلغ الحماس لهذه الثورة بالشاعر اللورد بيرون Lord Byron ان تطوع فى صفوف الثوار وخر صريعا فى سبيل هذه الثورة[1] وكان التركيز على الجانب الدينى واضحا فى إشعار وخطب مؤيدى الثورة باعتبارها حربا صليبية ضد الإسلام .

أما فى الجانب السياسى فان حكومات اوربا الغربية وعلى وجه الخصوص بريطانيا العظمى رأت فى هذه الثورة خطرا يهدد بتغلغل النفوذ الروسى الذى فشل حتى الآن فى الوصول الى مياه البحر الابيض المتوسط عن طريق التحالف المقدس الذى اعقب مؤتمر فينيا سنة ١٨١٥[2] ، وان روسيا ستتذرع بهذه الثورة « لوضع المسألة العثمانية على بساط البحث فينتهى الامر الى تجزئة الامبراطورية او على الأقل الى ترسيخ النفوذ الروسى فى القسم الاوربى منها فوقفت من الثورة موقفا معاديا ورفضت الاعتراف للثوار بصفة المحارب وحبست عنهم كل مساعدة » .[3]

وبالعكس كان القيصر الروسى ـ الاسكندر الاول Alexander I ـ الذى يعتبر نفسه حامى حمى الكنيسة الأرثوذكسية ـ يبذل كل التأييد والمساعدة للثوار وخاصة اعضاء جمعية الثورة السرية Philike Hetairia التى تأسست سنة ١٨١٤[4] وعين منهم وزراء وضباط فى جيشه أمثال Capo Distria الذين كان من اكثر الوزراء المقربين اليه والضابط Xplikantis الذى عين فيا بعد زعيا للثورة عند اشتعالها فى شهر مارس سنة ١٨٢١ .

وعلى الرغم من ان القيصر الروسى قد تردد فى بادىء الامر بين التأييد لهذه الثورة على أمل الاستفادة منها فى سياسته التوسعية على حساب الدولة العثمانية ، والخوف من عدواها فى بلاده المحافظة[5] وبتأثير من نصائح المستشار النمساوى مترينخ عدو الثورات ، مما مكن الجيش التركى من قمعها فى بادىء الامر الا انه ـ اى القيصر ـ اختار جانب الثورة بعد اشتعالها مجددا واستفحال أمرها .

---

(١) Richmond' G.C.B' op.cit.' p 47

(٢) اميل خورى وعادل اسماعيل ، نفسه ، ص ١٨

(٣) المصدر السابق ;Richmond, op.cit. P.46

(٤) **Richmond, op. cit. P.46**

(٥) **Dodwell, op. cit. P 69**

موقف محمد على من الثورة اليونانية :

لعله من المفيد ان نلاحظ انه عند انبثاق الثورة اليونانية وخلال الاحجام الروسى عن تأييدها كان محمد على يتعاطف مع الثوار وذهب فى تعاطفه الى حد السماح لليونانيين المقيمين فى القاهرة والاسكندرية للالتحاق بإخوانهم الثائرين ضد السلطان ، بل انه حرر مماليكه اليونان الذين جاءوا هدية من الجزائر لهذا الغرض[1] ويبدو لنا ان محمد على اراد بموقفه هذا ان يعبر للأوربيين عن مدى تعاطفه مع كل ما هو اوربى ومسيحى وهذا ينسجم مع سياسته وموقفه العام تجاه الأقليات المسيحية فى البلاد الخاضعة له وتجاه الاوربيين المقيمين فى تلك البلاد حيث يحظون دائما بالرعاية الأفضل ويحتلون المناصب العليا فى الدولة .[2]

الا ان هذا الموقف تغير الى ضده بعد ان استفحل أمر الثورة واتضحت مواقف الدول تجاهها فأصبحت روسيا تؤيدها وبريطانيا ضدها ومن هنا لم يتلكأ محمد على فى الاستجابه لطلب السلطان بعث جيش من قبله لإخمادها .

ولعلنا نتذكر ماسبق ان قلناه عند الحديث عن تأسيس الجيش المصرى ان القنصل البريطانى فى القاهرة سولت Salt كان له شرف - او تشريف - استعراض قطاعات الجيش المصرى فور الانتهاء من تدريبها وفق النظام الجديد فى اواخر سنة ١٨٢٣ بصحبة الباشا وان أربع آليات من آليات الجيش الستة قد بعث بها فورا لليونان حيث غادرت المياه المصرية فى شهر يوليو من العام التالى (١٨٢٤)[3] وكان هذا أثر صدور فرمان سلطانى فى ١٦ يناير سنة ١٨٢٤ بتعيين محمد على قائدا عاما للقوات العثمانية فى اليونان استجابة لنصيحة مترنيخ[4] المتعاضد مع بريطانيا للعمل على اخماد الثورة وبالتالى الوقوف فى وجه المطامع الروسية .

(١) Dodwell Op Cit P 69

(٢) رئيس وزرائه بوغص بك مسيحى ارمنى

(٣) الرافعى نفسه ، ص ٢١٦

(٤) اميل خورى وعادل اسماعيل ، نفسه ، ص ٢٢

وقد بلغ اسطول محمد على فى هذه الحملة على حد ماذكره الرافعى[1] احدى وخمسين سفينة حربية ومائة وست واربعين سفينة نقل تحمل من جنود المشاه سبعة عشر الفا واربعة بلوكات من المدفعية وثلاثمائة من الفرسان وقد تضاعف هذا العدد فى نهاية هذه الغزوة حتى بلغ اثنين واربعين الفا من الجنود وكلفت الخزينة المصرية ٧٧٥ الف جنيه .[2]

استطاع ابراهيم باشا بهذا الجيش وبالتعاون احيانا مع القوات التركية ان يحقق انتصارات حاسمة ضد الثوار اليونان بلغت ذروتها بفتح نافارين Navarino فى ١٨ من شهر مايو سنة ١٨٢٥ ثم واصل تصفية جيوب الثورة فى مختلف المناطق حتى كاد ان يقضى عليها تماما لولا تجدد ظروف جديدة ومواقف جديدة قلبت الأمور رأسا على عقب .

التـــواطؤ والخيـــانة :

بدون شك أبدى ابراهيم باشا فى هذه الحرب مهارة فائقة تدل على مايتمتع به من قدرات القيادة العسكرية كما أبدى جيش محمد على هذا الذى يتكون معظم جنوده من العرب المصريين انضباطا ومثابرة وصبرا جديرة بالإعجاب وبتلك الانتصارات ولكن هذه الانتصارات ذهبت ادراج الرياح ، بل ان هؤلاء الجنود قدموا قربانا على مذبح الخيانة والتآمر فقد تصادف إبان هذه الحرب ان مات القيصر الروسى الاسكندر الاول Alexander I فى نهاية سنة ١٨٢٥ وخلفه نيقولا الأول Nicholas I المعروف بنزعته الحربية فخشيت القوى الاوربية الاخرى وبالاخص بريطانيا تطور النزاع فى اليونان الى حرب بين تركيا وروسيا من ناحية ومن ناحية اخرى اصبحت بريطانيا فى موقف تفاوضى قوى بعد هزيمة اليونانيين المؤيدين من الروس لهذا بعثت الدوق ولنجتون Duke Wellington الى بطرسبرج للتفاوض مع الروس حول المسألة اليونانية وتمخض عن هذه المفاوضات اتفاق فى ٤ ابريل سنة ١٨٢٦ « وجاء هذا الاتفاق محققا لأغراض بريطانيا فى البحر المتوسط وأولها ألا يكون لروسيا قاعدة او نفوذ مباشر فى احدى البلاد الواقعة على سواحله » .[3]

---

(١) نفسه ص ٢١٦

(٢) الرافعى ، نفسه ، ص ٢٤١

(٣)اميل خورى وعادل اسماعيل ، نفسه ، ص ٣٠

ونتيجة لهذا الاتفاق طلبت بريطانيا من السلطان ان يتفاهم مع القيصر - طبعا على حساب مناطق اخرى من امبراطوريته لصالح الروس ولم يستجب السلطان لهذه النصيحة فواصلت بريطانيا ضغوطها ونجحت فى العام التالى فى ابرام اتفاقية جديدة فى لندن (٦ يوليو ١٨٢٧) مع روسيا وهذه المرة باشتراك فرنسا على نفس أسس اتفاقية بطرسبرج السابقة مع تعديل جزئى[١] يقضى بأن تقوم الدول الثلاث بفرض هدنة بين العثمانيين واليونانيين بالقوة المسلحة ».[٢]

لم تباشر القوى الثلاث استعمال القوة المسلحة لفرض الهدنة فقد كانت بريطانيا تدرك ان قوة الجيش العثمانى الحقيقية هى قوات محمد على ، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى تدرك مدى نفوذها القوى لدى هذا الوالى وانه لا يمكن ان يقف موقفا معاديا جديا لرغباتها ، فأخذت تساومه على انسحابه من اليونان تارة عن طريق قنصلها فى القاهرة Saltوتارة عن طريق الفرنسيين ويتضح من هذه المحادثات التى تمت خاصة بين محمد على و Saltوالمبعوث البريطانى Major Gradock بشأن الموقف فى اليونان بشكل قاطع مدى تهافت محمد على للاستجابة لأى طلب بريطانى مؤملا ان تكافئه هذه الاخيرة بالاعتراف به مستقلا عن الباب العالى .[٣]

ولكن بريطانيا لا يمكن ان تقدم له اى ثمن حقيقى فهى لا تريد ان تقطع صلتها بالسلطان فيرتمى طائعا او مرغما فى احضان الروس ، كما انها من زاوية اخرى لا تريد ان تكون مصر مستقلة حتى وان كانت تضمن ولاء محمد على فى الوقت الراهن فهى تريد ان تمسك العصا من وسطها والخيط من طرفيه فتهدد هذا بهذا وتؤدب هذا بذاك وكان محمد على فى احدى لقاءاته بـ Saltصريحا حيث قال : « انه سينال لقاء مساعداته للسلطان ولاية سوريا فهل بريطانيا مستعدة للتعهد بتقديم هذا الثمن لحياده ، فاجاب Saltبأنه ليس لديه تعليمات بهذا الشأن وكل ما يمكنه تأكيده ان بريطانيا ستكون مرتاحة اذا اعلن محمد على حياده ثم اشار من طرف خفى الى امكان اعترافها باستقلاله فى مصر » .[٤]

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠

(٢) Richmond op. cit. P 48

(٣) Dodwell, op. cit., pp. 88-98

(٤) اميل خورى وعادل اسماعيل ، نفسه ص ٤٢

وقد حاول مندوب مترنيخ اقناع محمد على بالاجهاز النهائى على الثورة ووضع الدول الثلاث امام الأمر الواقع ونصحه بأن هذا يخدم مصالح مصر التجارية وان الانجليز لا يمكن ان يؤيدونه ليصبح قويا مهما بدت نصائحهم مفيدة فانهم لا يريدون مصر الا ضعيفة ، اجاب بكل صراحة ووضوح « اذا بريطانيا لا تريدنى ان افعل ذلك فماذا بوسعى ان افعل ؟»[1]

وفعلا فعل مابوسعه ان يفعل او ماتريده بريطانيا ان يفعل فقد طلب من Saltان يقوم الاسطول البريطانى بالظهور امام السواحل المصرية[2] وان تحاصر اساطيل الدول الثلاث « القسم الآخر من اسطوله الموجود فى المياه اليونانية » .[3]

وهكذا تم التواطؤ ضد الباب العالى وضد الجيش المصرى فافتعل جيش الحلفاء المتواجد فى المياه اليونانية بقيادة الادميرال الانجليزى dodringtonحادثة اطلاق نار عفوية - ان كان قد تم شيء من ذلك فعلا - من قبل الجيش المصرى ، فشن اسطول الحلفاء هجوما صاعقا على اسطول محمد على فى Navarinoفدمره تماما فى ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧[4] ولم يفقد الحلفاء سوى ١٤٠ قتيلا[5] بينما خسر الجيش المصرى فى حرب اليونان ثلاثين الفا[6] ومما له دلالة ان ابراهيم باشا لم يكن متواجدا فى ميدان المعركة[7] ! ولا يستبعد ان يكون قد أخذ معه معظم ضباط جيشه واسطوله الذين هم من غير المصريين اما الجنود وهم من العرب المصريين فقد قدموا طعمة للنيران مقابل لا ثمن الا ....؟

يحاول البعض ان يجعل من النتائج الايجابية لغزو اليونان ان مصر نالت مركزا دوليا وان محمد على لم يعد مجرد وال من ولاة السلطان وانما اصبح منافسا[8] وندا له وذلك لأن الحلفاء فاوضوا الباشا مباشرة وعقدوا معه اتفاق الانسحاب من اليونان بناء طبعا على نصيحة القنصل البريطانى فى القاهرة للباشا المستر Barker . والحقيقة ان السلطان محمود رفض بشكل قاطع تدخل القوى الاوربية فيما اعتبره شئونا داخلية فى امبراطوريته ، هذا من ناحية

(١) **Dodwell, op. cit., p. 85**

(٢) **Ibid, P. 87**

(٣) اميل خورى وعادل اسماعيل ، نفسه ، ص ٤١

(٤) الرافعى ، نفسه ص ٢٢٢

(٥) المصدر السابق ص ٢٢٨

(٦) المصدر السابق ص ٢٤١

(٧) المصدر السابق ص ٢٢٨

(٨) انظر الرافعى ، نفسه ص ٢٤٢ ، Richmond Op. Cit. p. 49

ومن ناحية ثانية اننا نتساءل من الذى يحول حقيقة دون محمد على والاستقلال بحكم مصر ؟.. هل هو السلطان العثمانى ؟ الجواب البديهى ان السلطان اعجز من ان يحول دون ذلك ، ومحمد على من ناحيته لاشك يعمل كل مافى وسعه لنيل هذا الاستقلال ، بل هو من اهم اهدافه السياسية ، ومحمد على نفسه يدرك بدون غموض ان بريطانيا وليس السلطان هى القادرة على ذلك وحدها ولكنه أخطأ التصور والتقدير فالمسرحية لازالت قائمة وللباشا ادوار يتحتم عليه ان يؤديها فى الفصول القادمة .

لقد أدى الباشا دوره فى الفصل الخاص باليونان على اكمل وجه فلم تعُد جيوشه اليونان الى حظيرة الدولة العثمانية رغم انتصاراتها الحاسمة هناك[٢] وانما نجح - او فى الحقيقة نجحت بريطانيا - فى ابعاد النفوذ الروسى عن سواحل البحر الابيض المتوسط حسب اتفاقيتى بطرسبرج ولندن المشار إليهما آنفا . ولتقدير اهمية هذا الدور الذى قام به محمد على علينا ان نتصور ماذا سيكون عليه الوضع فى اليونان لو لم يتدخل الباشا ، فجيوش السلطان اثبتت فشلها فى التصدى لهذه الثورة المدعومة من قبل الروس ومنيت بهزائم متتالية على يد الثوار وكان نجاح الثورة يعنى التواجد الروسى على سواحل البحر الابيض وهذا مالا يمكن لبريطانيا ان تتغاضى عنه ، ومن ناحية اخرى فان بريطانيا لا يمكن ان تتدخل بقواتها المسلحة الى جانب قوات السلطان فان هذا بدون شك سيثير موجة عارمة من السخط الشعبى فى اوربا كلها بما فيها بريطانيا ، كما انه سيخلق تعقيدات على المستوى الدولى قد تؤدى الى حرب عامة الكل راغب فى عدم حدوثها . وهكذا ندرك اهمية هذا الدور الخطير الذى لعبه محمد على فى احداث اليونان فالرابح الاكبر هو بريطانيا بابعاد الروس عن حوض البحر المتوسط والخاسر الأُكبر هو الدولة العثمانية التى خسرت اليونان وتُـركت نتيجـة لموقف سلطانها المتصلب وانسحاب محمد على - بل انقلابه صراحة ضدها فريسة للروس ، والخاسر الثانى هو الشعب المصرى الذى قُضى على ٣٠ الفا من شبابه فى حرب لاناقة له فيها ولا جمل ، بالاضافة الى الاموال الطائلة التى ابتزت من قوته بإبشع الوسائل . اما روسيا فانها لم تكن لتقبل هذه النتيجة بدون ثمن - متفق عليه سلفا - فما ان وضعت الحرب فى اليونان اوزارها حتى قام

(٢) حسب بروتوكول لندن بين الدول الثلاث (بريطانيا وروسيا وفرنسا) فى ٢٢ مارس سنة ١٨٢٩ نالت اليونان استقلالها الذاتى انظر (Marriott Op. cit 222 وحسب بروتوكول لندن بين الدول الثلاث اياها فى ٣ فبراير سنة ١٨٣٠ ، اصبحت اليونان دولة مستقلة Ibid P. 223

الجيش الروسى بهجوم صاعق على القوات العثمانية فى البلقان فاحتل سيسلتريا ثم أدرنه فى ١٩ اغسطس سنة ١٨٢٩[١] وتقدم مسرعا نحو الاستانة ليخلق وضعا جديدا سنتعرض لنتائجه عند الحديث عن الادوار التى قام بها الباشا فى اماكن اخرى من المنطقة .

وقبل ان نختتم هذا الفصل لابد من مناقشة الاسباب التى دعت بريطانيا الى تدمير اسطول محمد على وجيشه فى نافارين .

فكما سبق القول ان محمد على وافق على تجميد نشاط جيشه فى اليونان وطلب ان يقوم الاسطول البريطانى بالظهور امام السواحل المصرية لمنع اسطوله من التوجه الى هناك الا ان بريطانيا تعمدت تجاهل هذا الطلب وغضت النظر عن ابحار الاسطول من الاسكندرية الى المياه اليونانية[٢] كما ان ابراهيم باشا قائد جيش محمد على فى اليونان قد التزم بتعليمات والده « بالتزام خطة السلم وتجنب الاصطدام مع الدول او التحرش بها حتى ولو طلب اليه الباب العالى ذلك ».[٣] فلماذا يستغل القائد البريطانى انطلاق رصاصة طائشة - ان صح ان شيئا من ذلك حدث فعلا ولم يكن مفتعلا - من جانب جيش ابراهيم باشا فيقوم بهجوم عام شامل يدمر الاسطول عن آخره تقريبا ويقضى فى ثلاث ساعات على الآف من ارواح افراده ؟ بدون حتى انذار شكلى او اعلان الحرب ؟..

لقد اثار هذا التصرف استياء بعض الدول الاوربية واعتبره البعض خطأ سياسيا نزقا ، بل ان بريطانيا نفسها تظاهرت بعدم الرضا عن هذا الحادث حيث أبدى الملك فى خطاب العرش فى ٢٩ يناير سنة ١٨٢٨ .. « اسفه العميق لهذا الحادث المؤلم »[٤]. كما وجه اللوم للقائد البريطانى - Codrington وأدى ذلك ايضا الى استقالة الدوق دى كلارنس القائد العام للبحرية البريطانية[٥] ! فهل هذا العمل الذى قام به القائد البريطانى مجرد رد فعل نزق لطلقة رصاصة طائشة ؟ ام انه نتيجة تدبير محكم وخطة مسبقة ؟ نحن لا نشك فى ان هذا الحادث كان مخططا له من قبل وان لا مجال للارتجال فى اتخاذه ولكن بريطانيا لا تستطيع

---

(١) اميل خورى وعادل اسماعيل نفسه ، ص ٤٨

(٢) المصدر السابق ص ٤١

(٣) الرافعى ، نفسه ص ٢٣٢

(٤) اميل خورى وعادل اسماعيل ص ٤٥

(٥) المصدر السابق ص ٤٤

ان تعلنه رسميا ، فهى اولا ليست فى حالة حرب مع الدولة العثمانية وهى ثانيا ستعرض الحلف الثلاثى وخاصة مع فرنسا للانفراط وهى اخيرا لا تريد ان تشنها حربا عامة ضد الدولة العثمانية وانما هدفها المحدد هو القضاء على جيش محمد على وحسب . ويُذكر ان القائد العام البريطانى قد كتب بخط يده على هامش التعليمات الموجهة لـ Codrington من قبل الحلفاء والتى تقضى بتجنب الاعمال الحربية « وهذا لا يمنعك يا عزيزى ادوارد[١] من استعمال البارود **متى وجدت الفرصة ملائمة لاستعماله »**[٢].

وهدف بريطانيا من تحطيم اسطول وجيش محمد على لا يحتاج الى عناء كبير لادراكه فهذا الجيش الذى حقق انتصارات باهرة ضد الثوار اليونان من الخطورة بمكان ان يعود وقد سلب ثمار هذا النصر بدون اى حرب . فماذا سيكون موقفه من قادته فى اى مشروع عسكرى مماثل آخر ؟ ومن ناحية اخرى فان بريطانيا وان كانت تعرف صدق ولاء محمد على لها الا انها تدرك ان لمحمد على ايضا مطامعه الخاصة ، وانه يتطلع الى ثمن مقابل الدور الذى أداه وقد أبت عليه ذلك ، فان هذا الجيش المنتصر قد يغريه بالقيام بمغامرات لا تنسجم مع مخططاتها ومن ناحية ثالثة فان بريطانيا بصفة عامة تريد مصر بمحمد على او بدونه قوية الى حد يمكنها من التفوق على القوى المحلية وضعيفة الى حد يجعلها غير قادرة على التمرد والعصيان عند تقلب الاحوال .

ومهما يكن من أمر فان الباشا لم يتأثر بما حل بأسطوله ولم يقدم اى احتجاج[٣] على أمل ان بريطانيا ستحفظ له هذا الصنيع وتكافؤه على قدر جهوده وخدماته فى وقت ومكان آخرين .

---

(١) اى قائد الحملة **Sir Edward Codrington**

(٢) المصدر السابق ص ٤٤ قارن **CF. Marriott, Op. cit. 219**

(٣) المصدر السابق ص ٤٦

الفصل الثالث

غـــزو الشـــام

(أ) بين الجزائر والشام

الموقف بعد معاهدة أدرنه

(ب) مشروع احتلال الجزائر

(ج) غــزو الشــام

(أ) بين الجزائر والشام :

لم تكن المسألة اليونانية مجرد حدث عارض انتهت آثاره بحل تلك المسألة اثر واقعة نافارين Navarinoفى ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ وما تلى ذلك من تطورات ادت الى استقلال تلك البلاد التام عن السلطة العثمانية وانما كانت بداية او بعدا لأحداث خطيرة فى عموم المنطقة بأسرها وهو ما يعرف بالمسألة الشرقية ، فقد رفض السلطان العثمانى مبدأ تدخل الدول فى القضية اليونانية على اعتبارها مسألة داخلية وبالتالى رفض قبول نتائج عدوان Navarion وطالب الدول المشاركة فى هذه الحملة بتقديم تعويض عن الخسائر التى لحقت بالاسطول العثمانى ولهذا السبب نفسه تنكرالسلطان لاتفاقيةAkkerman التى سبق ووقعها مع روسيا فى ٧ اكتوبر سنة ١٨٢٦ والتى تقضى بمنح الاستقلال الذاتى لإمارات ,Moldavia Serbia, Wallachia [١] باعتبار روسيا شريكا فى تلك الحملة الا ان السلطان اصبح وحيدا فى مواجهة الروس فاتفاق لندن (١٨٢٧) بين الدول الثلاث تحذير واضح للسلطان من هذه الدول بعدم رفض مطالب القيصر بتطبيق اتفاق Akkerman [٢] ، ومحمد على كشف عن نواياه وموقفه بتواطئه مع بريطانيا قبيل معركة نافارينو وهكذا اصبح السلطان العثمانى بل الامبراطورية العثمانية فى موقف خطير . وقد ادرك السلطان ان ليس بإمكانه الاستجابة للمطالب الروسية بعد ان خسر اليونان فإن هذا يعنى ضرورة الانصياع لمطالب القوى الاخرى فى اجزاء اخرى من امبراطوريته وهكذا اصبح الطريق امامه مسدودا الا المقاومة واعلان الحرب المقدسة[٣] لاستثارة مشاعر المسلمين لصد العدوان عن الخلافة الاسلامية التى اصبحت تتعرض لأشد الاخطار . ومن الواضح ان السلطان لم يلجأ الى اعلان الجهاد الا بعد انP ادرك خطورة الموقف وابعاد الطوق المضروب حوله وكما هو متوقع لم يكن لهذا النداء اى صدى حقيقى أو تأثير إيجابى فان العالم الاسلامى يعيش فى حالة يرثى لها بل ان

---

(١) Seton-Watson, Hugh, The Russian Empire, London, 1967 P. 298.

(٢) Ibid.

(٣) Marriott, op Cit., p. 221

القوة الاسلامية التى يمكن ان تقوم بدور له تأثير هى مصر الاسلامية الا انها وتحت وطأة محمد على اصبحت جزءاً من هذا الطوق الملتف حول عنق الخلافة الاسلامية ، وقد قبل القيصر الروسى هذا التحدى الا انه اضطر لتأجيل اعلان الحرب على الدولة العثمانية حتى شهر ابريل سنة ١٨٢٨ بسبب الحرب الروسية الايرانية[١] وفور انتهاء هذه الحرب اعلن القيصر الحرب على الدولة العثمانية فى ٢٦ ابريل وحققت جيوشه انتصارات ساحقة ضد الجيوش العثمانية وعبر القائد الروسى Diebitch البلقان لأول مرة فى اول عام ١٨٢٩ ثم استبلمت ادرنه فى Adrianopleفى ١٤ اغسطس واصبحت الجيوش الروسية تدق ابواب العاصمة العثمانية بعنف وبعد شهر من سقوط ادرنة تم توقيع الاتفاقية المنسوبة اليها (اتفاقية Adrianople فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩) بين العثمانيين والروس .[٢]

لقد حققت هذه الحرب التى توجت بهذه الاتفاقية للروس مكاسب على جانب كبير وخطير من الاهمية فبالاضافة الى التوسع الاقليمى فى آسيا واوربا وتأكيد استقلال الامارات البلقانية فقد اعطت الروس حرية الملاحة فى الدانوب وحرية عبور المضائق لجميع الدول التى فى حالة سلم مع السلطان وحرية التجارة الروسية فى جميع الاراضى والموانىء العثمانية[٣] ويجب ان نلاحظ ان المادة العاشرة من هذه الاتفاقية قد تضمنت قبول السلطان بالاتفاق الثلاثى المعقود بين روسيا وبريطانيا وفرنسا فى لندن فى ٢٢ مارس سنة ١٨٢٩ الخاص بتحديد حدود الدولة اليونانية الجديدة واستقلالها .[٤]

الموقف بعد معاهدة أدرنة :

لقد كانت هذه المعاهدة هى الثمن الذى تقاضته روسيا مقابل تسوية المسألة اليونانية وفق بروتوكول بطرسبرج سنة ١٨٢٦ واتفاقية لندن سنة ١٨٢٧ لصالح الأهداف البريطانية الا ان هذا الثمن اكبر بكثير مما تريد بريطانيا القبول به فقد شعر Wellingtonرئيس وزراء

---

(١) Seton-watson, op. cit., P 299

(٢) Marriott, op. cit, P. 223.

(٣) Seton- Watson op. cit, P. 299.وانظر نص بعض بنود هذه الاتفاقية فى الملحق الثانى لهذا الكتاب

(٤) Anderson M.S., The Eastern Question, London, 1966, P. 74

بريطانيا فى ذلك الوقت ان هذه المعاهدة اعطت روسيا مميزات ضخمة فى الدولة العثمانية[١] بل ساد الاعتقاد فى الدوائر الغربية ان الدولة العثمانية اصبحت وشيكة الزوال ففى خطاب بعث به وزير الخارجية البريطانية Aberdeen الى السفير البريطانى فى العاصمة العثمانية Robert Gordon فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٣٠ يقول فيه « اننا لا نتوقع بقاءها (اى الدولة العثمانية) لفترة طويلة[٢] » وقد توقع الفرنسيون ان يتمخض عن الحرب الروسية العثمانية هذه تقسيم الدولة العثمانية[٣] « فوضعت دوائر الخارجية الفرنسية فى آب (اغسطس سنة ١٨٢٩) مشروع تحالف ثلاثى بين فرنسا وروسيا وبروسيا ضد السلطان والنمسا وبريطانيا يقضى بتجزئة الامبراطورية العثمانية .. واعطاء روسيا بالاضافة الى الامارات البلقانية والقسم الشرقى من آسيا الصغرى حق عبور المضايق »[٤].

وفى أعقاب هذه المعاهدة بدى وكأن الامبراطورية العثمانية تسير فى فلك النفوذ الروسى مما جعل المستشار النمساوى ـ مترنيخ ـ يتساءل بقوله « اما ان أكون على ضلال مبين واما ان تكون الأمور قد تطورت على وجه يجعل القيصر منذ هذه الساعة حامى حمى الترك ».[٥]

(ب) مشروع احتلال الجزائر :

على اثر معاهدة أدرنة اخذت روسيا تسعى الى خلق صعوبات لبريطانيا بقصد الحد من سيطرتها المطلقة على البحر الابيض المتوسط فأسر الكونت K.R.Nesselrode الى الحكومة

---

(١) Ibid

(٢) Ibid

(٣) ظلت السياسة الروسية تجاه مستقبل الامبراطورية العثمانية يكتنفها الغموض واعتقد الغربيون ان ليس لدى روسيا سياسة مستقرة بينما الحقيقة ان القيصر الروسى قد شكل لجنة برئاسة الامير Count V.P. Kochubey لدراسة الموقف الروسى تجاه مستقبل الامبراطورية العثمانية وقدمت هذه اللجنة تقريرها فى ١٦ سبتمبر سنة ١٨٢٨ وخلاصته انه ليس من مصلحة روسيا تقسيم هذه الدولة فقد يؤدى ذلك الى حرب عامة لا تكون نتائجها فى مصلحة روسيا فمن الافضل الابقاء عليها اطول فترة ممكنة وظلت هذه السياسة متبعة طوال العشرين عاما القادمة .

(٤) اميل خورى وعادل اسماعيل ، نفسه ص ٤٨

(٥) المصدر السابق ، ص ٦٦

الفرنسية بأن روسيا لا ترى مانعا من قيام فرنسا بحملة على الجزائر[١] فوجدت هذه النصيحة آذانا صاغية لدى الفرنسيين خاصة وان نزول القوات الفرنسية فى اليونان ازاء انسحاب ابراهيم باشا قد اوجد حماسا لديهم باعتبار ذلك مؤشر الى عودة فرنسا الى مكانتها كقوة عظمى[٢] من ناحية ومن ناحية اخرى فان فرنسا كانت تتطلع منذ فترة لاحتلال الجزائر لأسباب متعددة ليس هنا مجال بحثها لهذا اعتقد الفرنسيون ان الظروف الدولية مواتية للقيام بهذه الحملة ومن ناحية ثالثة فان فرنسا لازالت تتطلع الى استعادة مكانتها فى مصر والتى سلبتها اياها بريطانيا اثر فشل حملة ، نابليون فى مطلع ذلك القرن كما ان نجاح محمد على فى ضرب القوة الاسلامية فى الجزيرة العربية وضرب الثورة اليونانية ومن خلفها النفوذ الروسى لصالح بريطانيا قد اغراها بأن تحاول ممارسة نفس اللعبة فى الشمال الافريقى .

لهذا ما ان تم ابرام معاهدة ادرنه سنة ١٨٢٩ بين الروس والدولة العثمانية حتى بادر القنصل الفرنسى فى القاهرة Drovetti بمفاتحة محمد على بأن يقوم هذا الأخير باحتلال الشمال الافريقى ـ ليبيا وتونس والجزائر ـ لحساب فرنسا . وكانت فرنسا تهدف من وراء ذلك الى تحقيق ثلاثة أمور على جانب كبير وخطير من الاهمية :

الاول : ان ذلك سيجنب اوعلى الأقل سيخفف من معارضة بريطانيا باعتبار هذه الاخيرة صاحبة النفوذ الاول فى مصر والموجه الاولى لسياسة محمد على .[٣]

الثانى : إن هذا ـ لو تم ـ سيكون خطوة مهمة فى طريق استعادة فرنسا مكانتها كقوة عظمى ويمكنها بالتالى من النزول فى الميدان كمنافس حقيقى لبريطانيا ليس فى البحر المتوسط

---

(١) المصدر السابق و Anderson, op.cit.p. 71/2

(٢) Seton-Watson, op.cit., p. 301

(٣) لا صحة مطلقا للمزاعم التى يرددها كثير من المؤرخين من ان فرنسا كانت تمارس نفوذا فعليا على سياسة محمد على باعتبار معظم مستشاريه وخاصة العسكريين كانوا فرنسيين ففرنسا (منذ مؤتمر فينا ١٨١٥) وسقوط نابليون كانت دولة من الدرجة الثانية او الثالثة بينما كانت مصر تأتى فى الدرجة الاولى بالنسبة للسياسة البريطانية فى المنطقة .

وحسب وانما فى عموم المنطقة بأسرها وفى المسألة الشرقية ككل .

الثالث : وهذا هو المهم من زاوية بحثنا هذا ان استخدام جيش اسلامـى ضد بلاد اسلامية سيكون اكثر فعالية وسيلقى اقل مقاومة مما لو تمت الحملة على يد جيش فرنسى مسيحى ثم ان هذا الجيش الاسلامى هو ـ اسميا طبعا ـ تابع للسلطان العثمانى وهذه البلاد التى سيغزوها هى ايضا ـ واسميا ايضا ـ تابعة لهذا السلطان وهذا بالتالى سيجعل تحقيق الحملة مضمون النجاح .

وقد كانت اوساط الحكومة الفرنسية متفائلة بنجاح فكرة المشروع وذلك لسببين :

الأول ـ ان محمد على طالما اظهر تعاطفه مع فرنسا واعجابه بها وحرصه على توثيـق علاقاته خاصة الثقافية معها واستخدام مستشاريه من أبنائها ـ وان كانت تدرك ان هذا لا يخرج عن حيز العواطف والآمال اما عقله وسياسته العملية فهى مستمدة من وحى لندن وتوجيهاتها .

الثانى ـ ان فرنسا تدرك مدى عمق خيبة الأمل التى لحقت بمحمـد على من جراء خروجه من حرب اليونان صفر اليدين بل ومحطم الجيش فتوقعت ان ينال هذا المشروع ترحيبه الكامل بل وحماسه الشديد .

وفعلا رحب محمد على بهذا المشروع ودارت عجلة المفاوضات حتى تم التوصل الى اتفاق اهم بنوده :

١ ـ يقوم محمد على بالحملة معتمدا على جيوشه التى سيقودها ابنه ابراهيم باشا ولا يحق لفرنسا ان ترسل جنودا برية لمساعدته ولها ان تؤمن الحصار على الشواطىء الافريقية على ان تفكه وتسحب قواها البحرية عن هذه الشواطىء متى رأى ابراهيم باشا انه بات فى غنى عنها .

٢ ـ تقدم فرنسا لمحمد على دون ثمن او مقابل اربع سفن حربية كبيرة سلاح كل واحدة منها اربعون مدفعاً ، وتقرضه واحدا وعشرين مليون فرنك يسددها فى اربع سنوات تبدأ فى اليوم الذى يتم فيه احتلال مدينة الجزائر .

٣ ـ تتعهد فرنسا بأن تقدم لابراهيم باشا ، اذا دعت الضرورة ضباطا وخبراء فى المدفعية والهندسة ، وسلاحا وعتادا .
٤ ـ يتعهد ملك فرنسا بالتدخل وسيطا فى كل خلاف ينشأ بين محمد على ودولة اخرى وبحماية مصر من كل اعتداء يقع عليها .
٥ ـ يتعهد محمد على بأن يقيم فى افريقيا الشمالية حكومة على غرار الحكومة المصرية تعطى فرنسا امتيازات اقتصادية فى البلاد ، وبالقضاء على نشاط القراصنة الافارقة فى البحر المتوسط وبأن يدفع لخزانة السلطان جعالة سنوية لا تقل عما يدفعه لها عن مصر .[١]

ولا تعنينا التفاصيل الدقيقة التى تلت هذا الاتفاق وماقيل ان سبب اخفاقه هو الاختلاف بين الباشا والحكومة الفرنسية بشأن اشتراط محمد على تقديم اربع سفن حربية وعدم استجابة الحكومة الفرنسية لهذا الطلب[٢] وانما الذى يعنينا هو قبول محمد على القيام بهذا الدور وهو يعنينا من زاويتين :

الاولى : انه يعطى مثالا صارخا على الادوار التى أعد الباشا نفسه ـ او أُعد ـ لأنْ يقوم بها كمخلب قط ـ او حسب التعبير الحديث ـ كشرطى بوليس لتحقيق اهداف الدول الكبرى ضد الشعوب الاسلامية بهدف تركيعها لهذه القوى .

الثانية : ان سبب فشل المشروع ليس بسبب الاختلاف على عدد من السفن ولا معارضة الباب العالى ولا نتيجة لموقف قومى او دينى فهو يقول صراحة للمفاوضين الفرنسيين « وثقوا ان قرارى ... لا ينبع من عاطفة دينية فانتم تعرفوننى وتعلمون اننى متحرر من هذه الاعتبارات التى يتقيد بها قومى ... قد تقولون أن مواطنى حمير وثيران هذه حقيقة اعلمها[٣] » انما السبب الحقيقى لعدول الباشا عن القيام بهذه الحملة هو فقط اعتراض بريطانيا . فقد حاولت فرنسا ان تحيط مشروعها بكل التكتم والسرية ولكن اخباره لم تلبث ان تسربت وعلمت بها بريطانيا ، بل يقال أن الباشا نفسه هو الذى أُحاط بريطانيا بالاقتراح الفرنسى[٤] فثارت ثائرتها وهددت « بإنها تدمر اسطوله ساعة خروج هذا الاسطول من مرافئه

---

(١) اميل خورى وعادل اسماعيل ، نفسه ، ص ٧٣
(٢) المصدر السابق ص ٢٤
(٣) المصدر السابق ص ٧٨ ـ ٧٩
(٤) عمر ، نفسه ، ص ٢١٧

بالاسكندرية وتقويض ملكه اذا زحف بجيشه الى افريقيا الشمالية وارسلت تعليماتها بهذا الشأن الى باركر Barker قنصلها العام فى الاسكندرية فمضى الى العزيز فى ٧ آذار (مارس) سنة ١٨٣٠ وصارحه بأن علاقاته مع بريطانيا ستتدهور تدهورا فيه كل الخطر عليه وعلى ملكه اذا استمر ماشيا فى ركب السياسة الفرنسية »[١] وكانت اجابة محمد على صريحة وايجابية فأكد انه لا يمكن ان يتطلع الا الى انجلترا وقال بالحرف « بدون (مساعدة) اصدقائى الانجليز لا أستطيع ان اعمل اى شىء ... لقد ادركت منذ فترة طويلة اننى لا استطيع ان اقوم بعمل عظيم بدون موافقة بريطانيا »[٢]! كما ان الباشا أعرب عن قلقه من جراء غموض الموقف البريطانى تجاهه مع ما قدمه من خدمات عظيمة وما يبديه من استعداد دائم للسير فى أى اتجاه تحبذه بريطانيا ويحقق مصالحها واشار بوضوح وجلاء الى الموقف الراهن والتهديد الروسى القائم واستعداده لأن يلعب الدور الذى تراه بريطانيا للحد من التوسع الروسى فقال مخاطبا القنصل البريطانى « ان لحكومتك مواقف يغيب عنى مقطع الصواب فيها » وبعد ان أشار الى ضعف السلطنة العثمانية كقوة للوقوف فى وجه التهديد الروسى للمصالح البريطانية اردف قائلا « وانى اخاطبك الآن لا بوصفك ممثلا رسميا لحكومتك ولا تحت تأثير البلاغ الذى جئتنى به بل أحدثك حديث الصديق للصديق ، ان وزير خارجيتكم لا يعرفنى ولو انه عرفنى لأيقن ان الوسيلة الوحيدة لدعم هيبة السلطان وتقويته هى ان يؤيدنى ويناصرنى وفى هذا كل الفائدة وكل الخير لبلادكم وسياستكم فانا أملك جيشا من ١٢٥ ألف مقاتل يستطيع ان يقف سدا بوجه الروس عند الاستانه وعلى حدود فارس ، وفارس هى الميدان الذى ستضطر بريطانيا يوما ان تنازل فيه روسيا ..»[٣]

ولم تجب الحكومة البريطانية على تساؤلات وعروض الباشا فهى ليست فى حاجة الى نصائحه لأنها ادرى منه بكثير بأصول اللعبة وابعادها وانما همها الآن ان لا يتحول الى عميل للفرنسيين مما يهدد مكانتها فى مصر ومن ثم فى عموم المنطقة بأسرها هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان الاوضاع المترتبة على الحرب الروسية ـ التركية الأخيرة ومعاهدة ادرنه تجعل بريطانيا فى امس الحاجة الى ان يقوم الباشا بدور اكثر ضرورة لها واكثر اغراء له ايضا وكان مسرح هذا الدور هو سوريا .

---

(١) اميل خورى ، وعادل اسماعيل ، نفسه ، ص ٧٩

(٢) Dodwell, op.cit.P. 105

(٣) اميل خورى ، وعادل اسماعيل ، نفسه ، ص ٧٩ ـ ٨٠

(جـ) غـــزو الشّـــام :

من المؤلم حقا ان يجد القارىء والمثقف العربى بل وحتى المتخصص فى التاريخ العربى الحديث ان تاريخ الاحداث الكبرى التى صنعت ماضيه وشكلت حاضره ولازالت تؤثر على مستقبله قد كتب بشكل يؤدى فى محصلته النهائية الى ضبابية الرؤية ، بل ربما الى انعدامها تماما ليس فقط بالنسبة لتلك الاحداث السالفة وانما ايضا يؤدى الى عدم القدرة على تقييم الحاضر وتشخيص العوامل الموضوعية الفاعلة فى هذا الحاضر وبالتالى الى الشلل التام فى القدرة على طرح تصور موضوعى للمستقبل ومن ثم انعـدام امكانيـة الاسهـام فى صنـع الظروف ـ او على الأقل التأثير فيها ـ لتحقيق الاهداف التى يصبى الى تحقيقها او بعبارة اكثر وضوحا العجز الكامل عن وضع استراتيجية محددة الاهداف واضحة الابعاد مرسومة الخطوات ، وغزو محمد على للشام او ما يعرف بالازمة السورية (بمرحلتيها من ١٨٣١ الى ١٨٣٣ ومن ١٨٣٣ الى ١٨٤١) تعطى مثلا حيا وشاهدا قاطع الدلالة على مانقول . هذا الحدث هو فى حقيقته جزء رئيسى مما عرف بالمسألة الشرقية التى لا تقل خطورة واهمية عما يعرف الآن بأزمة الشرق الاوسط ، بل ان هذه الازمة الحالية هى ذات ارتباط وثيق وعضوى بتلك الازمة الاولى ليس فقط فى الحيز المكانى والسكانى وانما ايضـا بأبعادهـا السياسيـة وملابساتها الاقليمية والدولية . فمما لاشك فيه ان أيه معالجة للأزمة الحالية تتجاهل ملابساتها الدولية وصراع القوى الكبرى وتقتصر على دراسة وسياسات زعيم من زعماء المنطقة او دولة او حتى مجموعة من دول المنطقة هى معالجة سقيمة ممعنه فى السذاجة لا تستحق اعارتها اى اهتمام جدى . ومايقال عن الازمة الحالية من هذه الزاوية ينطبق بكل تأكيد على الازمة الاولى بل اكثر منه فإن الوحدات السياسية المحلية المعاصرة للأزمة الحالية اكثر تأثيرا فى الاحداث فى تلك المنطقة ، نتيجة لانتشار الوعى السياسى والتجارب المريرة التى تعرضت لها المنطقة ، من نظيراتها الوحدات السياسية المعاصرة اللازمة الاولى حيث كانت الدول الكبرى صاحبة نفوذ شبه مطلق لا على توجيه السياسات الخارجية لدول المنطقة فقط بل وحتى رسم السياسات الداخلية لها .(١)

CF. Dodwell, op.cit. P 13 (١)

فلقد درج معظم - ان لم يكن كل - من تصدوا لدراسة غزو محمد على لسوريا على حصر اسباب ودوافع هذا الحدث فى اطار محلى وطموحات محمد على الشخصية فهى فى نظرهم - استجابة لتطلع مصر الدائم نحو فرض سيطرتها على الساحل السورى اما كحرب وقائية للدفاع عن حدودها الشرقية ضد خطر قائم أو محتمل من تلك الجهات او عبرها ، او هى استجابة لنمو قوة مصر الذاتية اقتصاديا وسياسيا ومن ثم عسكريا وتطلعها نتيجة لذلك وبأسبابه نحو التوسع والفتح ، او كما ذهب آخرون - وان شئت فقل سف - الى ان سبب ذلك الأوحد هو طموح محمد على ورغبته الجامحة فى انشاء امبراطورية تكاد تكون لا متناهية الحدود[1] وقد صور هؤلاء واولئك محمد على وكأنه قوة عظمى تفرض ارادتها على سائر القوى الكبرى صاحبة المصالح فى المنطقة او انه هو القوة الوحيدة الموجودة فى منطقة ثانوية الاهتمام قليلة الأهمية بينما الحقيقة ان تلك المنطقة التى يتحرك محمد على على مسرحها فى تلك الفترة بالذات - وكما هى اليوم - مجال حيوى بل وخطير لتنافس الدول العظمى فى ذلك الوقت .

نحن لا ننفى وجود تلك الاسباب والدوافع المحلية والشخصية فلاشك ان مصر - فى عهد محمد على ومن قبله ومن بعده - ترنو دائما ببصرها نحو الشام وتجد فيه او معه تكاملا استراتيجيا ليس فقط فى المجال العسكرى - او الدفاعى - انما ايضا فى شتى المجالات الاخرى السياسية والاقتصادية بل وحتى البشرية الا ان هذه الاسباب والدوافع فى تلك الفترة التى نعالجها هى جد ثانوية ان لم تكن عديمة التأثير على الاطلاق .

فكما رأينا عند معالجة موضوع المشروع الفرنسى لقيام محمد على باحتلال الجزائر كيف وقفت الحكومة البريطانية من هذا المشروع موقفا رافضا وهددت باتخاذ كل السبل والوسائل لاحباطها . بالتأكيد ليس للحيلولة بين فرنسا وتنفيذ مشروعها باحتلال الجزائر فانها - اى فرنسا - لم تلبث بعد ان افشلت بريطانيا محاولتها فى استعمال محمد على لتحقيقه قامت هى فى العام التالى وفى اواخر شهر يونيه سنة ١٨٣٠ بغزو الجزائر واحتلالها وانما - وكما سلف القول بدافع من امرين :

---

(١) انظر محمد كرد على ، خطط الشام ، بيروت ١٩٧٠ جـ ٣ ص ٥٠ حيث يبرر غزو محمد على للشام بقوله « بحث محمد على عن وسيلة لذلك (التوسع) فلم يلبث طالعه السعيد ان خلق له سببا معقولا لفتح الشام وذلك ان بعض فلاحى الشرقية بمصر ضاقت نفوسهم من اعنات عماله بالجندية والضرائب فهاجروا الى جهات غزة ملتجئين الى والى عكا وكان عددهم ستة آلاف فطلب منه محمد على ارجاعهم خوفا من كثرة عدد من سيتبعهم الى الشام فامتنع الوالى عن ذلك بدعوى ان القطرين تابعان لسلطان واحد فاستشاط محمد على غضبا ...»!

الاول : هو الاستمرار فى الانفراد بالسيطرة السياسية على الاقل - على مصر محمد على وعدم السماح لأيه قوة اخرى بتهديد مركزها المتميز هناك ليس لأهمية مصر فحسب وانما ايضا كطريق رئيسى لمستعمراتها فى الشرق وخاصة الهند .

الثانى : هو الاستمرار فى استعمال محمد على لتنفيذ مخططاتها واهدافها الخاصة . فقد شهدت السنوات الاخيرة من العقد الثالث من ذلك القرن نجاحات مضطردة لسياسة التوسع الروسية كانت احدى مؤشراتها الرئيسية الحرب مع تركيا وماتمخضت عنه من مكاسب سياسية واقليمية واقتصادية تمثلت فى بنود اتفاقية Adrianople سنة ١٨٢٩ سالفة الذكر . وكانت الجيوش الروسية قبل اعلان الحرب على تركيا قد حققت انتصارا كبيرا على القوات الايرانية اجبرت الشاه الايرانى على توقيع معاهدة مع الروس فى ٢١ فبراير سنة ١٨٢٨ تنازل الشاه بموجبها عن مقاطعات هامة من بلاده بالاضافة الى دفع تعويضات حرب باهظة[١] هذا التفوق الروسى ازعج الساسه البريطانيين ورأوا فيه ليس فقط تهديدا خطيرا لميزان القوى فى هذه المنطقة الحساسة من العالم فحسب بل تهديدا مباشرا لمصالحهم ومناطق نفوذهم التقليدية إن فى الهند او فى اطار الدولة العثمانية فقد اعتبر اللورد Palmerston فى خطابه الموجه الى Temple فى ٨ اكتوبر سنة ١٨٢٩[٢] ان اتفاقيه Adrianople تتناقض مع اتفاقية ١٨٠٩ بين الدولة العثمانية وبريطانيا او بتعبير آخر هى تنسفها وخاصة فيما يتعلق بقضية عبور المضائق[٣] وليس هناك من تفسير لموقف بريطانيا المتراخى تجاه الغزو الفرنسى للجزائر الا انها اصبحت تعتقد ان قضية المحافظة على كيان الدولة العثمانية اصبح موضع تساؤل واعادة نظر فلقد اصبحت الدولة العثمانية بعد معاهدة Adrianople تنضوى تحت مظلة النفوذ الروسى وقد أدرك محمد على الموقف جيدا فعرض على القنصل البريطانى Barker الذى جاء ينذره من مغبة غزو الشمال الافريقى لصالح فرنسا ، بشكل واضح وصريح استعداده للعمل وفق ماتراه بريطانيا للتصدى للتوسع الروسى[٤] وقد نقل القنصل البريطانى آراء ومقترحات الباشا لحكومته الا ان هذه الأخيرة التزمت جانب الصمت حيالها وذلك فى رأينا للاسباب التالية :

---

(١) Seton-Watson, op.cit. p 296.

(٢) Marriott, op.cit. p 236

(٣) انظر نص هذه الاتفاقية فى الملحق الثانى لهذا الكتاب

(٤) انظر اعلاه ص ٨٧ - ٨٨ cf. Dodwell, op.cit. p. 130

الاول ـ انها لم تعترف بالباشا حاكما مستقلا فى مصر .

الثانى ـ ان بريطانيا لو فعلت ذلك ـ اى قبلت مقترحات الباشا ودخلت معه فى حلف مكشوف ضد روسيا فان ذلك سيفقدها الكثير من اوراق اللعبة الهامة فهو سيؤدى الى قطع الخيط الرفيع ـ او شعرة معاوية ـ التى تربطها بالسلطان فى هذه الفترة ومن ناحية اخرى فان اى تحرك عسكرى يقوم به الباشا ضد مناطق النفوذ الروسى وهو فى هذه المرحلة ـ الدولة العثمانية ـ سيعتبر تحركا بريطانيا وبالتالى سيؤدى حتما الى مضاعفات خطيرة منها ان السلطان سيضطر الى الارتماء اكثر فى احضان الروس كما ان ذلك سيؤدى بشكل يكاد يكون مؤكدا الى حرب اوربية عامة .

الثالث ـ ان بريطانيا لازالت تعتبر أن الدولة العثمانية ـ مع ضعفها ـ وليست مصر هى الحاجز الطبيعى ضد التوسع الروسى .[1]

بمبرر شبيه بمبرر غزو السودان حيث كان هدف محمد على المعلن هو تعقب فلول المماليك الفارين الى هناك كان مبرر غزو سوريا المعلن هو اعادة المصريين الفارين من جبروت حكمه وطغيانه بالاضافة الى عدد من المبررات الواهية الأُخرى مثل غضبه المفتعل من موقف والى عكا من قضية اعادة هؤلاء الفارين ، ووعد السلطان له بمنحه باشوية سوريا خلال الحرب اليونانية[2] . تحركت جيوش محمد على برا وبحرا فى شهر اكتوبر سنة ١٨٣١ وكان مقررا لهذه الحملة أن تبدأ فى الشهور الاولى من ذلك العام ، اى بعد شهور قليلة من الاحتلال الفرنسى للجزائر ، الا أن وباء الكوليرا الذى تفشى فى المنطقة فى تلك الفترة أخّر بدء الحملة بضعة شهور وقد بلغت قوات الجيش ٣٠ الفا (ستة آليات من المشاه واربعة آليات من الفرسان) كما بلغ اسطوله ست عشرة سفينة حربية وسبع عشرة سفينة نقل[3] ، وقد أبحر هذا الاسطول على مرأى ومسمع من الاسطول البريطانى فى شرق المتوسط هذا الاسطول أى ـ الأسطول البريطانى ـ هو الذى هددت بريطانيا باستخدامه ضد محمد على واسطوله إبان مفاوضات الباشا مع الفرنسيين لاحتلال الجزائر لحسابهم نراه فى هذه الحملة يقف متفرجا وكأن الأمر لا يعنيه فى قليل او كثير او كأن المنطقة التى يتحرك اليها وعليها ليست بذى أهمية مع

(١) Bowle, op.cit. p 449; Anderson, op. cit P 58.

(٢) Marlowe, John, Anglo-Egyptian Relations, London, 1954, P. 39

(٣) (الرافعى ، نفسه ، ص ٢٤٩ .

انها فى واقع الامر وحقيقته تشكل اهم معبرين رئيسيين نحو مستعمراتهـا فى الشرق ودرة تاجها ، الهند ! هذا الموقف السلبى فى ظاهره هو فى حقيقته موقف ايجابى مؤيد لهذه الحملة فتفوق جيش محمد على وأسطوله على جيش السلطان واسطوله أمر مفروغ منه[١] فالأمر اذن لا يحتاج الى تدخل الاسطول البريطانى بشكل مباشر مع مافى ذلك من محاذير ومايترتب عليه من مضاعفات سبقت الاشارة اليها وهذا لا يعنى ان ليس هناك ضباطا بريطانيين اشتركوا فى هذه الحملة بل ان قائد احدى سفن اسطول الباشا (كفر الشيخ) فى هذه الحملة كان القومندان برسيك الانجليزى[٢] ويجب ألا نقيس اشتراك ضباط انجليز فى جيش واسطول الباشا بنفس المعيار الذى نقيس به اشتراك ضباط من جنسيات اخرى وخاصة الفرنسيين وابرزهم Colonel Joseph Seve المعروف بسليمان باشا الفرنساوى والـذى يعتبـر مؤسس الجيش المصرى فان هؤلاء بمثابة مرتزقة دافعهم الاساسى البحث عن مكاسـب شخصيـة وطموحات فردية بعد ان عز تحقيق ذلك فى بلادهم وخاصة بعد سقوط نابليون وانحدار فرنسا الى دولة من الدرجة الثانية او الثالثة . اما اشتراك ضباط من دولة عظمى او الدولة الاعظم حيث كانت بريطانيا هى تلك الدولة فى تلك الفترة فان ذلك بالتأكيد له دلالته ومغزاه ، كما انه فى مراحل متقدمة من هذه الحملة ـ او ألازمة ـ اصبح اشتراك بريطانيا اكثر فعالية ففى سنة ١٨٣٤ سمحت الحكومة البريطانية للضباط البحريين البريطانيين بالعمل فى اسطول الباشا مع دفع نصف مرتباتهم[٣] كما اصدر Palmerstone اوامره فى سبتمبر من نفس هذا العام للاسطول البريطانى فى البحر المتوسط بالتصدى للاسطول العثمانى فيما لو حاول الهجوم على اسطول الباشا .[٤]

حقق جيش محمد على انتصارات سريعة على الساحة السورية[٥] وعلى الرغم من صمود عكا قرابة ستة شهور الا ان ابراهيم باشا استطاع التغلب عليها فى الأخير وفتحها فى ٢٧

---

(١) فى ذلك الوقت كان السلطان محمود يعمل على تصفية الانكشارية والعمل على تأسيس جيش حديث وفق النظام الاوربى مما اضعف امكانية تصدى الجيش العثمانى لجيش محمد على انظر : Marlowe, op.cit.

(٢)الرافعى ، نفسه ص ٢٨٥

(٣) Dodwell, op.cit.P. 224.

(٤) Anderson op.cit. P.84

(٥) مما يجدر ذكره ان السلطان اسقط اسم محمد على من قائمة الولاة اثر غزو سوريا فقام لغط كبير فى مصر حول مشروعية حكم الباشا واهدافه من غزو سوريا فواجه الباشا هذا اللغط بحركة اعدامات شملت بعض العلماء ، انظر : Dodwell, op.cit. P.110

مايو سنة ١٨٣٢ ويبدو ان القنصل البريطاني في القاهرة Barker كان على خلاف مع وزير الخارجية Palmerston حول النتائج التي يمكن ان تترتب على استعمال الباشا في هذه اللعبة الخطرة فلم يقم Barker بتأييد محمد على ولا بتهنئته على فتح عكا مماجعل Palmerston يوبخه ويعزله من منصبه ويعين بدلا منه C.P artick Campbell Colonel [٢] . وقد أزعجت هذه الانتصارات روسيا ورأت فيها خطرا حقيقيا يهدد مكاسبها التي حصلت عليها نتيجة الحرب الروسية التركية الاخيرة ومعاهدة Adrianople سنة ١٨٢٩ فكتب Nesselrode الى السفير الروسى في استانبول في اول نوفمبر سنة ١٨٣٢ بأنه « مهما تكن ظروف الكارثة فانها ستكون متصلة بمصالح روسيا والمزايا التي ربحتها روسيا من معاهدة Adrianople قد تصبح بفعل تطورات الكارثة موضوع نقاش جديد »[٣] بالتأكيد هذه ليست نبوءة او تخمينا من Nesselrode فهذه المعاهدة وماترتب عليها من نتائج ، أخلت بميزان القوى في هذه المنطقة لصالح روسيا هي المستهدفة وهي السبب الجوهري لغزو محمد على لسوريا . لقد بذل السلطان العثماني محاولات متعددة لاقناع بريطانيا بايقاف جيوش محمد على منذ بدء الحملة عام ١٨٣١ واستمرت محاولته في العام التالى فقد عرض السلطان على السفير البريطاني في الاستانه Stratford Canning في اغسطس مشروع تحالف عثماني - بريطاني كما قام القائم بالاعمال العثماني في فيينا Mavroyeni بزيارة لندن في اوائل نوفمبر لطلب المساعدة البريطانية ضد جيوش محمد على وبعد ستة اسابيع من ذلك وصل الى لندن ايضا ولنفس الغرض نعيم باشا ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل فقد اعارتها الحكومة البريطانية أذنا غير صاغية[٣] وعلى الرغم من محاولات فرنسا التوسط منفردة او بالتعاون مع بريطانيا فهذه الأخيرة رفضت[٤] بشكل قاطع وليس سبب ذلك لانشغالها بمشاكلها الداخلية او بانشغالها في المسألتين البرتغالية والبلجيكية كما يذهب البعض[٥] بقدر ماهو نتيجة لظروف الأزمة نفسها فإن اى تدخل بريطاني في هذه المرحلة الى جانب السلطان العثماني هو في مصلحة روسيا كما هو في نفس الوقت اعتراف ضمني بمعاهدة Adrianople ومن جانب آخر فان بريطانيا لو

---

(١) Ibid, pp. 112/113.

(٢) اميل خورى ، وعادل اسماعيل ، نفسه ص ٩٤

(٣) Anderson, op. cit. p. 79

(٤) Ibid; Seton-Watson, op.cit. P. 302

(٥) Ibid.

اعلنت رسميا وقوفها الى جانب محمد علىّ فان ذلك يعنى تقسيم الامبراطورية العثمانية وربما يقود الى حرب مع روسيا وما يترتب على ذلك من مضاعفات على الساحة الاوربية ككل وبريطانيا لا تريد هذا ولا ذاك بأى حال .

ودخلت الازمة مرحلة جديدة وخطيرة فى نهاية ذلك العام عندما استطاع ابراهيم باشا تحقيق نصر حاسم على الجيش العثمانى فى نهاية شهر ديسمبر سنة ١٨٣٢ بقيادة الصدر الأعظم نفسه محمد رشيد باشا فى قونية تحطم على اثرها الجيش العثمانى بشكل يكاد يكون تاما واصبحت الطريق الى العاصمة العثمانية تكاد تكون خالية من أية مقاومة جدية ومع بداية العام الجديد (١٨٣٣) واصل ابراهيم باشا تقدمه حتى وصل الى كوتيه Kutiahفى اوائل شهر فبراير على بعد ١٥٠ ميلا فقط من استانبول ومع ذلك لم تغير الحكومة البريطانية من موقفها وأصرت على تجاهل نداءات السلطان لانقاذ الموقف مما اضطر هذا الأخير مرغما الى اللجوء الى عدوه التقليدى او صديقه اللدود القيصر الروسى فطلب رسميا فى الثانى من فبراير قدوم ٣٠ الف جندى روسى تأتى عبر الدانوب للدفاع عن العاصمة العثمانية وفى ٢٠ من هذا الشهر عبر الأسطول الروسى البسفور[١] وهنا ، ولهذا السبب توقف زحف جيوش محمد على وبدأت المفاوضات . ولعله من الجدير بالملاحظة ان فرنسا دأبت على بذل مُساعيها الحميدة منذ بدء تلك الأزمة للتوسط بين الخصمين ـ او بتعبير اصح ـ بين الدميتين ـ محمد على والسلطان ولما كانت هذه المساعى لا تستند الى نفوذ سياسى يستند الى قوة عسكرية فرنسية فقد كانت فرنسا تلجأ الى تضمين مساعيها ـ واحيانا تهديداتها ـ بتدخل بريطانيا فرنسى مشترك مما أحبط هذه المساعى وجعلها تبوء دائما بالفشل . وبرغم الوصول الى شبه اتفاق بين الباشا والسلطان فى كوتاهية فى ٨ ابريل سنة ١٨٣٣ يقضى بتثبيت محمد على على مصر وسوريا بالاضافة الى الحجاز وجزيرة كريت وان تكون منطقة أضنة تحت حكم ابراهيم باشا مقابل إنسحاب جيش محمد على من بقية الاناضول[٢] الا ان هذه التسوية لم تكن لترضى محمد على فقام ابنه ابراهيم بالاستعداد لمواصلة الزحف نحو استانبول وفى اثناء ذلك وصل الى العاصمة العثمانية القائد الروسى General A.F.Orlovفى ٥ مايو سنة ١٨٣٣ للتفاوض مع

---

(١) Andrson, op. cit. p. 81

(٢) عمر ، نفسه ، ص ١٧٧ ـ ١٧٨

الحكومة العثمانية لعقد اتفاقية بينها وبين روسيا مما جعل محمد على فى اليوم التالى (٦ مايو) يوافق على مشروع اتفاقية كوتاهية[١] . ومما يجب ملاحظته ان ما تم فى كوتاهية ليس صلحا حقيقيا بقدر ماهو هدنه مؤقتة بين طرفين لا يملكان الكلمة الفصل فى شأن هذه الأزمة التى اصبحت بؤرة المسألة الشرقية برمتها ، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان هذا الاتفاق لم يحقق لأى من الطرفين حدا ادنى مما يطمح الى تحقيقه فمحمد على رغم انتصارات جيوشه الساحقة ورغم استيلائه على مناطق شاسعة وهامة لازال فى حكم التابع للسلطان ووضعه فى المناطق المفتوحة لازال قلقا وليس له من أمل فى تثبيت هذا الوضع وانهاء تبعيته للسلطان الا التطلع الى حسن نوايا بريطانيا تجاهه واقتناعها بجدوى الاعتماد عليه كما اثبت ذلك عمليا فى الجزيرة العربية ضد السعوديين وفى اليونان ضد الروس وهناك فى الشام ايضا ضد الروس حيث قال ذلك صراحة لقنصل بريطانيا وفرنسا فى ابان هذه الأزمة أن « هدفى الوحيد هو تحرير الدولة من سيطرة الروس الذين يتحكمون بشئونها تحكم الاسياد »[٢] اما من جانب السلطان فانه وجد نفسه مرغما امام انهيار جيوشه لقبول هذا الاتفاق والا فهو لا يرى فى محمد على الا واليا متمردا يجب إخضاعه عند اول فرصة تسنح . وقد لعب الروس دورا خطيرا نشطا ومباشرا فى تجميد الأزمة حتى قبل الانزال الروسى فى العاصمة العثمانية فبعد واقعة كوتاهية وصل الى استانبول ومنها الى مصر General Murauv فى ١٣ يناير سنة ١٨٣٣ حيث اجتمع بمحمد على واقنعه بضرورة تجميد نشاطه العسكرى ضد السلطان[٣] . ومن الواضح ان اهداف هذا النشاط الروسى بجانبيه العسكرى والدبلوماسى يهدف الى شىء واحد وهو المحافظة على المكاسب التى تحققت لهم نتيجة لاتفاقية ادرنه (١٨٢٩) . اما الغائب ـ الحاضر الاكبر فهو بريطانيا فلم تشأ ان تكون طرفا مباشرا فى هذه الهدنة (اتفاقية كوتاهية) ، فالهدف الرئيسى من غزو محمد على لسوريا هو ابطال مفعول اتفاقية ادرنه وإعادة المضائق الى وضعها السابق لتلك الاتفاقية والحد من النفوذ الروسى فى البلاط العثمانى ، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان استيلاء محمد على على هذه المناطق الشاسعة والهامة من الامبراطورية العثمانية جعلها (اى هذه المناطق) فى مأمن من الهيمنة الروسية وهذا من وجهة

---

(١) Seton Watson, op.cit. 303

(٢) اميل خورى ، وعادل اسماعيل ، نفسه ص ١٠٣

(٣) Anderson op.cit. P. 81

نظر بريطانيا بالغ الأهمية والحساسية وهو بالتالى يمثل ورقة رابحة فى يدها فى أية مفاوضات او مواجهة قادمة مع الروس .

وحتى هذه اللحظة كانت كل من روسيا وبريطانيا لازالتا تعتقدان ان من مصلحتها (كل من زاويته) الابقاء على الامبراطورية العثمانية وان الوقت لم يحن بعد لتقسيمها فالقيصر الروسى لازال ملتزما فى سياسته تجاه الدول العثمانية بنصائح لجنة Kochubey [1] التى تؤكد أن من مصلحة روسيا الابقاء على الامبراطورية العثمانية اطول فترة ممكنة وان تقسيمها سيلحق بروسيا افدح الاضرار اذ قد تصبح حدودها الغربية والجنوبية عرضة لأخطار لا يمكن التنبؤ بها ، كما ان بريطانيا من ناحيتها لازالت تعتقد ان هذه الدولة مع ضعفها تمثل افضل حاجز ضد التوسع الروسى ، كما ان هاتين الدولتين مقتنعتان تماما انه لن يتم تقسيم هذه الدولة الاعبر حرب اوربية عامة .

وكانت احتمالات الموقف اثر هدنة موتاهية احد أمرين :

الاول : ان تعيد روسيا النظر فى علاقتها بالدولة العثمانية وان تتخلى بشكل او بآخر عن المواقع التى اكتسبتها باتفاقية Adrianople سنة ١٨٢٩ ومن ثم تسوية الأزمة ككل واعادة محمد على الى حجمه الحقيقى عن طريق التفاوض مع بريطانيا كطرف اساسى ومباشر فى الازمة وهذا الامر فى تلك الآونه لم يكن واردا ، فروسيا لم تهزم عسكريا ولم تعزل سياسيا ولم تقع فى ضائقة اقتصادية او ازمة داخلية توجب اتخاذ مثل هذا الموقف المتراجع .

والثانى : ان تعزز روسيا مواقعها المكتسبة باتفاقية Adrianople وتجعل من نفسها الحامى الوحيد للامبراطورية المتداعية وتتحمل بالتالى مايترتب على ذلك من نتائج .

وقد اختارت روسيا الخيار الأخير ففى ٥ مايو سنة ١٨٣٣ وصل الى اسطانبول المبعوث الروسى A.F. Orlov كسفير فوق العادة وقائد للقوات الروسية للتفاوض مع الخلافة العثمانية بشأن عقد اتفاقية جديدة بين الدولتين ، وتمخضت المفاوضات التى استغرقت قرابة شهرين عن توقيع اتفاقية Un,iar Skelessi [2] الشهيرة فى ٨ يوليو سنة ١٨٣٣ وهى بمثابة حلف بين

---

(١) انظر اعلاه ص ٨٢ حاشية رقم (٥)

((٢) انظر نص هذه الاتفاقية فى الملحق الثانى لهذا الكتاب

الدولتين وكانت التعليات التى اعطيت للمفاوض الروسى من قبل حكومته للعمل بموجبها فى المباحثات التى سبقت توقيع الاتفاقية بالغة الأهمية والدلالة فهى تقضى بـ :

(١) اقناع الباب العالى بالاعتماد بشكل مطلق على التأييد الروسى .

(٢) التصدى للنفوذ الفرنسى فى القسطنطينية .

(٣) تثبيت التأييد النمساوى (للروس) وتحييد بريطانيا (العدو الدائم) عن طريق التأكيد بأن الهدف الوحيد للتدخل الروسى هو المحافظة على الامبراطورية العثمانية .

(٤) الاحتفاظ لروسيا (بحق) الانفراد بالعمل ومقاومة اى اقتراح يقضى بالتدخل المشترك .

(٥) ابقاء القوات الروسية فى اسطنبول حتى الوصول الى اتفاقية سلام مع محمد على . وأهم من هذا كله اقناع السلطان محمود بأن امله الوحيد فى الخلاص يمكن فى التأييد الروسى لاغير .[١]

فهذه التعليات توضح بشكل قاطع الاهداف الروسية وبشكل أهم من زاوية موضوع هذا البحث النظرة الروسية اللازمة فمحمد على ليس هو محورها ولاطرفها الأهم بل انها توحى بشكل مباشر الى استفادة الروس وربما رغبتهم فى استمرار بقاء قوات محمد على اطول فترة ممكنة حيث ربطوا قرار سحب جيوشهم من العاصمة العثمانية بالوصول الى اتفاقية سلام بين الباشا والسلطان وهم يدركون جيدا ان ايا من الباشا والسلطان غير قادر على صنع هذا السلام .

لقد خطت اتفاقية Unkiar Skelessi بالمسألة الشرقية خطوة كبيرة وضخمة الى حافة المواجهة بين الدول المعنية .

فقد اكدت اتفاقية Adrianople[٢] التى كانت هى السبب الرئيسى وراء غزو الباشا لسوريا . وقررت بشكل قاطع فى احد بنودها السرية سيطرة الروس على المضائق حيث الزمت السلطان باغلاقها امام السفن الحربية الأجنبية فى حالة الحرب بينما اعطت الروس حرية العبور[٣] كما انها جعلت روسيا هى السند الوحيد للسلطان ، ففى حالة تعرض تركيا

---

(١) Marriott, op.cit.P. 23. Footnote No (1).

(٢) Ibid., P 84

(٣) Dodwell, op. cit p. 236

لهجوم فإن روسيا ستهب لنجدتها ، اى انها جعلت الامبراطورية العثمانية محمية روسيـة . والجدير بالملاحظة أنه ليس فى هذه الاتفاقية ولا فى التعليمات التى اعطيت لـ Orlov مايشير بشكل مباشر او غير مباشر الى اتفاق الطرفين - العثمانى والروسى - على استرداد المناطق التى استولى عليها الباشا ولا احد يتصوران السلطان لم يكن راغبا فى ذلك كما انه ليس من الممكن ارجاع ذلك الى عدم قدرة الروس على التصدى لجيوش محمد على ولكن ذلك لو تم فانه سيكون بمثابة اعلان الحرب وارغام بريطانيا على النزول للميدان وروسيا فى هذه المرحلة ليس من مصلحتها ذلك فقد كسبت الكثير والكثير جدا .

لقد كانت اتفاقية Unkiar Skelessi نصرا ظاهريا للروس ولكنه نصر يحمل فى طياته عوامل الهزيمة فهو اكبر من ان تتحمله موازين القوى الدقيقة والحساسة فى المنطقة فبريطانيا صاحبة النفوذ شبه المطلق فى شرقى المتوسط والمعترف به من قبل الدول الاخرى لن تقبل بحال هذا العبور الروسى المرعب الى حوض شرق المتوسط وهى التى وقفت بحزم امام محاولات التسلل عبر الثورة اليونانية ثم رفعت عصا تمرد محمد على اثر اتفاقية Adrianople لهذا صمم Palmerston منذ سماعه بأنباء هذه الاتفاقية على العمل على تمزيقها ومسح آثارها[١] .

وقد استغرق ذلك قرابة سبعة اعوام قلقة مشحونة بالتوتر والمناورات السياسية والضغوط الدبلوماسية بلغت ذروتها باتفاقيات لندن سنة ١٨٤٠ / ١٨٤١ حيث تمت التسوية بـين القطبين الكبير ين - بريطانيا وروسيا - والدول التابعة لهما وتلقى محمد مكافأة مجزية وعادلة على ولائه واخلاصه الغير محدود لخدمة السياسة البريطانية وإن كان قد اكتشف فى الأخير ان ماكان يعتقد فى نفسه من القدرة والدهاء السياسى على الاستفادة من الظروف واللعب على (ذقون) الجبابرة هو ضرب من الخبل السياسى وجنون العظمة الأجوف ولكن بعد فوات الأوان .

Marriott, op. cit. p. 13 (١)

الفصل الرابع

القمة والسقوط

- من صلح كوتاهية ومعاهدة Unkiar-Skelessi حتى اتفاقية لندن

- التناقض فالصدام

القِمّة والسُّقوط

مِن صُلح كوتاهية ومعاهدة Unkiar-Skelessi
حتى اتفاقية لندن

لقد بلغت قوة محمد على العسكرية وسياسته التوسعية حدها الاقصى سنة ١٨٣٣ (هدنة كوتاهية) فقد اصبح جيشه اقوى قوة ضاربة فى المنطقة ، فلم يعد جيش السلطان يمثل اى تحد جدى للباشا ولم يحل دون هذا الاخير والاستيلاء على عاصمة الامبراطورية العثمانية الا التدخل الروسى وتعقيدات الموقف الدولى واصبح يسيطر على منطقة شاسعة تمتد من تخوم الحبشة ومرتفعات اليمن (ولكن دون مضيق باب المندب) حتى الأناضول ، وعلى وسط الجزيرة وشرقها (ولكن دون الخليج) ولكن من الناحية السياسية اصبح على شفير الهاوية ، فهذه المنطقة التى اصبحت تحت سيطرته تحتوى على اهم الطرق المؤدية الى مستعمرات بريطانيا فى الشرق . فاذا كانت هذه الدولة قد امتشقت الحسام ضد الفرنسيين إبان حملة نابليون سنة ١٧٩٨ ـ ١٨٠١ للحيلولة دون سيطرتهم على مصر لانها فقط تمثل طريقا الى الهند كما انها شجعت محمد على للهجوم على سوريا واحتلالها لحماية الطريق الآخر من سيطرة الروس بعد اتفاقية Adrianople سنة ١٨٢٩ فهل من الممكن ان تقبل بخضوع هذين الطريقين لقوة محلية نامية ؟.. صحيح ان محمد على دأب منذ البدء على تأكيد حرصه على ارضاء بريطانيا والسير فى ركابها ولكن من ناحية ثانية فان بريطانيا ـ كدولة عظمى ـ لا يمكن ان تجعل مصالحها الحيوية رهن بحسن نوايا رجل واحد محكوم على اى حال بنزواته الشخصية وطموحاته اللامحدودة فى اقامة امبراطورية عظمى .

كان هناك انسجام مرحلى حتى تلك الفترة التى نحن بصددها بين اهداف محمد على واهداف بريطانيا فى تلك المنطقة من العالم ولكن كان هناك تناقض استراتيجى بين الجانبين . محمد على من ناحيته كان يهدف الى اقامة امبراطورية فى هذه المنطقة على أنقاض وربما تخلف الامبراطورية العثمانية المتداعية ، وقد ادرك انه لن يستطيع تحقيق ذلك الا بالتوفيق بين

خطواته لتحقيق هذا الهدف ومتطلبات السياسة البريطانية فى المنطقة ولم يكن محمد على فى الحقيقة بغافل عن امكانية حدوث تناقض بين اهدافه ومتطلبات السياسة البريطانية فى المنطقة خاصة بعد درس اليونان البليغ ولكن له كما قال سياسة تجاه هذه الدولة سيحرص على تنفيذها[1] . وهذه السياسة التى يشير اليها الباشا تعنى أمرين ، كما تتضح بشكل جلى من تتبع مجمل المواقف السياسية والتحركات العسكرية التى اتخذها الباشا :

الاول : ان هيمنة بريطانيا على المنطقة حقيقة قائمة وان اى صدام مع هذه الدولة سيؤدى حتما الى الفشل .

الثانى : ان بإمكانه فى فسحة ـ او غفلة من الزمن ان يخلق واقعا جديدا لافى مصر وحدها بل فى عموم المنطقة بأسرها بأن يقيم دولة عصرية على النمط الاوربى عن طريق خلق جيش قوى على النمط الاوربى وتكوين مؤسسات اجتماعية وثقافية ـ وربما سياسية ـ كما هو فى اوربا ، ومن ثم سوف يتمكن فى الوقت المناسب من الوقوف على قدميه وقول كلمته معتمدا على قوته الذاتية وعلى عطف الرأى العام الاوربى فى وجه اى موقف عدائى تتخذه حكومات او اى حكومة اوربية ضد مصر ذات الحضارة العريقة والوجه الاوربى المعاصر !

ومن ناحية بريطانيا فقد كانت سياستها فى تلك الفترة تهدف الى تحقيق مايلى :

اولا : تأمين طريقى الهند الرئيسيين ـ سوريا ومصر ـ بعدم وقوع اى منهما تحت نفوذ دولة كبرى سواء غربية ـ كفرنسا او شرقية كروسيا وكذلك عدم وقوعهما جميعا تحت سيطرة دولة محلية واحدة قد تصبح فى يوم من الايام فى موقف معاد لبريطانيا ومايترتب على ذلك من نتائج لا يمكن التقليل من خطورتها .

ثانيا : اغلاق المضائق ـ البسفور والدردنيل ـ امام الاساطيل الروسية .

ثالثا : احاطة روسيا القيصرية بحزام من الدول الصديقة للحيلولة دونها والوصول الى المناطق الحساسة بالنسبة لبريطانيا ـ الهند ، الخليج ، البحر المتوسط .

وهذه الدول التى تمثل هذا الحاجز هى ايران وافغانستان والامبراطورية العثمانية . وتأتى الدولة العثمانية فى المقدمة من حيث الاهمية حيث هى تسيطر على قلب منطقة الاهتمام هذه من رأس الخليج حتى المضائق بالاضافة الى مصر ، رغم محاولات محمد على الانفصال عن الدولة فقد رفضت بريطانيا حدوث ذلك تحت اى ظرف لأن مصر بمحمد على او بدونه لا يمكن ان

---

(١) انظر اعلاه ، ص ٦٣

تكون البديل للدولة العثمانية فهذه الدولة بوضعها المتداعى هى خير ضمان لتأمين المصالح الحيوية البريطانية ودرء الاخطار سواء اوربية او محلية او باسم المحافظة على كيان هذه الدولة . ونتيجة لتسوية الازمة اليونانية بالشكل الذى تريده بريطانيا كان على هذه الدولة ان تدفع مقابل ذلك لروسيا وكان ذلك الثمن هو اطلاق يد القيصر الروسى لتسوية خلافاته المعلقة مع السلطان العثمانى فكان الاحتياج الروسى للاراضى العثمانية ولم يجد السلطان اى معين لصد هذا العدوان فقد وقفت الدول الاخرى وعلى رأسها بريطانيا موقف المتفرج وحتى واليه على مصر محمد على باشا رفض بشكل قاطع الوقوف الى جانب سيده !

وكانت النتيجة الحتمية خضوع السلطان لمطالب القيصر الروسى وتوقيع اتفاقية Adrianople (١٨٢٩) ولم تكن بريطانيا لتقبل بهذا الوضع فوقوع الامبراطورية العثمانية تحت مظلة النفوذ الروسى لا يعنى فقط قلب موازين القوى فى شرق المتوسط وتغيير وضع المضائق لصالح روسيا بل واخطر من هذا ان الروس سيتمكنون من بسط نفوذهم على احد طريقى الهند الرئيسيين عبر سوريا وحتى الخليج وهذا فى حد ذاته كاف لإثارة الرعب فى قلوب مخططى السياسة البريطانية فكان على هذه الأخيرة ان تسارع الى الحيلولة دون حدوث ذلك ومن هنا حدث الانسجام الذى اشرنا اليه فى بداية هذا الفصل بين طموحات محمد على التوسعية ومتطلبات السياسة البريطانية فكان اجتياح محمد على لسوريا بموافقة وتشجيع بريطانيا الذى انتهى بهدنة كوتاهية سنة ١٨٣٣ ومن ثم بدأ العد التنازلى فى العلاقة بين الجانبين او بدأ التناقض فى الاهداف يفرض نفسه .

التناقض فالصدام :

لم يكن محمد على يريد ان تكون نتائج حملته على سوريا مطابقة او مشابهة لنتائج حملته على اليونان فقد قام بحملته ضد الثورة اليونانية ـ او ضد النفوذ الروسى ـ من اجل بريطانيا ـ وهذا لب او جوهر سياسته التى يقول انه يسهر على تنفيذها لكسب تأييد هذه الدولة ، ورضى طائعا مختارا بالعودة بأقل من خفى حنين ، ولكن الوضع فى سوريا ـ من وجهة نظره ـ يختلف تماما فهى تحقق احلامه فى اقامة دولة كبرى وتؤمن الطريق الى الهند لصالح

بريطانيا وهو صديقها الصدوق وهو بالاضافة الى هذا وذاك يجعله الحليف الطبيعي والقوى ضد التغلغل الروسى ، كما انه قام بهذه الحملة بفهم كامل بأن هذا ماتريده بريطانيا فلم يبدر منها اثناء ذلك اى اشارة بعدم الموافقة والرضا ، فعندما الح السلطان البائس على السفير البريطانى فى الاستانة للتدخل لإيقاف جيش ابراهيم باشا سنة ١٨٣٣ تلطف هذا الأخير وكتب اليه خطابا تكفى قراءة سطوره عن قراءة مابين سطوره لتبيين الموقف البريطانى حيث يقول :

« اطلعنى الباب العالى على الأخطار التى يستهدف لها بفعل وجود جيشكم على مقربة من عاصمته وطلب الى ان ابذل مافى استطاعتى لإقناع سموكم بضرورة القيام بعمل يبدد مخاوفه ولما كانت هذه المخاوف منبثقة عن واقع انتم صاحب الرأى فيه فقد نزلت عند رغبة الباب العالى ووجدت من واجبى ان اكتب اليكم راجيا ان تلبوا طلب جلالة السلطان ...»[1]!

ان الاستراتيجية السياسية لبريطانيا فى هذه المنطقة فى الحقيقة لم تتغير لا قبل ولا اثناء ولا بعد حملة محمد على على سوريا ، هى تقضى كما سلف القول بالمحافظة على الدولة العثمانية بشكلها المتداعى واغلاق المضائق وعدم السماح لقوة خارجية بالسيطرة على مصر او سوريا ، او محلية بالسيطرة عليهما معا ، او قيام قوة حقيقية معبرة عن مصالح اى من الشعبين السورى والمصرى . ولكن الخطأ كان فى عدم ادراك محمد على لهذه الحقيقة او انه كان يدركها بشكل غائم ويراهن على قدرته ايجاد ظروف جديدة تجعله قادرا على التصدى لبريطانيا فى الوقت المناسب ، وهذا هو الخطأ المميت الذى وقع فيه الباشا حيث يتصور انه يستطيع ان (يلعب) على قوة عظمى فانه مهما بلغت قوته العسكرية فهى لن تكون الا برية فقط والتفوق البريطانى المطلق فى البحر والمحيط به من كل جانب قادر على تركيعه فى الوقت المناسب ، كما انه من جانب آخر يستحيل عليه ايجاد حليف قوى يركن اليه عند اللزوم ففرنسا مثلا ـ وهى الحليف المتوقع ـ تدرك جيدا انها ليست فى وضع يمكنها من الصدام مع بريطانيا فى مصر بشكل خاص فعلى الرغم من جهود بعثاتها العسكرية فى تدريب جيش

---

(١) اميل خورى ، وعادل اسماعيل ، نفسه ، ص ١٠٢ .

الباشا منذ مطلع العقد الثالث[١] من ذلك القرن ونشاطها الدبلوماسى المحموم بدءا من الأزمة اليونانية وحتى معاهدة لندن فانها لم تكن فى الحقيقة ذات اثر فعال فى الاحداث فهى ومنذ هزيمة امبراطورها الكبير نابليون بونابرت سنة ١٨١٥ لا تعدوان تكون دولة من الدرجة الثانية كما ان الاضطرابات الداخلية والثورات المضادة[٢] التى طبعت تاريخها فى تلك الفترة تجعلها عاجزة عن لعب دور هام فى المسألة الشرقية عموما وفى مايخص مصر بشكل خاص فى تلك الفترة . وانما هى تحاول ان تصطاد فى الماء العكر وتتسلل من النافذة بعد ان اخرجت من الباب مستغلة لذلك شعور المرارة الذى منى به الباشا على يد بريطانيا فى اليونان وبعد كوتاهيه فى سوريا والتأثير الثقافى الذى تركته الحملة الفرنسية على مصر وإعجاب الباشا بحضارتها مدفوعة فى كل ذلك بأحلام يقظة تراودها لاستعادة مكانتها المفقودة اثر فشل الحملة الاولى . وقد اخذ الباشا يدرك تدريجيا حقيقة الموقف بعد تلاشى سكرة انتصارات جيوشه على جيش السلطان فلم تكن هذه الانتصارات سوى قبضة من الهواء حيث لم يستطع تعضيدها بنصر سياسى ، فاتفاقية ـ او هدنة ـ كوتاهيه لم تعط الباشا اى اعتراف من قبل الدول المعنية وخاصة صاحبة القول الفصل فى ذلك ، بريطانيا ، فقد تجنبت بمهارة فائقة ان تلزم نفسها بشكل مباشر اوغير مباشر بالاعتراف بتلك الاتفاقية وحينما حان الوقت المناسب لتصفية الحساب مع الباشا لم يتردد الوزير البريطانى **Palmerston** فى التنكر لها حيث يقول فى حديث له مع السفير الفرنسى بعد ست سنوات من تلك الاتفاقية مانصه « ... ان الاعتداء الذى تلقى البرقيات تبعته على الاتراك له اهميته ... ولكن من حقنا ان نقول اننا لم نكن شهود اتفاق كوتاهيه ولا من ضامنى تنفيذه واننا لم نقم فى اى وقت بأى عمل يفهم منه اننا عدلنا عن الاعتراف بأن الغالب مازال من رعايا المغلوب أو أن المغلوب فقد سيادته على الغالب وكل مافعلناه أننا قبلنا الامر الواقع ».[٣]

ولكن تغيير هذا الواقع الذى يشير اليه الوزير البريطانى واعادة الامور الى ماكانت عليه قبل حدوثه يحتاج الى استئصال الاسباب التى ادت الى حدوثه وهى تفوق النفوذ الروسى فى

---

(١) حرصت الحكومة الفرنسية على اضفاء الصبغة الفنية والشخصية على اعضاء بعثتها العسكرية فى مصر مع انها فى الحقيقة ذات اهداف سياسية يوجهها بليار عن طريق رئيس البعثة بواييه ولكن بتكتم شديد خشية اثارة شكوك القنصل البريطانى . محمد فؤاد شكرى ، وآخرون ، نفسه ، ص ١٥٧ .

(٢) البطريق ، عبد الرحمن ، التيارات السياسية المعاصرة ، بيروت سنة ١٩٧٤ ص ٢٦ ـ ٢٨ .

(٣) اميل خورى ، وعادل اسماعيل ، نفسه ، ص ١٤٦ .

الامبراطورية العثمانية اثر اتفاقية Adrianopleولكن انتصار محمد على فى كوتاهيه على الرغم من انه أمن سوريا من التسلط الروسى لم يحقق الهدف الأكبر هو الغاء مفعول اتفاقية Adrianople واستخلاص الامبراطورية العثمانية من قبضة القيصر الروسى بل الذى حدث هو العكس تماما فقد انتهز القيصر الفرصة وعزز كما رأينا هذه الاتفاقية باتفاقية اكثر خطورة وابعد اثرا وهى اتفاقية Unkiar Skele ssi فأصبح بقاء سوريا فى تلك الظروف بيد محمد على مطلب مرغوب من العملاقين ، الروسى لتبرير بقاء سيطرته على الدولة العثمانية باسم حمايتها من جيش الباشا ، والبريطانى كورقة رابحة للمساومة حينما تتهيأ الظروف المناسبة ، ونتيجة لهذا المأزق السياسى الذى وقع فيه الباشا اخذ يتخبط فى سياسته ، ويبدو انه كان عاجزا عن ادراك شروط اللعبة وابعادها فتصور ان توقيع اتفاقية Unkiar Skel essi فرصة مناسبة لقيام حرب عامة يستطيع اثناءها تثبيت انتصاراته فى سوريا وربما اضافة مناطق جديدة « فاقترح على الحكومتين الفرنسية والبريطانية ان تهاجما روسيا ووضع تحت تصرفهما كل قواه العسكرية »[١]. وبالطبع لم يحظ هذا الاقتراح الساذج بأى اعتبار جدى من قبل الدولتين المخاطبتين فلجأ الى وسيلة اخرى للخروج من الطريق المسدود الذى وصل الى نهايته وقد تصور ان حالة التوتر القائمة بين الروس وبريطانيا وحلفائها تسمح له بتحقيق امنيته الغالية فى الاستقلال فقدم فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٣٤ مذكرة الى قناصل بريطانيا وفرنسا والنمسا فى مصر يشعرهم فيها بعزمة على الاستقلال عن السلطان مقابل امتيازات يعطيها للدولتين ـ بريطانيا وفرنسا ـ « ولأن هذا الاستقلال الضمان الوحيد ضد تقدم روسيا فى الشرق عبر آسيا الصغرى وبلاد فارس »[٢] وكانت ردود الفعل على مذكرة الباشا من جميع الدول المعنية فى غير صالحه فروسيا هددت بتطبيق معاهدة Unkiar Skele ssi اذا أقدم الباشا على الانفصال عن الدولة العثمانية ، وبريطانيا ساءها ان يجعل من نفسه معبرا عن مصالحها فهى تدرك مالا يدركه الباشا وليست فى حاجة الى نصائحة فيما يتعلق بعلاقاتها الدولية ومصالحها الحيوية ، اما فرنسا فهى ايضا غاضبة ـ ولكن طبعا بعد ان علمت برد الفعل البريطانى من ناحية ومن ناحية اخرى فهى (شرهانة) اى عاتبة على الباشا لانه « وجه المذكرة الى القنصل البريطانى العام فى مصر قبل أخذ رأى القنصل الفرنسى فيها[٣] »!

---

(١) المصدر السابق ، ص ١١٨

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(٣) المصدر السابق

لقد كانت هذه الأزمة محكا حقيقيا لقدرات محمد على السياسية وعبقريته المزعومة واثبتت بشكل جلى ان انتصاراته العسكرية سواء فى الجزيرة العربية او اليونان او اخيرا فى سوريا لم تكن لتتم لولا تطابقها مع اهداف السياسة البريطانية ، وعندما تعارضت هذه الاهداف مع طموحات الباشا تبين له وبعد فوات الاوان ان جميع انجازاته ـ وبعد ربع قرن ـ مجرد قبضة من الهواء كما قلنا آنفا وفى محاولة يائسة للخروج من هذا المأزق حاول الباشا ترميم علاقته بالسلطان العثمانى فطلب اجراء مفاوضات مباشرة سنة ١٨٣٦ بمعزل عن جميع الدول وعرض تقديم مبلغ ٦٠٠ الف كيس مقابل الاعتراف بحق الوراثة فى مصر وسوريا كلها فرفض السلطان.هذا العرض(١) وكان هذا الطلب فى الحقيقة مستحيلا فلا هو ولا السلطان بقادرين على حل الازمة التى اصبحت ذات طابع دولى . وكان رد فعل الحكومة البريطانية واضحا ـ بل وعنيفا هذه المرة ـ تجاه تخبط محمد على وتهديداته بالاستقلال حيث كتبت وزارة الخارجية البريطانية الى قنصلها فى مصر Campbell « اذا حاول محمد على ان يضع ماقال موضع التنفيذ واذا نتج عن هذا التنفيذ قيام حرب بينه وبين السلطان فان بريطانيا مصممة على الوقوف جنبا الى جنب مع محمود الثانى لتساعده على فرض القانون والنظام وازالة كل حيف لحق او قد يلحق به وبحقوقه والضرب على من يريد تجزئة الامبراطورية العثمانية ... ان الباشا يكون على ضلال مبين اذا ظن ان مابين بعض الدول الاوربية من تزاحم وتحاسد سيمنعها من الانتصار للسلطان ومده بالمساعدة اللازمة للدفاع عن حقوقه المشروعة » .(٢)

وكرر محمد على نفس المحاولة بعد عامين فقد اخذت الامور بالنسبة له تتأزم بشكل خطير من الناحيتين الداخلية والخارجية فتفجرت الثورات والعصيان فى سوريا من جميع الطوائف ضد حكمه واصبح فى عزلة سياسية كاملة من ناحية علاقاته الخارجية كما انه اصبح فى قلق شديد على مستقبله ومستقبل عائلته ككل فقد تقدمت به السن ولم ينل اى ضمان حقيقى لحكمه ومستقبل عائلته فأبلغ فى ٢٥ مايو سنة ١٨٣٨ قنصلى بريطانيا وفرنسا عزمه على الاستقلال كما ابلغ فى اليوم التالى قنصلى روسيا والنمسا « وكان هدف هذا البلاغ ان تتدخل الدول الاوربية بينه وبين السلطان لتسوية عادلة فيعدل عن الاستقلال مقابل الاعتراف له بحق الوراثة ، وادرك مترنيخ اللعبة فكتب الى سفيره فى باريس ان الباشا

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٧ ـ ١٢٨

(٢) اميل خورى وعادل اسماعيل ، نفسه ، ص ١٢٩ وانظر ايضا : Dodwell, op.cit., P. 171

« يلعب مع الدول لعبة سياسية من الطراز الشرقى[٢] » ولكن بعد اقل من شهرين ارغم على سحب الاعلان وذلك فى ١٦ يوليو سنة ١٨٣٨ وبحضور القنصل البريطانى Campbel والروس Medem[٢] .

لقد اصبحت الظروف كلها ضد الباشا واخذت الازمة تأخذ بخناقه من كل جانب ولم يعد له اى سند حقيقى لافى الداخل ولا فى الخارج فسياساته الداخلية سواء فى مصر نفسها او فى المناطق المفتوحة كانت تقوم على العسف والجبروت وابتزاز الاموال ومصادرة الاراضى لتسخيرها لبناء مجد اثبتت الاحداث انه مجد زائف فلم يكن هو فى الحقيقة مخلصا لأى شىء الا لنفسه وعائلته فلم يكن صاحب عقيدة يناضل من اجلها او مبادىء يعمل على تحقيقها ولم تكن الشعوب ـ بما فيها الشعب المصرى ـ التى يسيطر عليها بالنسبة له الا مجرد وسائل لاشباع نهمه فى المال وامداد جيشه بالرجال لتحقيق طموحات طموحه جدا اكبر من امكانياته بل واكبر من مؤهلاته ليست الشخصية فقط وانما الاجتماعية والسياسية . وقد علق كل الآمال على بريطانيا فارتمى فى احضانها بدون الحصول على اى ضمان من قبل هذه الأخيرة واعتقد انه ليس فى حاجة لأى كائن سواها فلم يعمل بشكل جدى على بناء قاعدة شعبية تقف الى جانبه عند اللزوم فقد مارس ابشع انواع الاضطهاد والتقتيل والتشريد فى الجزيرة العربية بشكل لم يعمله ولا حتى يهود اليوم مع شعب فلسطين وخيب آمال السوريين الذين اعتقدوا انه رسول انقاذ من فساد الحكم التركى فأصبحوا كالمستجير بالرمضاء من النار ، اخذوا بعد فترة وجيزة من حكمه يتمنون عودة الحكم العثمانى بما فيه من فساد ومظالم فتأججت الثورات ، ويجب عدم المبالغة فى دور الاجانب وخاصة الانجليز فى اشعال هذه الثورات فهم فقط اسهموا فى توسيعها واذكائها وانما كانت طبيعة حكمه هى السبب الحقيقى فى اشعالها وحتى انجازاته فى مصر نفسها كالبعثات التعليمية لأوربا ومصانعه لم تكن سوى نوع من (الديكور) لبلاط الباشا العظيم ، وكما قال احد الكتاب الغربيين « وكان تجنيده للجيش واعمال السخرة الحقت ابلغ الاضرار بالفلاحين ، وكان اهتمامه بالثقافة الاوربية نفعية وسطحية والمدارس التى انشأها كانت فقط لتخريج العسكريين والمطبعة التى انشئت فى بولاق سنة ١٨٢٢ خصصت اصلا لطبع النشرات العسكرية . . .»[٣]. لهذا فان ما اعتبره الباشا تغييرا

---

(١) اميل خورى وعادل اسماعيل ، نفسه ، ص ١٣٠

(٢) Anderson, op.cit., P. 93

(٣) Anderson, op.cit., p. 56

فى السياسة البريطانية ـ وهو لم يكن كذلك فى الحقيقة ـ كما بينا فيا سبق ـ كان هذا ضربة مميتة للباشا فقد احس انه فقد كل شيء واصبحت السنوات السبع (من اتفاقية كوتاهيه حتى معاهدة لندن) من ابشع سنوات حياته السياسية واصبح لا يدرى من اين ستهب الريح على سفينته التائهة فى محيط السياسة الدولية .

كانت السنوات التالية لاتفاقية كوتاهيه فترة جمود على الجبهة العسكرية بين الباشا والسلطان او بين العملاقين روسيا وبريطانيا ولكنها من الناحية السياسية كانت فترة نشاط محموم بينها وعلى مستوى الدول الاوربية بشكل عام من اجل الوصول الى اتفاق يرضى جميع الاطراف ـ وخاصة الطرفين الرئيسيين ـ روسيا وبريطانيا ـ الا ان هذه الاخيرة لم تكن على عجلة من امرها وفضلت التربث حتى تتوافر الظروف المناسبة للعمل الحاسم وكان اهم ما يشغلها هو احتواء عنفوان المد الروسى السياسى والعسكرى الذى حقق منذ اعتلاء القيصر نيقولا Nicolas الاول العرش سنة ١٨٢٥ نجاحات واسعة لم تكن معاهدة Unkiar Skelessi الا احدى معالمه الرئيسية ، كما نجح الروس فى تعزيز هذه الاتفاقية اثر اجتماع القيصر الروسى والامبراطور النمساوى Munchengrats Francis II فى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٣٣ حيث اصدرا اعلانا تعهدا فيه بمساعدة الدولة العثمانية للمحافظة على وحدتها وبالحيلوله دون كل محاولة تهدف الى تقسيمها[1] كما ان المستشار النمساوى مترنيخ عند تأزم الموقف بين روسيا من جهة وبريطانيا وفرنسا من جهة اخرى اثر توقيع اتفاقية Unkiar Skel essi القى باللائمة فى توتر الموقف على تلك الدولتين الاخيرتين[2] وهذا فى حد ذاته نجاح كبير للدبلوماسية الروسية لما يتمتع به المستشار النمساوى من وزن فى الاوساط السياسية الاوربية ، وحتى فى الشرق استطاعت الدبلوماسية الروسية كسب نفوذ كبير فى بلاط الشاه الايرانى وشجعته على الهجوم على قلعة Herat سنة ١٨٣٧ التى تعتبر احدى الطرق الهامة المؤدية الى الهند .[3]

وعلى الجانب الآخر كانت الدبلوماسية البريطانية تعمل جاهدة ولكن بهدوء ورصانة لاحتواء هذا النشاط متجنبة المجابهة المباشرة فعلى الرغم من توقيع اتفاقية Unkiar Skelss

---

(١) Anderson, Ed., Great Powers and the Near East, P. 44

(٢) اميل خورى وعادل اسماعيل ، نفسه ، ص ١٣٤

(٣) Anderson, the Eastern Question P. 41

بين روسيا والدولة العثمانية والتى اصبحت بموجبها هذه الاخيرة تحت مظلة النفوذ الروسى فان بريطانيا لم تحجم عن تقديم المساعدات العسكرية لجيش السلطان لاعداده وتدريبه وكان السلطان من جانبه يتوق لايجاد اى تعاون مع الانجليز الا ان الحذر والتمنع دائما يأتى من قبلهم نظرا لتعقيدات سياستهم تجاه المسألة الشرقية وجوانبها المتعددة على المستوى الاوربى والاسيوى بصفة خاصة . ودخلت العلاقات العثمانية البريطانية طورا جديدا ويكاد يكون حاسماً سنة ١٨٣٨ اثر توقيع اتفاقية تجارية بين الجانبين فى ١٦ اغسطس من ذلك العام نالت بريطانيا بموجبها امتيازات واسعة حيث اصبح له حرية التجارة فى جميع انحاء الامبراطورية العثمانية بما فيها مصر وسوريا وحرم الاحتكار فى الامبراطورية وحددت الرسوم الجمركية على البضائع البريطانية الواردة الى الاراضى العثمانية بنسبة ٣ ٪ من ثمنها و ٩ ٪ عند بيعها فى الداخل كما اعطت هذه الاتفاقية للبريطانيين حق التملك فى جميع الامبراطورية وتكفلت بحماية اشخاصهم وممتلكاتهم(١) . كانت هذه الاتفاقية على جانب كبير من الاهمية متعددة الاهداف والنتائج ، فبالاضافة الى مايترتب عليها من مكاسب تجارية هائلة حيث تضاعفت الواردات البريطانية لميناء استانبول وحده خلال اقل من العقدين القادمين عشرة اضعاف ماكانت عليه قبلها .(٢) كما كانت هذه الاتفاقية اشارة واضحة للروس بأنه ليس من حقهم وبالتالى لن يكون فى امكانهم الاستمرار فى الهيمنة على الدولة العثمانية والتمتع بامتيازات لا يتمتع بها الآخرون . ومن زاوية اخرى كانت تلك الاتفاقية ضربة موجهة وموجعة لمحمد على ونظامه الاحتكارى وبرغم ذلك لم يكن فى وسع الباشا وهو فى موقف الحيرة والضياع الا القبول بالأمر الواقع وابداء الاستعداد لتطبيقها فى المناطق الواقعة تحت سيطرته(٣) ونتائج هذه الاتفاقية ليست اقتصادية تجارية فحسب بل ربما ان مضامينها السياسية ابعد اثرا واشد خطورة من ذلك فهى خطوة ايجابية من قبل بريطانيا لاضعاف الباشا تمهيدا لضربه وتحديدا صريحا لموقفها النهائى من الازمة ، وانها لن تقبل اى مساومة فيا يتعلق بمسألة تقسيم الامبراطورية واحلام محمد على فى الانفصال والاستقلال . وإمعانا فى احكام الحصار السياسى ضد الباشا تجنبت بريطانيا حتى مخاطبته مباشرة عند ماقام بتحريك قواته فى الجزيرة العربية نحو الخليج واليمن فى محاولة لجس نبض بريطانيا فى العام الماضى (سنة ١٨٣٧) على امل

---

(١) Seton Watson, op.cit., P. 306 وانظر نص هذه الاتفاقية فى الملحق الثانى لهذا الكتاب

(٢) Anderson op.cit., P 93

(٣) Ibid, P. 93

تحريك الموقف الذى تعمدت بريطانيا تجميده والدخول معها فى حوار يخرجه من مأزقه الا انها تجاهلته تماما وطلب Palmerston من الباب العالى اصدار امر صريح لمحمد على بأن بريطانيا لا توافق مطلقا على المساس بسيادة السلطان على تلك المناطق[١] . وبرغم ان السلطان - كما هو واضح وجلى - فى هذه الفترة لا يملك اى تأثير على الباشا الا ان هذا الأخير استجاب للأمر - او الانذار فعندما طلب قائده خورشيد باشا ارسال سفينتين حربيتين لانزالهما فى مياه الخليج كان جواب الباشا : ان هناك « محظورات » تحول دون ذلك ، مما ادهش خورشيد وجعله يتساءل عن ماهية هذه المحظورات ، فجاء الجواب صريحا « ان الانجليز لا يقرون ارسال أية سفينة مصرية لا الى خليج البصرة ولا الى الخليج العربى »[٢]

كان محمد على منذ بروزه على المسرح السياسى يحاول جاهدا اظهار نفسه امام الغربيين بصفة عامة والانجليز بصفة خاصة بمظهر المصلح المستنير وسط شعوب من الجهلة والاغبياء[٣] وانه رسول الحضارة الغربية لنشر لواء التقدم والازدهار عن طريق بعثاته التعليمية لأوربا ومحاباة الجاليات الاوربية[٤] فى المنطقة والتقليد الاعمى لكل ماهو اوربى سواء فى السلوك الشخصى او فى المسارعة فى الأخذ بنصائح وآراء المستشارين والمغامرين الاوربيين فيما يتعلق بتأسيس المشاريع الصناعية والاقتصادية دون دراسة جدية بمتطلباتها الاساسية ونتائجها الواقعية ، وقد اكسبته هذه السياسة واكسبت مصر ايضا - مع ماالحقته من اضرار بليغة مدمرة بمصر نفسها وبالمنطقة - رأيا عاما اوربيا مناصرا ، وقد اشار Palmerstor الى هذه الناحية فى حديث له مع السفير الفرنسى مارس سنة ١٨٣٩ حيث يقول « وفى بريطانيا كما فى فرنسا ناس يريدون ان تتسع وتمتد قوة القطر المصرى ، والحكومة البريطانية لا ترى هذا الرأى وان وجوده يكون عقبة من العقبات الكثيرة فى طريق سياستها الشرقية » .[٥]

---

(١) Dodwell op., cit., P 134

(٢) عسه ، احمد ، معجزة فوق الرمال ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٣٥

(٣) Dodwell op.cit., P 195

(٤) يدفع الاوربيون فى مصر ٣ ٪ بينما يدفع المسلمون ٤ ٪ ، شكرى وآخرون ، نفسه ص ٣٨٠ .

(٥) اميل خورى ، وعادل اسماعيل ، نفسه ، ص ١٤٥

وكان على الحكومة البريطانية لتجنب المعارضة البرلمانية وسخط الرأى العام البريطانى اذ أقدمت على تنفيذ مخططها بتصفية الباشا او تحجيمه ان تدمر هذه الصورة وتخلع كل اردية التقدم والتحضر الزائفة التى يتستر تحتها الباشا واظهاره بمظهر ـ او على حقيقته ـ الطاغية « الذى تقوم سياسته على الحرب والفتح والنهب والغنيمة والاضطهاد والاحتكار » ـ كما يرى ذلك القنصل البريطانى Campbell فى مصر[1] . فأثارت موضوع الرق والممارسات اللاانسانية التى تقوم سلطات الباشا بها فى افريقيا فكتب Campbell فى اول ديسمبر سنة ١٨٣٨ الى Palmerston« ولى الشرف ان ابلغ فخامتكم اننى لم اكد أعلم بأن جنود الباشا فى قلب افريقية ، اى فى بلاد النوبة ودنقله وما اليها يستخدمون فى جمع العبيد وان اجورهم تدفع من الايراد الناتج عن بيع هؤلاء العبيد حتى رأيت الواجب يتقاضانى ان اسارع الى عرض الامر على الجانب العالى بصفة جديه ...»[2] نعم هكذا استيقظ الضمير البريطانى وتحركت المشاعر الانسانية بعد تجاهل تام لما يزيد عن ربع قرن لفظائع الباشا وجنوده فى السودان وافريقيا والجدير بالملاحظة ان الوزير البريطانى Palmerston قد احاط السفير الفرنسى فى لندن بمضمون خطاب Campbell[3] لأن هذه الرسالة قد اشارت الى ان الفرنسيين المقيمين فى مصر يمارسون تجارة الرقيق فى شرق افريقيا وكأنه بذلك يتهم ضمنا حكومة فرنسا بالضلوع مع الباشا فى هذا العمل المشين ، فخير لها الابتعاد عنه . واهم من هذا ان الحكومة البريطانية بعثت الى مصر بأحد اعضائها البرلمانيين البارزين لدراسة الأوضاع فى مصر وتقديم تقرير شامل عنها وكان هذا العضو هو الدكتور Bowring. وبعث عضو برلمانى للقيام بهذه المهمة واضح الدلالة والمغزى فتقريره خاصة من ناحية تقويم انجازات محمد على وشخصه يهدف الى الجام اى معارضة سياسية داخل البرلمان لسياسة الحكومة تجاه الباشا وقد وصل Bowring الى مصر سنة ١٨٣٧ وظل فيها حتى شهر مارس سنة ١٨٣٨ وأعد تقريرا شاملا على جانب كبير من الاهمية وقدمه الى حكومته فى شهر مارس من العام التالى (١٨٣٩) بعنوان Report on Egypt and Crete[4] والمغزى السياسى

---

(١) Dodwell, op., cit p. 163

(٢) شكرى ، محمد فؤاد وآخرون ، نفسه ، ص ٥٧٩

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٨٣

(٤) لأهمية هذا التقرير يجد القارىء مقتطفات منه فى ملحق هذا الكتاب

لإعداد هذا التقرير وعرضه على البرلمان بالاضافة طبعا الى الجوانب الجدية فيه مثل حالة مصر وامكانياتها الاقتصادية واهميتها الاستراتيجية واحوال سكانها .. الخ ، هو تصوير محمد على بالحاكم الطاغية المستبد الذى انهك شعبه بالسخرة والضرائب الباهظة والتجنيد الاجبارى والاساليب اللاانسانية فى سبيل تحقيق طموحات شخصية نتج عنها الحرب والدمار للشعوب التى يحكمها واقلاق وتهديد للسلام الاوربى . سواء كان هذا صحيحا او غير صحيح فبريطانيا كانت على معرفة كاملة بنوع حكم محمد على وممارساته طوال السنوات الطويلة الماضية بل والحق يقال ان مظالم محمد على لشعب مصر بدأ يخف نيرها تدريجيا بحكم طول فترة الاستقرار السياسى الذى صحب حكمه . وهكذا لم تأت نهاية العقد الرابع من ذلك القرن الا واصبح محمد على فى الحقيقة والواقع قد انتهى سياسيا وشل تماما عن القيام بأى تحرك ايجابى يخرجه من الطريق المسدود الذى هو نفسه المسئول الاول عن الوصول اليه .

كان بإمكان بريطانيا القيام بتسوية منفردة للأزمة ، فليس محمد على بقادر ولا حتى براغب فى مواجهتها عسكريا ولكنها تجنبت ذلك لتحقيق عدد من الأهداف دفعة واحدة بإشراك جميع الاطراف المعنية ، وهذه الاهداف التى تريد بريطانيا تحقيقها يمكن تلخيصها فيما يلى :

اولا : ابطال معاهدة Unkiar Skel essi بين الدولة العثمانية وروسيا عن طريق إشراك هذه الأخيرة فى التسوية الشاملة .

ثانيا : القضاء على النفوذ الفرنسى الذى أخذ يزداد فى مصر بعد اتفاقية كوتاهية وذلك عن طريق اشراك فرنسا فى التسوية او عزلها عن المجموعة الاوربية وبالتالى تحجيم نفوذها لافى مصر وحدها وانما فى التسوية الاوربية والمسألة الشرقية ككل .

ثالثا : تحطيم قوة محمد على العسكرية فهى ، وكما قلنا اكثر من مرة لا تريد ان تقوم فى مصر حكومة قوية تسبب لها المتاعب وتهدد مصالحها بالخطر فى المستقبل[1] ، ولكنها لا تريد ان تتحمل مسئولية ذلك تاريخيا فتصبح سابقة يمكن لدولة اخرى القيام بمثلها فى ظروف

---

(١) عندما زار القيصر الروسى لندن سنة ١٨٤٤ اكد له رئيس الوزارة البريطانية Sir Robert Peel انه بحكم وجود مصالح حيوية لبريطانيا فى مصر فانها لا توافق مطلقا على وجود حكومة قوية فيها SetonWatson, op.cit. P.310

مشابهة ، ومن ناحية اخرى فان قيامها منفردة بعمل عسكرى ضد محمد على سيعقد الازمة بدلا من حلها ، وسيطرح موضوع تقسيم الامبراطورية العثمانية على بساط البحث وهو ماتحاول بريطانيا تجنبه بأى حال .

نجحت الدبلوماسية البريطانية فى استثمار المواقف المتطرفة التى دأبت فرنسا على اتخاذها ضد روسيا سواء فى البلاط العثمانى او فى مساندة القوى الثورية فى بولندا وفى روسيا نفسها ، كما تجنبت القيام بأى عمل استفزازى ضد روسيا فيما يتعلق بالدولة العثمانية فرفضت الاستجابة لمحاولات السلطان عقد اتفاقية عسكرية بعد الاتفاقية التجارية لسنة ١٨٣٨[١] ، الا ان هذا لم يحل دون تدهور العلاقات بين الجانبين الروسى والبريطانى خاصة بسبب الحرب الفارسية ـ الافغانية فى هرات Herat[٢] فعقد اجتماع قمة بين القيصر الروسى والامبراطور النمساوى فى Teplits فى شهر يوليو سنة ١٨٣٨ اكدت الدولتان فيه معارضتهما لسياسة الباشا التوسعية وامكانية تطبيق معاهدة Unkiar Skel essi ، كما رفضت روسيا اقتراحا بريطانيا قدمه Palmerston مرتين فى صيف سنة ١٨٣٨ بعقد مؤتمر دولى لحل النزاع بين الباشا والسلطان[٣] .

الا انه فى العام التالى (١٨٣٩) دخلت الازمة طورها الحاسم حيث ادرك السلطان ان الظرف الدولى اصبح مناسبا وفى صالحه خاصة كما قلنا بعد الاتفاقية التجارية مع بريطانيا فى العام الماضى وموقفها الودى تجاهه والذى عبرت عنه بالمساعدات العسكرية والتدريبية لاعداد جيشه للجولة القادمة ، كما ان محمد على ادرك خطورة الوضع ولكنه كان عاجزا عن القيام بأى تحرك سياسى فلم يكن امامه الا الاستعداد للمجابهة وتقوية استعداداته العسكرية . وعلى الرغم من انتصار جيشه الحاسم على الجيش العثمانى فى نصيبين فى ٢٤ يونيو سنة ١٨٣٩ ، ووفاة السلطان محمود الثانى فى مطلع الشهر التالى وتسليم الاسطول العثمانى للباشا الا انه مع ذلك كله لم يكن قادرا على استثمار هذا النصر او حتى تثبيت مكتسباته العسكرية بسبب عزلته السياسية فطلبت منه بريطانيا وفرنسا سحب قواته فورا من آسيا الصغرى وهددتا

---

(١) Ibid P. 307

(٢) Ibid p. 306, cf. Mosely, Philip.E., Russian Diplomacy and the opening of the Eastern Question, in 18381839, Harvard University press, P. 96.

(٣) SetonWatson, op.cit. P. 306.

بحصار الاسكندرية[١] . وكان يبدو ـ ظاهريا ـ ان الامور مواتية لحل النزاع بين السلطان والباشا فى مفاوضات مباشرة خاصة بعد وفاة السلطان محمود الثانى ، ولكن ذلك فى الحقيقة كان امرا بعيد الاحتمال فالسلطان ووزراؤه ليست لديهم أية ثقة فى الباشا ولا يستبعدون ان يكون على اتفاق مع الدول « اذا كان قد اعطاها مايرضيها من الضمانات بأن يحترم مالها من مصالح »[٢] ولم تكن هذه الشكوك فى غير محلها ، فالباشا لم يكن ليتردد عن اعطاء أيه دولة تشاء من الامتيازات اذا كان ذلك سيحقق طموحاته واطماعه ، وعلاوة على ذلك فان الدول المعنية وعلى رأسها بريطانيا لم تكن لتسمح بقيام اتفاق بين الباشا والسلطان ، وقد نجحت هذه الاخيرة (بريطانيا) فى استصدار مذكرة موجهة للباب العالى من الدول الخمس (بريطانيا وروسيا وفرنسا والنمسا وبروسيا) فى ٢٧ يونيو سنة ١٨٣٩ قدمها سفراء هذه الدول تقول « الموقعون ادناه تسلموا هذا الصباح تعليمات حكوماتهم بأن يتشرفوا بابلاغ الباب العالى ان الدول الكبرى الخمس قد توصلت الى اتفاق بشأن شئون الشرق ويطلبون تأجيل اى حل بدون موافقتهم وان ينتظر نتيجة اهتمامهم بمصالحه التى تدركها الدول ».[٣]

كانت هذه المذكرة نصرا كبيرا للدبلوماسية البريطانية تجاه هذه الأزمة فحتى فرنسا التى طالما حاولت الوقوف الى جانب الباشا وقعت فى شرك السياسة البريطانية[٤] .

اما روسيا ـ وهى الطرف الرئيسى الثانى فى الأزمة ـ فقد طرأ على سياستها تحول جديد خلال ذلك العام فهى قد اصبحت فى شبه عزلة سياسية فلم يكن يمثلها فى كل من لندن وباريس وفينا فى فترة من ذلك العام (١٨٣٩) الا قائمين بالأعمال بدلا من السفراء[٥] كما ان الاوضاع الاقتصادية بل والعائلية بالنسبة للقيصر كانت فى وضع سيء[٦] بالاضافة الى انشغال قواته على الحدود الفارسية وبقمع ثورات الكرج والشراكسة فى القوقاز[٧] . كل هذه العوامل جعلت القيصر الروسى يدرك انه غير قادر على تطبيق معاهدة Unkiar Skel essi فيما

---

(١) Dodwell op.cit. P. 121.

(٢) اميل خورى وعادل اسماعيل نفسه ، ص ١٦٧

(٣) Anderson, The Great powers and the Near East, P. 46

(٤) تنكرت فرنسا لهذه المذكرة فيما بعد ولكن ذلك لم يؤثر على مفعولها .

(٥) Anderson, the Eastern Question P. 98

(٦) Ibid.

(٧) اميل خورى وعادل اسماعيل ، نفسه ص ١٣٤ ـ ١٣٥

لو طلب منه السلطان العثمانى ذلك ، واكثر من هذا فقد ادرك القيصر بعد تجربه السنوات الست الماضية ، منذ توقيع تلك الاتفاقية ، ان روسيا وبريطانيا لا تستطيع اي منهما منفردة السيطرة على الدولة العثمانية[٥] وقد اشار الى ذلك بوضوح الرئيس الروسى Nesselrode فى تقريرين رفعهما للقيصر فى شهر اغسطس سنة ١٨٣٩[٦] لهذا اخذت روسيا تعمل فى سبيل التقارب مع بريطانيا للتفاهم على حل الازمة فأوعزت الى قائد قواتها على الجبهة الايرانية الجنرال بروفسكى ان يتوقف عن القيام بأى عمل عسكرى يثير بريطانيا[٧] ، كما قام القيصر ببعث مندوب خاص هو Baron Brunnov الى لندن بعروض سخية تتضمن عدم اصرار روسيا على تجديد معاهدة Unkiar عند انتهائها سنة ١٨٤١[١] واعادة النظر فى المضائق ، بل واكثر من هذا كانت التعليمات المعطاة للمندوب الروسى تقضى بأنه اذا وجد استعدادا حسنا لدى Palmerston للتفاهم فيقترح عليه « اعتراف روسيا لبريطانيا بالحرية المطلقة فى كل ماتريد القيام به على سواحل سوريا ومصر » .[٢]

واصبحت العقبة الرئيسية فى سبيل التسوية هى فرنسا التى لم يكن لها فى الحقيقة استراتيجية محددة ، فهى تتخبط فى مواقفها فتارة هى النصير الوحيد للباشا ، مع عجزها ان تكون نصيرا مفيدا ، وتارة تقف مع بريطانيا باعتبارها دولة غربية ، وفى جميع الاحوال جعلت من نفسها المتصدى الاول للخطر الروسى . وقد حاولت بريطانيا اقناعها بأن الروس جادون فى التسوية ، ففى حديث ـ سبقت الاشارة اليه بين Palmerston والسفير الفرنسى فى لندن فى ١٤ مارس سنة ١٨٤٠ يقول الأول : « ... ولكننى اؤكد انها (اى روسيا) تريد الخروج من المركز الحرج الذى وضعت فيه نفسها فى الشرق ، فمعاهدة Unkiar Skel essi اصبحت ثقيلة عليها ، واذا وقعت اضطرابات فى تركيا او اذا هددت الجيوش المصرية عاصمة السلطنة فاضطر الباب العالى الى طلب المساعدة الروسية عملا بأحكام هذه المعاهدة ، فان القيصر الروسى مصمم على استجابة الطلب لأنه يشعر بأن الشرف يقضى عليه بذلك ، ولكنه لن

---

(١) Seton Watson, op.cit. P. 307; Cf. Anderson, The Great powers, P. 45.

(٢) Anderson, The Eastern Question P. 98.

(٣) اميل خورى وعادل اسماعيل ، نفسه ص ١٥٧ .

(٤) Anderson, op.cit P. 89.

(٥) اميل خورى وعادل اسماعيل ، نفسه ص ١٨٥

يفعل عن طيب خاطر لعلمه بأننا ، اى انتم ونحن ، غير مستعدين لإطلاق يده فى الامر وهو لا يريد ان ينازلنا ، ولهذا تراه يبحث عن موقف اوفر سلامة او اقل خطـرا ، ومصلحتنـا ومصلحتكم ومصلحة اوربا تقضى بأن نسهل عليه الأمر[١] ».

ولكن فرنسا لا تريد تسهيل الامر لانها تدرك جيدا انها ايضا من الخاسرين فى أى تسوية تتم فى الظروف الراهنة ، وان بريطانيا ستنفرد بالغنيمة مبدية الكثير من المكر والخداع والتظاهر بالصداقة معها ، ومستغلة ايضا هذه الصداقة المزعومة . وقد وضع السفير الفرنسى فى اسطنبول الاميرال Admiral Roussin النقط فوق الحروف فى هذا الموضوع فى رسالة الى رئيسه سولت رئيس وزراء فرنسا فى يوليو سنة ١٨٣٩ حينما قال : « اتمنى ألا يحدثنى احد بعد اليوم عن تحالفنا مع البريطانيين ، لانى لم اعثر بعد على من يثق فى هذا التحالف ، وانا شخصيا ابعد الناس عن الايمان به واخشى اذا تحدثنا عنه هنا ان نصبح موضوعا للضحك والتندر ».[٢]

حقا ان تشبث فرنسا بالصداقة مع بريطانيا من جهة واظهار نفسها بالمدافع الحقيقى عن الباشا من جهة اخرى هو موضوع دسم للسخرية والتندر . الا ان الدبلوماسية البريطانية لم تكن بعاجزة عن تطويق هذا التصلب الفرنسى ، فقد استطاع Palmerston سحب البساط من تحت قدميها وتركها عارية عاجزة تعيش على اوهام ان اوربا لن تقدم على شىء خطير فيما يخص المسألة الشرقية دونها ! وحتى السفير الفرنسى فى لندن ادرك خطل تصلب حكومته ولا واقعيتها فهو يقول « انى ارى العالم على قدمى بريطانيا يبدى استعداده لعمل ماتشاء ، اما نحن الذين ندعى صداقتها الخالصة فاننا نقول لها لا »[٣] وفى هذا الاطار ، اطار تطويق التصلب الفرنسى وتليينه او احباطه اوعز Palmerston الى قائدى حامية مالطة وجبل طارق بامداد المجاهد عبد القادر الجزائرى بالذخيرة لمواصلة الثورة ضد فرنسا[٤] . واحتياطا من اى مغامرة تقوم بها فرنسا ، اما مدفوعة بتحرج موقفها السياسى فى اوربا او بأحلامها فى العودة

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٠٨

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٥

(٤) المصدر السابق ، ص ١٥٦

الى مصر ـ مع استبعاد ذلك فى الظروف الراهنة ـ ولأسباب استراتيجيه اخرى تتعلق باحكام القبضة على المعابر المائية المؤدية الى الهند قامت سنة ١٨٣٩ باحتلال ميناء عدن الهام .

وفى الداخل على الساحة السورية ، تحرج موقف الباشا بتجدد الثورات والاضطرابات وشكل اللبنانيون جيشا اطلقوا عليه (جيش الخلاص) وأعلنوا الثورة فى مايو سنة ١٨٤٠ . وبالرغم من ان اصابع الاتهام تشير الى بريطانيا فى تشجيع التمرد والعصيان الا انه من غير شك ان المظالم التى اوقعها الباشا بالشعب السورى هى المحرك الرئيسى الاول المؤجج للثورة ، فقد أنهكوا بالضرائب الباهظة التى تضاعفت فى عهده اكثر من ثلاث مرات عنها تحت حكم العثمانيين .(١)

وهكذا اصبح الباشا فى وضع مترد للغاية ، فقام بمحاولة اخيرة تنم عن يأس كامل للتفاوض مع السلطان مباشرة ، مع انه يدرك بعدم جدوى ذلك ، فبعث فى ١٦ يونيو سنة ١٨٤٠ بمندوب للباب العالى عارضا خضوعه للسلطان محملا رسوله هديه مقدارها ٤٠٠ الف قرش ومبديا استعداده لإعادة الاسطول العثمانى فى اليوم الذى يريده السلطان ، ولا يطلب مقابل ذلك سوى منحه حكم مصر وسوريا وراتبا مقابل خراج يحدده السلطان .(٢)

الا ان الامر قد تمت تسويته هناك فى لندن حيث قدم Palmerston مشروع اتفاقية للسفير الروسى فى ١٩ يناير من هذا العام كانت اساسا للمفاوضات التى انتهت بتوقيع اتفاقية لندن الشهيرة فى ١٥ يوليو ١٨٤٠(٣) بين كل من بريطانيا وروسيا ومعهما النمسا وبروسيا . وكانت هذه الاتفاقية تقضى بمنح محمد على باشوية مصر وراثيا وعكا مدى حياته فقط ، فاذا مضت عشرة ايام ولم يقبل الباشا هذا العرض فقد حقه فى حكم عكا ، فاذا مضت عشرة ايام اخرى يعطى مهلة عشرة ايام اخرى لحكم مصر وراثيا فاذا انتهت تلك المدة بدون ان يعلن قبوله لذلك سقط حقة تماما حتى فى حكم مصر نفسها .

والحق ان الظروف التى تمت فيها هذه التسوية والطريقة التى تم بها تقديم تلك الشروط لم تكن لتسمح للباشا بالقبول الفورى ، وكان هذا مقصودا فى حد ذاته ، فإن بريطانيا

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٢١

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٥

(٣) انظر نص الاتفاقية فى الملحق الثانى لهذا الكتاب

لا تريد ان تبقى سوريا ، او حتى جزء منها مرتبط بمصر حتى ولو للفترة المتبقية من عمر الباشا المسن .

وبعد نفاذ المدة المحددة تقدمت قوات الدول المشتركة فى الاتفاقية وعمودها الفقرى الاسطول البريطانى بقيادة Sir Charles Smith بضرب جيش محمد على وحصاره فى سوريا فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٤٠ .[١] حتى وافق على البديل الثانى وهو الاكتفاء بحكم مصر وراثيا وشروطه المذلة الاخرى القاضية بخضوع الباشا وخلفائه للسلطان ، وتحديد قواته البرية والبحرية .. الخ ، ووقع بوغص بك وزير خارجية محمد على مع القائد البريطانى الاميرال نابير Admiral Napier فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠ اتفاقية انسحاب قوات الباشا من سوريا .

وفى ١٣ يونيو سنة ١٨٤١ وقعت اتفاقية بين الدول الاوربية الكبرى خاصة بالمضائق ، وكانت تلك الاتفاقية نصرا حاسما للدبلوماسية البريطانية فقد نسفت تماما جميع آثار اتفاقيتى Adrianople (١٨٢٩) Unkiar Skelessi (١٨٣٣) اللتين اثارتا غيظ بريطانيا وهددتا مصالحها الحيوية فى هذه المنطقة من العالم ، وكانتا السبب الجوهرى فى نشوء هذه الازمه واستمرارها طوال عقد كامل تقريبا .

والجدير بالملاحظة ان بريطانيا لم تكن راغبة فى اسقاط الباشا نهائيا فعندما اصدر الباب العالى قرارا بعزله اثر رفضه قبول اتفاقية لندن ، قدمت بريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا مذكرة للسلطان فى ٣ يناير ١٨٤١ يطالبون فيها بالعدول عن هذا القرار[٢] ، فصدر فى ١٣ فبراير خط شريفى باقامة محمد على حاكما وراثيا فى مصر[٣] فبريطانيا ليست معادية للباشا كشخص ولا كنظام حكم ، فصفاته الشخصية ونظام حكمه تتلاءم مع متطلبات سياستها فى مصر بالذات فهو حاكم قوى يستطيع فرض الاستقرار السياسى ، كما ان نهجه السياسى المعادى للاسلام كايديولوجية سياسية ومفهوم حضارى وتعلقه بمظاهر المفاهيم الغربية فى الحكم والادارة والمؤسسات الاجتماعية والثقافية يكفل اضعاف روابط مصر بتراثها وعلاقاتها بأمتها وبالتالى يفقدها هويتها الحقيقية ويجعلها تدور فى حلقة خبيثة مفرغة تبحث عن نفسها ، فهل نجحت ؟..

---

(٢) Marlowe, op. cit.P. 46.

(٣) عمر ، نفسه ، ص ١٨٣

(٣) Anderson, op.cit.P 164; cf Morlowe, op.cit.P. 48 وانظر نص هذا الخط فى الملحق الثانى لهذا الكتاب

اسْتِخلاصٌ وَخاتِمَة

استخلاص وخاتمة

يتبين من العرض السابق لسياسة الفتح والتوسع التى انتهجها محمد على باشا فى جميع المناطق التى كانت مسرحا لهذا النشاط (الجزيرة العربية ، السودان ، اليونان وسوريا) ان الباشا كان يسير فى تلك السياسة وفق ستراتيجيتين متطابقتين فى الظاهر متناقضتين فى النهاية بحكم اختلاف الأهداف الموضوعة لكل منهما . أحدهما واضحة المعالم محددة الأهداف ، وهى ما يمكن أن نعرِّفها بأنها (الاستراتيجية السياسية لبريطانيا العظمى فى المنطقة بعد الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ ـ ١٨٠١) وتقضى بما يلى :

أولا :عدم السماح لأية قوة أوربية بالاستيلاء على مصر أو أن يكون لها نفوذ سياسى يهدد مصالحها (أى بريطانيا) فى تلك البلاد أو يعيق مواصلاتها عبرها الى الهند ..

ثانيا : المحافظة على كيان الدولة العثمانية بوضعها المتداعى ، وتعزيز النفوذ البريطانى فى تلك الامبراطورية عن طريق الوسائل التقليدية (الامتيازات والاتفاقيات التجارية كاتفاقيتى سنة ١٨٠٩ وسنة ١٨٣٨) .

ثالثا : ابقاء مصر فى اطار الدولة العثمانية وعدم السماح بانفصالها تحت اى حكم .

وكانت هذه السياسة قد بدأت تتبلور حتى قبل مجىء محمد على للحكم ففى رسالة بعث بها السفير البريطانى فى اسطنبول Drummond إلى وزارة الخارجية البريطانية بعد الجلاء الانجليزى الأول عن مصر سنة ١٨٠٣ بعد معاهدة Amiens يقول « ان استقلال المماليك فى مصر لاينسجم مطلقا مع سياستنا وأى إرتباط نريد إبقاءه مع مصر سيكون أكثر فعالية وأسهل تنفيذا عن طريق الباب العالى ... فبقاء مصر جزءا من الامبراطورية العثمانية سيجعل تعرضها لغزو اجنبى أقل احتمالا مما لو كانت مستقلة تحت حكم المماليك »(١) .

---

١ ـ Marlowe, op. cit.p. 30

وبعد أن نجح محمد على فى الاستيلاء على الحكم والقضاء على منافسيه وتم التفاهم مع الانجليز اثناء حملة Fraser سنة ١٨٠٧ واستعداده المطلق لعمل كل ما يريدون بشرط حمايته من الأعداء المحتملين الخارجيين (الاتراك والفرنسيين) وأصبح هو الحاكم المطلق فى مصر ، أصبح هناك بعدا جديدا لسياسة بريطانيا تجاه المنطقة ولكن فى إطار استراتيجيتها السياسية المرسومة ، وهذا البعد هو إمكانية تسخير إمكانيات مصر المادية وموقعها الاستراتيجى والجغرافى الممتاز واخيرا طاقتها البشرية الكثيفة لتحقيق تلك الأهداف أو الاستراتيجية ، وتمثل ذلك فى ضرب الدولة السعودية باعتبارها حركة انفصالية فى جسم الدولة العثمانية من ناحية وللخطر المباشر الذى أصبحت تمثله بالنسبة لطريق مواصلاتها ـ البحر الأحمر والخليج والطرق البرية المتفرعة من هذا الأخير من ناحية أخرى كما تمثل ذلك أيضا فى ضرب الثورة اليونانية ومن خلفها النفوذ الروسى المتعطش لمياه البحر المتوسط واخيرا تمثل ذلك فى ضرب الدولة العثمانية نفسها باحتلال سوريا وتهديد عاصمتها استانبول وذلك لانقاذ هذه الدولة من براثن الدب الروسى وعندما تحقق هذا كله بالتسوية الشاملة التى تمت وفق اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠ وأدى محمد على باشا مهمته بالكامل أعادته بريطانيا إلى حجمه الطبيعى أو إلى نقطة الصفر التى انطلق منها منذ ثلاثين عاما تقريبا . أعادته حاكما لمصر فقط تابعا للسلطان العثمانى مقيدا بشروط قاسية فى وضع اضعف بكثير مما كان عليه قبل[1] بدء رحلته الطويلة .

ثانيهما (أى ثانية الاستراتيجيتين التى قلنا أن محمد على يسير وفقهما) هى ما يمكن أن نسميه(استراتيجية محمد على نفسه فى الفتح والتوسع) وهذه التسمية فيها فى الحقيقة الكثير من التجاوز ، فنحن نشك أن محمد على كان لديه فى اية لحظة من حياته السياسية تصور متكامل للاهداف التى يسعى لتحقيقها ـ باستثناء التشبث بالحكم طبعا ـ وأنما الذى نعتقده هو أن لديه تصورا عاما لما يمكن أن يحققه ، ولكن ذلك وفق خط سياسى واضح لاغموض فيه وهذا التصور العام الغائم يقوم على المعطيات التالية :

أولا : إن الضعف قد بلغ مداه بالدولة العثمانية وإنها أصبحت على مفترق طريقين :

(ا) أما أن الأمر سيؤدى إلى انفراط عقدها وتنقسم إلى عدد من الوحدات السياسية

---

(١) Marlowe, op. cit. P. 30

المستقلة أو شبه المستقلة وفى هذه الحالة فان مصر تحت حكمه أصبحت مؤهلة لأن تأخذ نصيبها وتضم بعض المناطق (ربما الجزيرة العربية وسورية) وهذا يفسر لنا سر مطالبته باعطائه باشوية سوريا كشرط لغزو الدولة السعودية الأولى .

(ب) أو أنها ستتعرض لحركة إنبعاث جديد وفى هذه الحالة أيضا فانه هو نفسه وما يتمتع به من صفات العبقرية والدهاء (وهذا ما يعتقده فى نفسه على الأقل إلى درجة الغرور) وباستخدام إمكانيات مصر وطبيعة شعبها الانقيادى مؤهل لأن يلعب دور البطل فى حركة الانبعاث هذه .

ثانيا : إن الهيمنة البريطانية على المنطقة حقيقة قائمة وأن أى مشروع على جانب من الأهمية يتعارض مع أهداف السياسة البريطانية سيمنى بالفشل المؤكد والعكس بالعكس ..

وانطلاقا من هذا التصور فقد التزم الباشا فى سياسته التوسعية بخط واضح يقضى بالتوفيق بين طموحاته التوسعية ومتطلبات السياسة البريطانية فى الهيمنة على المنطقة والتصدى لأى خطر محلى أو خارجى يهدد أو يعرقل هذه الهيمنة . وقد رأينا ذلك واضحا فى غزوه للجزيرة العربية وفى سوريا حتى هدنة كوتاهية سنة ١٨٣٣ . أما غزو اليونان فلا نرى فى ذلك أى هدف للباشا سوى تقديم الدليل العملى على مدى نفعه للسياسة البريطانية ..

إن هذه القناعة السياسية أو الخط السياسى الذى إعتقد الباشا أن فيه يكمن السر الذى سيمكنه من تحقيق الأهداف التى يطمح إلى تحقيقها فى إقامة دولة كبرى أو أمبراطورية عظمى على أنقاض الدولة العثمانية هو فى رأينا الخطأ السياسى المميت الذى وقع فيه الباشا ويكشف عن أمية سياسية وجهل بقانون العلاقات بين الامم الذى أولى بديهياته تقول أن المصلحة والمصلحة وحدها هى حجر الأساس لأى توافق وانسجام أو تناقض وخلاف بين أى أمتين ، فأى مصلحة لبريطانيا فى أن تقوم فى الشرق دولة قوية كبرى ؟ لا بل أى مصلحة لبريطانيا فى أن تقوم فى مصر دولة قوية بالمعنى الحقيقى بمحمد على أو بدونه ؟ نحن لا نستبعد أن مثل هذا السؤال قد خطر فى ذهن الباشا مستدلين على ذلك بقوله مرة ما معناه أن له سياسة تجاه هذه الدولة (أى بريطانيا) وسيسهر على تنفيذها [1] وهذا يعنى انه يدرك ولو بشكل غامض هذه الحقيقة ولكنه يعتقد انه بعبقريته قادر على إيجاد الظروف وتوفير الأسباب

(١) انظر اغلاه ص ٦٣

التى ستمكنه فى الوقت المناسب ، وعندما يبدأ التناقض والصدام بين طموحاته ومصالح تلك الدولة ، من الوقوف على قدميه وقبول التحدى ، واذا صحت هذه الفرضية فانها تنم عن وهم خطير وقع فيه الباشا حيث تصور أنه وحده الحاكم الفرد على رأس دولة فقيرة وضعيفة شبه معدومة المؤسسات السياسية قادر على خداع دولة عظمى بكل ما تعنيه هذه الكلمة ليس فقط فى الامكانيات المادية والسياسية والعسكرية بل وأيضا القادرة على وضع الاستراتيجيات ومتابعة تنفيذها ووضع البدائل التكتيكية لتحقيق أهداف تلك الاستراتيجيات ..

ومهما كان الأمر سواء كان الباشا قد ادرك حتمية التناقض بين طموحاته ومتطلبات السياسة البريطانية ، وسواء أكان قد راهن على إمكانية تغلبه واجتيازه تلك المرحلة أو لم يكن ذلك فان الحقيقة الثابتة أن الباشا قد التزم بذلك الخط السياسى ورضى الارتباط بركب المصالح البريطانية حتى ادى دوره كاملا من زاوية تلك المصالح ثم اعيد إلى مواقعه الأولى حاكما لمصر تابعا للدولة العثمانية ..

وخطورة هذه السياسة التى انتهجها محمد على ليست محدودة فقط فى فشله فى تحقيق احلامه باقامة دولة كبرى وانما الخطورة الحقيقية تكمن فى النتائج التى ترتبت على هذه السياسة وتمخضت عن تلك الأحداث ، فان المنطقة التى كانت مسرحا لهذه السياسة شهدت تحولا خطيرا وتقهقرا مريعا إلى الأسوأ اشواطا طويلة بسبب تلك السياسة ..

فالجزيرة العربية التى كانت الضحية الأولى التى ذبحت قربانا لهذا التفاهم بين الباشا والانجليز كانت قد شهدت تطورات جديدة وجذرية تمخض عنها قيام وحدة سياسية لم تشهد الجزيرة العربية لها مثيلا منذ صدر الاسلام الأول متمثلا فى قيام الدولة السعودية الأولى عبر كفاح طويل ومرير استغرق أكثر من ستين عاما ، وكانت كل المؤشرات تؤكد انها فى سبيلها إلى توحيد اجزاء المشرق العربى من الاناضول شمالا حتى بحر العرب فى الجنوب ومن البحر الاحمر وشرق المتوسط فى الغرب إلى الخليج ونهر الفرات شرقا، دع عنك بقية الجيوب المتبقية فى اليمن وعلى شواطىء الخليج ، فقد كادت أن تصبح فى حكم المنتهى ، فتم على يد هذا التفاهم تحطيم تلك الوحدة السياسية وأريد للجزيرة العربية أن تعود إلى سابق عهدها مجموعة من الوحدات السياسية المتنافرة والعشائر والقبائل المتناحرة وقد عادت أو كادت .

وفي الخليج واليمن مكنت هذه السياسة بشكل مباشر ، وفي الحقيقة كجزء مكمل ، للاستعمار البريطاني من تثبيت اقدامه بشكل راسخ وقوى وما ترتبت على ذلك من نتائج معروفة ظلت اثارها حتى وقتنا الحاضر .

وفي الدولة العثمانية كانت هذه السياسة واحدا من أهم وأخطر العوامل التي أسهمت في اضعافها أن لم تكن هي العامل الأهم والأخطر ، فالدولة العثمانية بعد اتفاقيات لندن (١٨٤٠ ـ ١٨٤١) هي أضعف بكثير منها قبل الحرب الروسية التركية (١٨٢٨) هذه الحرب التي كانت نتيجة مباشرة لخيانة الباشا وتواطئه اثناء الأزمة اليونانية ومن ثم وقوفه في صف اعداء الامبراطورية اثناء تلك الحرب (الروسية ـ التركية) هذا من جهة ومن جهة أخرى فان السلطان المعاصر لمحمد علي ، وهو السلطان محمود الثاني كان واحدا من اقدر سلاطين بني عثمان ويقف في صف سليمان القانوني ويطمح إلى تجديد مؤسسات الدولة وبعث روح جديدة فيها وكان مستنيرا يرغب في الاستفادة من الوسائل والأنظمة الأوروبية الا أن محاولاته أحبطت نتيجة لهذه السياسة التي يسير في فلكها الباشا وخاصة في العقد الرابع من ذلك القرن ..

وحتى في مصر نفسها لم تكن انعكاسات هذه السياسة أقل خطورة وأخف ضررا فان استمرار تلك الحروب طوال ثلاثين عاما قد استنفذ موارد هذا الشعب المادية حيث وصلت نفقات الجيش في بعض الفترات كما اشرنا في حينه إلى نصف الدخل القومي بالاضافة إلى استنزاف طاقاته البشرية الشابة والزج بها في أتون تلك الحروب أو لتشغيل مصانعه التي اثبتت ـ بشهادة اصدقائه الانجليز ـ فشلها الذريع من الناحية الاقتصادية . (١)

وإذا كانت هذه هي النتائج المباشرة في المناطق التي كانت مسرحا لتلك الأحداث وعلى هذا القدر من الخطورة فان النتائج الغير مباشرة والبعيدة المدى كانت اشد خطورة وأكثر تأثيرا على ساحة المنطقة كلها وعلى الأمة العربية بشكل خاص وعلى مصر بشكل اخص ، فكما

---

(١) انظر تقرير Bowring في الملحق الأول من هذا الكتاب . وقد اشار James August St. John في كتابه

Egypt and Mohammed ali or Travels in the Valley of the Nile,

London, 1834, vol.2.P.P. 433-460.

الذي يذكر انه قابل الباشا اثناء زيارته لمصر ان من اسباب فشل المصانع التي انشأها محمد علي هو جهله كما يشير هذا المؤلف إلى إن الباشا كان مكروها من قبل معاصريه المصريين ..

قلنا فى مستهل هذا الكتاب أن المنطقة كانت فى مستهل ذلك القرن على أبواب مرحلة جديدة وانطلاقة جديدة نحو افاق جديدة ولكن على اسس ومنطلقات حضارية عريقة وكانت ابرز مؤشرات هذه المرحلة هى قيام الدولة السعودية الأولى وحتمية تشبعها بروح العصر والاستفادة من منجزاته الحضارية فيما لو اتيحت لها فرصة من الزمن كافية ، وكذلك بروز محاولات جادة لاصلاح الدولة العثمانية ابرز تعبيراتها هو السلطان العظيم محمود الثانى نفسه الذى تعبر محاولاته عن ادراك عميق لأسباب ضعف هذه الدولة ، يضاف إلى هذا وذاك هو عودة المنطقة إلى دائرة الضوء كمركز اهتمام عالمى بحكم موقعها الاستراتيجى والجغرافى كحلقة وصل هامة بين الشرق والمغرب . كل هذه المؤشرات والمبشرات احبطت كنتيجة مباشرة لسياسة التفاهم هذه والتى جند محمد على نفسه وسخر امكانيات شعبه لتحقيق اهدافها ، وتحولت عوامل القوة إلى عوامل ضعف ومصادر للخطر ، فأصبحت أهمية المنطقة فى ذاتها كمعابر رئيسية للتجارة والمواصلات الدولية وسيلة لتمزيقها واذلال واستعباد شعوبها ، فباسم المدينة ونشر الحضارة التى رفع لواءها الباشا اغرقت المنطقة بالمفاهيم السلبية للحضارة الغربية فى الفكر والاجتماع والسياسة فى محاولة خبيثة لاجتثاث جذورها الحضارية وافقادها هويتها الحقيقية فأصبحت كطبل أجوف فى عرضة التيارات العاصفة القادمة من كل صوب ، وأصبحت هذه الأمة كشخص معتوه فقد نعمة العقل وحاسة الادراك السليم يستجيب لكل ناعق ، لا يدرى أين يولى شطره ، فتفشت الأمراض والاوبئة الفكرية والايديولوجية والمفاهيم الضيقة للوطنية والقومية والدينية وبثت روح الطائفية فى الجماعات غير الاسلامية ومحاولات سلخها عن جسم الأمة واستعدائها عليها فأصبحت الأمة شيعا واحزابا يلعن بعضها بعضا .

فى بداية ذلك القرن (التاسع عشر) لم تكن المسافة الحضارية بين هذه المنطقة وأوربا شاسعة بعيدة الشقة (كما هى اليوم) وكانت كل الاحتمالات والمؤشرات توحى بإمكانية اللحاق بها ومن ثم انبثاق حضارة انسانية متكاملة تسعد الانسان كل انسان فى اى مكان الا ان الذى حدث لم يكن فقط تدميرا واضعافا للوحدات السياسية وانما كان تدميرا لمقاومات أمة واسس حضارة مما ترتبت عليه شلل كامل عن التقدم الحقيقى إلى الإمام على احسن

احتمال أن لم يكن تقهقر إلى الوراء بينا واصلت اوربا مسيرتها إلى الامام بسرعة أكبر وأكبر حتى أصبحت فرضية اللحاق بها موضع شك على الأقل .

والذى حدث لم يكن حتمية تاريخية لا مفر من حدوثه فان بريطانيا (وهى المسئولة الأولى عن تلك الجريمة) لم تكن بقادرة على تحقيق الأهداف التى تم تحقيقها وفق هذا التفاهم مع الباشا بشكل سافر ومباشر ، فهى لن تستطيع القضاء على الدولة السعودية الأولى على الأقل بالشكل الحاسم الذى تم للأسباب التى اوضحناها سابقا ، ولم تكن بقادرة على لعب الدور الذى لعبته سواء فى اليونان أو فى سوريا مع الدولة العثمانية بالشكل الذى تم ، ومعنى هذا أن إمكانية تطور الأحداث بشكل يختلف عن الذى تم فعلا إمكانية واردة جدا وبالتأكيد لن يكون فى مستواه ضررا وضراوة .

من هذا يتبين لنا مدى عظم الجريمة التى ارتكبها محمد على باشا فى حق هذه الأمة ـ بما فيها مصر ـ فهو ليس مجرما سياسيا فقط لأساليبه البشعة التى ارتكبها كتصفية خصومه السياسيين فى مصر ابان توطيد حكمه وعمالته لأعداء الأمة وليس أيضا مجرما للصوصيته وسرقته أموال الشعب المصرى والشعوب التى حكمها عن طريق نظام الاحتكار الذى فرضه وجعل أموال الأمة ملكه الخاص ، وليس أيضا مجرم حرب فقط للدماء الغزيرة التى سفكها فى الجزيرة العربية وسوريا فى سبيل قضية خيانية ، انه مجرم لذلك كله .. أنها جريمة حضارية قل أن نجد فى التاريخ شبيها لها ، وقد تهون عندها من بعض الجوانب جريمة هولاكو .

وفى سبيل ماذا ؟ فى سبيل بناء مجد شخصى ولإشباع شهوة الحكم والتسلط لارضاء مرض جنون العظمة المسيطر على عقل هذا الرجل [1] ، امانهاية حياته السياسية فلا تخلو من بعض

---

١ ـ مما يلقى بعض الضوء على هذا الجانب من شخصية الباشا الحادثه التالية « ... اظهر الباشا فى ربيع العام التالى سنة ١٨٤٦ رغبته فى زيارة أوربا ومشاهدة باريس ولكنه كما اخبر القنصل الفرنسى Parrot كان يريد قبل ذلك زيارة الاستانة « لان السلطان ـ كما قال الباشا ـ كان يحمل على كتفيه معطفا موشى حول الرقبة باحجار الماس النفيسة وهو وحده فى جميع انحاء الامبراطورية العثمانية صاحب الحق فى ارتداء هذا المعطف غير ان السلطان صنع لى معطفا كمعطفه ، وصحيح ان ارتداء هذا المعطف لن يجعل منى ملكا ، ولكن عند ما ارتديته سأكون فى مرتبة الملوك .

وليس بين ظاهر الامور والحقيقة التى تثير معارضة الدول الاوربية سوى خطوة يسيرة » شكرى فؤاد ، محمد واخرون ص ٢٠٤ .

الدلالة فبعد الضياع والحيرة السياسية التى عايشها طوال سبع سنوات ومنذ هدنة كوتاهية تلقى لطمة قاضية باتفاقية لندن ولم يشفع له فى البقاء كحاكم لمصر فقط وفق الشروط المذلة التى وافق عليها اخيرا الا رغبة بريطانيا فى استمرار خلفائه فى تأدية دور شبيه بالدور الذى لعبه ولكن بحجم ومظاهر أقل فى بقية المناطق التى ظلت مرتبطة بعرشه وعرش خلفائه فى السودان والصومال ، سخرت فيها إمكانيات وموارد الشعب المصرى لخدمة مصالح تلك الدولة (بريطانيا) تحت مسميات زائفة . واخيرا أصيب بالخبال والجنون ومات ذليلا وكان قد بدأ عميلا .

المُلحق الأَوَّل

مقتطفات من تقرير[1]
الدكتور بورنج Bowring
عضو مجلس العموم البريطاني الذي قدمه لحكومته سنة ١٨٣٩

التجنيد :

وقد نشطت حركة التجنيد فى هذا العام نشاطا عظيما ، ونقص عدد الذكور مرة ثانية نقصا كبيراً ، وأخذ الناس يلجأون من جديد إلى تشويه ابدانهم حماية لانفسهم من الالتحاق « بالنظام » بعد أن بطل ذلك بضع سنوات . والتجنيد كما ينفذ بالطريقة المختلفة التى جرى عليها العمل حتى الآن ، والتى اعتقد انها فى سبيل الاصلاح ، ينتزع من الأيدى العاملة عددا عظيما من الرجال ، يفوق إلى حد كبير ما تتطلبه خدمة الجيش . فكثيرون هم الذين يهجرون أراضيهم ، وكثيرون هم الذين يبترون اعضاء من اطرافهم هربا من التجنيد ، اما من يجمعون قسرا فيزيد عددهم زيادة كبيرة على العدد المطلوب . وكان من اثر ذلك أن تعطلت اعمال الزراعة ، وشاعت بين الموظفين الرشوة ومراعاة الخواطر ، وهى مساوىء شنعاء ، فعلى الفلاح ، اذا كان ايسر حالا من جيرانه ، ان يفدى بالمال نفسه المرة تلو الأخرى ..

أثر التجنيد :

لاشك فى أن إستنزاف موارد الرجال فى مصر لتجنيدهم قد أثر فى قوى البلاد الانتاجية تأثيرا كبيرا ، ذلك بأن بقاء مسائل الشرق دون حل حاسم ، أدى على الدوام إلى انتزاع

---

(١) انظر نص التقرير كاملا مترجم الى اللغة العربية فى كتاب : بناء دولة محمد على للدكتور محمد فؤاد شكرى واخرون ، والاصل الانجليزى فى دار الوثائق البريطانية تحت عنوان :

. Report on Egypt and Crete (Public Record Office,F.0. 78/381 Turkey)

الزراع من أراضيهم ، كما زاد فيا ألقى على كواهل الباقين من مطالب واعباء ثقيلة . والواقع ان الارض المزروعة الآن لاتقل مساحتها عما كانت عليه منذ جيل مضى ، بل انها لتزيد كثيرا فى بعض الجهات ، الا أن المشتغلين بزراعتها قل عددهم ، كما قلت مقدرتهم على العمل كثيرا ، بسبب ما اعتادوه من الالتجاء إلى تشويه اجسامهم ، فراراً من الخدمة العسكرية ، التى يبغضها المصريون من ابناء العرب بغضا لانظير له ، لا لأنهم يخشون ما يتعرضون له بسببها من اخطار فحسب بل ولأنهم يحبون واديهم حبا عميقا يتجلى فى جميع افراد الشعب . . .

فوضى التجنيد :

ليس هناك ما هو أكثر فوضى من الطريقة التى يسد بها ما يحدث من نقص فى أنفار الجيش ، اذ يجمع العدد المطلوب من كل جهة دون نظام أو ترتيب أو تسجيل للأسماء أو اقتراع ، مما أدى إلى وقوع مظالم صارخة ومآسٍ مفجعة . فالمسيحيون معفون من التجنيد بحكم الشريعة المحمدية ، غير انهم قد يجندون فى بعض الاحيان بسبب ما عليه الإجراءات من فوضى . وهناك حالات اجبروا فيها على دخول « النظام » على اعتبار انهم مسلمون . وقد وصلتنى شكاوى من القبط فى كثير من الأقاليم ، لأن افرادا من طائفتهم انخرطوا فى جيش الباشا قسرا عنهم ، فعرضت الأمر على الحكام فى مناسبات عدة ، واوضحت لهم أنى لا أفعل ذلك بصفة رسمية ، بل لأنه عمل انسانى ، ولأنى اريد أن أطلعهم على حقائق قد لايستطيعون الوقوف عليها من أى مصدر اخر . وقد أنزل العقاب بمن ارتكبوا هذه المخالفات ، وحصلت أكثر من مرة على وعد باتخاذ وسائل حازمة لمنع تكرارها . . .

تشويه الأجسام لتفادي التجنيد :

إن الآلام التى يسببها الفلاحون لأنفسهم فى بعض الاحيان فرارا من التجنيد لايكاد يصدقها العقل . فقد سمعت فى القاهرة عن رجل بتر اصابع قدميه واحدا بعد الآخر ، فكان

يبتر فى كل يوم أصبعا حتى اتى عليها جميعا ، وظل يذهب إلى مقر عمله كما جرت بذلك عادته بعد ان لف حول قدميه قطعة من المنسوج اخفاء لفعلته . واستدعيت فى اخميم بعض الفلاحين من ابناء العرب كانت ايديهم ملفوفة فى قطع من المنسوج ، وسألتهم عن سبب اخفائها على هذا النحو ، فنزعوا الخرق عنها ، وأرونى ايديهم اليمنى وقد قطعوا منها اصابع السبابة عند المفصل الثانى قبل ذلك بزمن يسير ، وكانوا يتضاحكون من هذا الأمر كأنه لم يخرج عن حد المزاح ، وزادوا على ذلك قولهم انهم آثروا بتر اصابعهم اليمنى على فقء عيونهم اليمنى . ومنذ سنوات قليلة ، كان تشويه الاطفال على أيدى أمهاتهم أمرا شائعا جدا ، ولكنى علمت أن هذا العمل قد خفت وطأته إلى حد ما ، بعد أن شنقت فى الفيوم امرأة ارتكبت ذلك الجرم . أما الاجراء الذى ينتظر أن يكون أقوى أثرا من جميع ماعداه فى أبطال إعادة التشويه ، تلك العادة التى تفزع من هولها القلوب ، فهو ما استقر عليه رأى الباشا أخيرا من أن المشوهين لن يفلتوا من التجنيد ، فقد كان بأسيوط ألاى كامل يتألف من مجندين مشوهين فقد كل منهم عينه أو أصبعه أو أسنانه الأمامية . . .

الفلاحون :

ولا يسمح ألا فى النادر القليل حتى بإيصال رسالة إلى شخص من ذوى السلطان على يد خادم من ابناء العرب . والرجل مهما حقر شأنه فلا معدى عن اعتباره من طبقة أرقى من طبقة ابناء البلد مادام يتكلم التركية . وقد عم الأهلين الاحساس بما هم عليه من ضعة الشأن ، وانتشر فيهم روح الخضوع والاذعان ، حتى ليخيل إلى الانسان انهم يعترفون بحق الأقلية التركية ، بما لها من قوة وسلطان ، فى حكم الاكثرية المصرية ، فكثيرا ما يقول المصريون فى ذلة وضراعة « ما نحن الا فلاحون » . . .

القبط :

لا ريب فى أن نفوذ القبط اخذ فى الازدياد ، وقد يكون لهم فى قابل الأيام أثر غير ضئيل فى تاريخ مصر . وقد مرت بهم قرون ذاقوا فيها الوانا من قسوة الالم ومرارة الاضطهاد

والاذلال ، وكان الاتراك يعتبرونهم طائفة المنبوذين فى الشعب المصرى . ومع ذلك فهم قوم من صفاتهم حسن المعاشرة وحب السلام والفطنة والذكاء ، أقبح نقائصهم مردها إلى سعيهم وراء ملجأ يعصمهم من النهب والأذى . وثمة شيء من التعاطف بين القبط وابناء العرب ، لعله نتيجة ما يقاسونه جميعا من آلام ..

حقوق الملكية :

ليست حقوق الملكية فى مصر واضحة المعالم بينة الحدود ، فلم يكن للملتزمين سوى حق الانتفاع بالارض ، أما ملكيتها فكانت من حق السلطان صاحب السيادة العليا . فلما تولى محمد على زمام السلطة طلب أن تودع جميع الوثائق خزانة الدولة ، وأن تدفع لاصحابها معاشات سنوية . وكثيرا ما يحدث أن تنتقل حقوق الملكية هذه من شخص إلى اخر ، لقاء مبلغ يعادل ريع الارض مدة ثلاثة اعوام أو أربعة . اما الاراضى التى ليست فى حوزة احد فيهبها الباشا من شاء فى غالب الاحيان . وكثيرا ما يهجر الفلاحون اراضيهم فتقوم الحكومة بتوزيعها على طالبيها الجدد . . .

توزيع المحصولات :

عند توزيع المحصولات الزراعية ، تبدأ الحكومة عادة بتحديد كمية ما يزرع من صنف معين فى منطقة معينة ، كما تقوم بتحديد السعر قبل موعد التسليم . وبمقتضى هذا التنظيم يؤول معظم حاصلات البلاد إلى أيدى الحكومة ، بشروط حددتها هى بنفسها . ولما كانت الحكومة تعتبر نفسها المالك الحقيقى للاراضى ، فانها تنظر إلى الفلاحين فى الواقع على انهم عمال تحت إشرافها ، فى وسعهم أن يتخلوا عن الارض ـ وكثيرا ما كانوا يفعلون . . .

الاحتكارات والنفوذ القنصلي:

إن أحتكار الحكومة المصرية للزراعة وتدخلها المستمر فى شئونها انما يرجع الفضل فى زيادتها إلى ما ابداه عدد من قناصل الدول بالاسكندرية من موافقة وتشجيع فقد كان هؤلاء القناصل وكلاء الباشا فى غالب الاحيان ، كما كانوا يديرون لحسابهم الخاص تجارة واسعة تدر عليهم ارباحا وفيرة ، فى الوقت الذى يقومون فيه بتمثيل دول مختلفة . وليس من شك فى أن حصولهم على كثير من المزايا التجارية من جانب الحكومة لابد وأن يكون له أثره فى استقلالهم السياسى ، كما يقضى على ماالهم من سلطة فى اداء وظائفهم الرسمية اداء قد يكون كبير النفع للدول التى يمثلونها . واذا استثنينا القناصل العامين لكل من انجلترا وفرنسا والنمسا والروسيا واسبانيا ، فان الآخرين جميعا ، على ما أعتقد ، تجار يتجرون فى منتجات البلاد على نطاق واسع ، وأكثر ما يكون اتصالهم بالسلطات لتحقيق اغراضهم الخاصة ، لا لتحقيق اغراض عامة . وهكذا تقل مقدرتهم على التدخل المثمر إلى حد كبير ، وتفقد صفتهم التمثيلية قيمتها ، كما يعجزون عن المطالبة برفع اية مظلمة عادية ، بشروط تليق بوكلاء مفوضين من قبل دول اجنبية . غير انه مما لاشك فيه أن وكلاءنا من هذه الناحية يفوقون سواهم بكثير من حيث الشرف والكفاية ..

مصلحة الحكومة :

غير أن الحكومة نفسها ذات مصلحة حقيقية فى أن تهيىء للنشاط الزراعى مجالا ارحب وأكثر انطلاقا من القيود والاغلال . ولاشك عندى فى أن الايرادات تزيد كلما زادت حرية الانتاج ، اذ أن السلع التى تعتبر فى الدرجة الاولى من حيث الحاجة إليها عرضة لتقلبات كثيرة لاداعى لها فى ظل النظام الحالى . وقد يستحيل فى بعض الاحيان شراء الزيت

أو الصابون أو البن أو سلع كثيرة غيرها حتى مع الاستعداد لدفع الثمن فورا . ويبيع الفلاح محصوله بسعر تحدده الحكومة ، وهو دائما سعر منخفض ولكنه كثيرا ما يضطر إلى شراء هذا المحصول ثانية ، بالسعر الذى تختاره الحكومة ، وهو على الدوام سعر مرتفع ، بل انه قد يعجز عن الحصول عليه فى بعض الاحيان ، مهما كان الثمن الذى يعرضه .

العمل على افقار الزرّاع :

إن افقار الفلاح على هذا النحو يعود بالضرر على الحكومة نفسها ، إذ يتأخر فى دفع ما عليه من ضرائب ، ويهمل أرضه ثم يهجرها ، هذا إلى أن النقص فى ايرادات الخزانة ، انما هو نتيجة مباشرة لتدهور زراعة الارض . . .

الصناعة فى مِصْر :

من العسير أن نغلظ القول حين نتحدث عما قام به الباشا من محاولات فى سبيل ادخال الصناعة ، واضعا نصب عينيه تحقيق ما يدعونه الاستقلال عن الدول الاخرى . على انه من المستطاع ان يشك المرء فيما تنطوى عليه هذه الغاية من حكمة وكياسة ، اما الوسيلة فعاجزة كل العجز عن أن تحقق تلك الغاية ، مهما كان تحقيقها مرغوبا فيه . ولو ثبت ان ما انشىء من مختلف المصانع رفع مستوى الاخلاق بين افراد الشعب ، وزود العمال بثقافة تفوق ثقافتهم ، وأن الطرق البدائية الأولى اخذت تتناولها يد الصقل والتهذيب ، وأن هناك اتجاها واضحا ملحوظا نحو استخدام رأس المال والانتفاع بجهود العمال على نحو يؤدى فى النهاية إلى الخير ، لو ثبت ذلك لكان هناك عذر مقبول يبرر ما تكبدته الحكومة من تضحيات ، عندما بدأت تقوم

بتجاربها . ولكن الذائع المعروف أن تلك التجارب كانت فاشلة باهظة النفقات ، فقد كان التقدم محدود المدى ، الا فى القليل من الحالات . ولم تزد المصانع شيئا من موارد البلاد ، ولو استخدم هذا القدر نفسه من رأس المال وجهود العمال فى الشئون الزراعية لعاد بربح وفير . والحق أن استثمار رأس المال فى الصناعة على أساس غير سليم يكلف مصر خسارة فادحة فى كل عام . وكثيرا ما كان محمد على يبرر تصرفاته ـ عند البحث معه فى هذا الموضوع ـ بما لجأت إليه الدول الاخرى من طرق الحماية ، ضاربا الامثال بانجلترا وفرنسا تأييدا لحجته . هذا الى أن المساوىء التى تنجم عن ادخال الصناعة قسرا أقل فى مصر منها فى أى بلد اخر ، لان الخسارة تقع على عاتق الخزانة لا على عواتق المستهلكين ، وترد المصنوعات الاجنبية إلى البلاد ، بعد أن تدفع ضريبة اسمية قدرها ٣٪ ولكن الضريبة فى الواقع أقل من ذلك كثيرا . ومن الطبيعى أن تباع مصنوعات الباشا بنفس السعر المنخفض الذى تباع به المصنوعات الاوربية ، وعلى الرغم من ضآلة أجور العمال ، ورخص المواد الخام بالقياس إلى أوروبا رخصا كبيرا ، فان المنسوجات القطنية ، وهى أهم ما تنتجه مصانع الباشا ، تكلفه من النفقات ما لا تكلفه البضائع المستوردة . هذا إلى أن كل رجل ينتزع من العمل الزراعى إنما ينتقل من عمل مثمر مفيد إلى عمل لا ثمرة له ولا فائدة فيه . . .

النهب في جمع الضرائب :

لما كان مقدار الضرائب ومصروفات الحكومة عظيما ، فان من المستحيل تقدير ما يقع من اختلاس ، وما يحدث من خسائر ، فى اثناء انتقال الضرائب من جيوب الشعب إلى الخزانة العامة .

ومن الممكن أن يقدر المبلغ الذى يدفعه الزراع بما يقل قليلا عن أربعة ملايين من الجنيهات الاسترلينية ، أى أن كل شخص يدفع قدرا من الضرائب يزيد على جنيهين . وهذا المبلغ يعادل ما يدفعه سكان بريطانيا العظمى ، ويكاد يوازى ضعف ما يدفعه سكان فرنسا ، واربعة أمثال ما يساهم به الشعب الاسبانى فى نفقات الحكومة .

وليس من المستطاع أن يوجد ما هو أقوى من ذلك دليلا على قدرة وادى النيل من حيث الانتاج . ولو انه لم يؤخذ من دافعى الضرائب غير المبالغ التى تصل فعلا إلى خزائن الدولة لكان من المحتمل أن يقتنى المنتجون كثيرا من الاملاك ..

أجور العمال :

إن الأجور التى يتقاضاها العمال من ابناء العرب ضئيلة إلى حد مزر ، وكثيرا ما يتأخر لهم بعضها لدى الحكومة . وقد علمت أن الحكومة تتعمد أن تكون دائما مدينة لعمالها حتى تزيد فيما لها عليهم من سلطان ، وحتى تحد من رغبتهم فى ترك العمل . . .

موازنة بين الحكم الحالي والحكم في عهد المماليك :

فى استطاعتنا أن نقول بحق أن عبء المظالم وأعمال الابتزاز التى تحدث الآن اثقل بكثير منه فى العهود السابقة . ففى ظل بكوات المماليك ، كانت هناك مقاطعات يلى امرها حكام ألين عريكة وأقل جشعا ، وكانت أعمالهم أخف عبئا على الفلاحين من المطالب التى يفرضها نظام الحكم الحاضر ، وهى مطالب مطبوعة على غرار واحد وتؤدى بصورة منظمة ، غير أن أعمال العنف التى يرتكبها الجنود ، وعدم الاطمئنان إلى سلامة الممتلكات ، واستمرار حوادث السلب والنهب والقسوة فى معاملة الأفراد كل ذلك كان يعوضه الى حد كبير ما يتجلى فى حالات قليلة من رفق ورحمة . اما قدرة البلاد على الانتاج فقد اضمحلت كما قلت مواردها إلى حد لا يمكن تصوره . .

المُلحق الثّاني

مُعَاهَدَات وَاتفاقيات

١ ـ المعَاهدة التجاريّة وَالتحالف السّري بَين بريطانيا والدّولة العُثمانية ٥ يناير سَنة ١٨٠٩ م.

٢ ـ مُعَاهَدَة أدرنة بَين رُوسيَا والدَولة العثمانيّة ١٤ سبتمبر ١٨٢٩ م

٣ ـ معَاهَدَة بونيكيار سكلس بين رُوسيَا والدّولة العُثمانية ٨ يوليو ١٨٣٣ م

٤ ـ إتفاقيّة بلطه ليمان بين بريطانيا وَالدَّولة العُثمانية ١٦ أغسطس سَنة ١٨٣٨

٥ ـ إتفاقيَّة لنْدن ١٥ يوليُو سَنة ١٨٤٠

٦ ـ خَط همايوني بمنح محَمَّد علي ولاية مصر بطريق التوارث ١٣ فبراير سَنة ١٨٤١ م

١ـ معاهدة السلام والتجارة والتحالف السري بين بريطانيا العظمى والأمبراطورية العثمانية (٥ يناير ١٨٠٩)

المادة الاولى :

منذ لحظة توقيع هذه المعاهدة ستتوقف جميع الاعمال العدائية بين انجلترا وتركيا ، ولتعزيز هذا السلام المبارك فان تبادل الاسرى بين كل من الجانبين سيتم بدون أى تفريق فى خلال واحد وثلاثين يوما يبدأ بتوقيع هذه المعاهدة أو فى وقت قبل إذا كان ذلك ممكنا .

المادة الثانية :

أى تحصينات تخص الباب العالى تم الاستيلاء عليها من قبل بريطانيا العظمى يتم إعادتها للباب العالى والتخلى عنها بجميع معداتها وعتادها من مدافع وذخيرة وادوات حرب وتوابعها إلى غير ذلك على نفس الوضع الذى كانت عليه وقت الاستيلاء عليها . ويتم ذلك فى خلال واحد وثلاثين يوما من التوقيع على هذه المعاهدة .

المادة الثالثة :

إذا كان هناك أى ممتلكات أو بضائع تخص التجار الانجليز وضعت تحت الحراسة وفق قوانين ونظم الباب العالى تعامل نفس المعاملة ويتم الافراج عنها وتعاد إلى أصحابها . ويتم نفس الشيء فى حالة وجود اى ممتلكات أو بضائع أو سفن تخص رعايا الباب العالى من التجار والتى تم وضعها تحت الحراسة فى مالطة أو فى أى جزر أو مناطق خاضعة لصاحب الجلالة البريطانية . وهذه أيضا سيتم الافراج عنها وتعاد إلى أصحابها .

المادة الرابعة :

إن شروط المعاهدة التى اتفق عليها فى السنة التركية (الهجرية) ١٠٨٦ / (١٦٧٥) فى منتصف شهر جمادى الآخرة وكذلك القرار المتعلق بالتجارة فى البحر الاسود والامتيازات (الممنوحة) فى فترات لاحقة سيستمر العمل بها وكأنها لم تتعرض لأى انتهاكات .

المادة الخامسة :

فى مقابل رعاية الباب العالى وحسن معاملته للتجار الانجليز فيما يتعلق بالبضائع والممتلكات بالاضافة إلى كل ما يتعلق بتقديم التسهيلات اللازمة فى مجال النشاطات التجارية فان انجلترا بالمقابل ستقدم كل الرعاية والمعاملة الودية لعلم ورعايا وتجار الباب العالى الذين يتواجدون فى ممتلكات صاحب الجلالة البريطانية للاغراض التجارية .

المادة السادسة :

تعريفة الجمارك الاخيرة فى اسطنبول المقررة حسب النسبة القديمة ٣٪ وخاصة المادة المتعلقة بالتجارة الداخلية سيستمر العمل بها وكأنه تم اقرارها مجددا وتتعهد انجلترا من جانبها بالالتزام بها .

المادة السابعة :

يتمتع سفراء صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى بنفس معاملة الشرف التى يتمتع بها سفراء الأمم الاخرى ، وفى المقابل فان سفراء الباب العالى فى بلاط لندن سيتمتعون بنفس معاملة الشرف التى ينالها سفراء بريطانيا العظمى ..

المادة الثامنة :

فى الامكان تعيين قناصل فى مالطة وممتلكات صاحب الجلالة البريطانية لرعاية مصالح التجار (التابعين) للباب العالى ويتمتعون بنفس الامتيازات والاعفاءات الممنوحة للقناصل الانجليز المقيمين فى الممتلكات العثمانية .

المادة التاسعة :

بامكان السفراء والقناصل الانجليز الاستعانة بمرشدين عند الحاجة وحسب المتبع ولكن وكما تم الاتفاق عليه فان الباب العالى لن يمنح براءات لمرشدين يعملون لصالح افراد

لا تقتضى طبيعة عملهم ذلك ، لقد أقر هذا المبدأ بارتياح ففى المستقبل لن يتم منح براءة لأى شخص من طبقة التجار أو الصيارفة أو الصناعيين أو لأى شخص يعمل فى حقل مماثل وكذلك لن يتم تعيين قناصل انجليز من بين رعاية الباب العالى .

المادة العاشرة :

لن يتم اضفاء الحماية الانجليزية على الاشخاص أو التجار من رعايا الباب العالى كما لن يتم تزويد امثال هؤلاء بجوازات سفر من قبل السفراء أو القناصل (الانجليز) بدون أذن مسبق من الباب العالى .

المادة الحادية عشرة :

حيث أن السفن الحربية محظور عبورها قناة القسطنطنية ويقصد بذلك مضائق الدردنيل والبحر الاسود وذلك طبقا للتقاليد القديمة المتبعة فى الامبراطورية العثمانية فان هذا سيتم مراعاته فى المستقبل من قبل جميع الدول فى وقت السلم وبريطانيا العظمى من جانبها تتعهد بالالتزام بهذا المبدأ ..

بنود سرية منفصلة

البنود السرية التى تعتزم الحكومة الانجليزية الالتزام بها من جانبها هى برهان الصداقة والاخلاص للباب العالى وقد اتفق عليها فى الاجتماع الذى عقد للتوقيع على معاهدة السلام التى تم ابرامها بين المقام العثمانى المعظم والمقام الانجليزى وهى كالتالى :

البند الاول :

فى حالة قيام فرنسا باعلان الحرب بغير وجه حق ضد الباب العالى أو قيامها بممارسة أى تهديد تجاهه كنتيجة لاتفاقية السلام التى تم ابرامها الان بين المقام العثمانى المعظم ومقام بريطانيا العظمى فان صاحب الجلالة ملك انجلترا المبجل يلتزم ببذل كل الجهد والاهتمام لتقديم المساعدة للباب العالى وتأمين (حماية) الجزر والموانى التابعة له (الباب العالى) فى البحر الأبيض المتوسط ضد اعتداءات العدو عن طريق إرسال الاسطول الكافى لهذا الغرض وتفاصيل واجراءات هذه المساعدة يتم الاتفاق عليها مع الجهات العليا (فى القسطنطينية) .

البند الثانى :

وكذلك إذا قامت فرنسا بممارسة أعمال عدائية أو تهديدات ضد الباب العالى فان صاحب الجلالة ملك انجلترا يلتزم بمساعدة المقام العثمانى المعظم عن طريق امداد الموانى التى يحذدها بالمدافع والذخيرة وجميع المعدات الحربية الضرورية من أجل تحصين أو الدفاع عن حدوده فى بوسنيا Bosnia ودلماتزيا Dalmatzia .

البند الثالث :

المحادثات الخاصة بالاتفاقيات أو التعهدات التى تمت بين القادة الانجليز والاشخاص المسئولين من قبل الباب العالى والمتعلقة بالدخول إلى أو إخلاء الاسكندرية فى مصر بواسطة بريطانيا العظمى سيتم تقديمها إلى المقام السعيد (الباب العالى) ومن ثم ينظر فى وجهات نظر كلا الجانبين وتسويتها وفقا للعدل والمساواة واقرارها نهائيا . [١]

البند الرابع :

فى حالة قيام انجلترا بابرام سلام مع روسيا قبل (أن يتم ذلك) مع الباب العالى فان صاحب الجلالة ملك انجلترا يلتزم ببذل الجهد والمساعى الحميدة ، حسب ما تسمح به الظروف للحصول على سلام مشرف بين المقام السامى وروسيا ، مشرف ومفيد للباب العالى مع الاستقلال والمحافظة التامة على الممتلكات العثمانية .

خاتمة :

هذه البنود السرية ستبقى طى الكتمان عن جميع الدوائر ولن يتم الافشاء عن وجودها ..

إضافة وبند سرى : سبب كتابة هذه الاسطر هو ما يلى :
إن الصداقة القديمة والاخلاص بين الامبراطورية العثمانية وانجلترا تم بكل سعادة استعادتها (إلى سابق عهدها) وأن صاحب الجلالة المبجل ملك انجلترا لتأكيد صداقته يقدم للباب العالى كمساعدة مبلغ ثلاثمائة آلاف جنيه استرلينى أو عشرة آلاف ومائتى كيس نقود عثمانى على دفعتين فى خلال ستة اشهر من يوم تبادل وثائق معاهدات السلام ..

---

(١) هذا البند غامض ويبدو لى أنه إشارة إلى المحادثات التى تمت بين بعض القادة الانجليز ومحمد على باشا أثناء حملة فريزر سنة ١٨٠٧ ـ الغنام .

٢. معاهدة السلام بين أمبراطور روسيا وامبراطور العثمانيين (المعروفة بمعاهدة ادرنة (Adrianople) ١٤ سبتمبر ١٨٢٩)

المادة الاولى :

كل العداوات والخلافات التى كانت قائمة بين الامبراطوريتين سوف تتوقف اعتبارا من هذا اليوم فى البر والبحر وسيقوم بين صاحبى الجلالة امبراطور الروس وصاحب الجلالة امبراطور العثمانيين وبين وليى عهديهما وخلفائهما وبين امبراطوريتيهما سلام دائم وصداقة وتفاهم . وسيعمل المتعاهدان على تجنب كل ما من شأنه اثارة سوء التفاهم بين شعوبهما والحرص الكامل على تطبيق شروط معاهدة السلام هذه ..

المادة الثانية . الثالثة . الرابعة . الخامسة . و المادة السادسة :

تتعلق بتحديد الحدود بين الدولتين والاوضاع الجديدة للامارات البلقانية وغيرها كنتيجة للانتصار الروسى فى الحرب الاخيرة التى جاءت هذه المعاهدة تتويجا لها

المادة السابعة :

يتمتع المواطنون الروس بالحرية الكاملة فى ممارسة التجارة فى جميع انحاء الامبراطورية العثمانية فى البر والبحر وذلك حسب المعاهدات السابقة المبرمة بين الدولتين المتعاقدتين . هذه الحرية التجارية لن يسمح بالحد منها تحت أى ظرف أو التدخل فيها تحت أى مبرر سواء بالحظر أو الحد أو (باسم) أى نظام أو اجراء ادارى أو تشريعى مركزى ..

الرعايا الروس والسفن والسلع التجارية سوف تحمى من أى أعتداء أو تلاعب ، فبالنسبة للرعايا فسيظل مرجعهم من الناحيتين القضائية والامنية الوزير والقناصل الروس .

وبالنسبة للسفن لا يسمح ابدا للمسئولين العثمانيين بدخولها سواء كانت فى عرض البحر أو فى أى ميناء من الموانىء التابعة للباب العالى . وأى بضاعة أو سلعة تجارية مملوكة لمواطن روسى بعد دفع الضريبة حسب التعريفة المقررة ، يمكن (لهذا المواطن) بكل حرية بيعها أو تخزينها فى أى مستودع يخصه أو يخص المرسل إليه أو تحميلها فى سفينة أخرى تحمل علم أى دولة أيا كانت بدون حاجة إلى أن يقوم المواطن الروسى بإشعار السلطات المحلية أو الحصول على اذنها . كما اتفق بكل وضوح أن القمح الآتى من روسيا سيعطى نفس المميزات ، وأن حرية نقله لن تتعرض لأقل صعوبة أو تعطيل تحت أى مبرر كان ، وفوق هذا يتعهد الباب العالى بأن يراقب عن كثب التجارة والملاحة خاصة فى البحر الاسود لعدم حدوث أى عقبة من أى نوع ، وانطلاقا من هذا فانه (الباب العالى) يعترف ويعلن أن ممر قناة القسطنطينية ومضيق الدردنيل حرة تماما ومفتوحة للسفن الروسية التى تحمل اعلاما تجارية سواء كانت محملة أو فارغة ، قادمة إلى أو خارجة من البحر الاسود لدخول البحر الابيض المتوسط أو قادمة من البحر المتوسط لدخول البحر الاسود . وهذه السفن ، طالما انها سفن تجارية بغض النظر عن حجمها أو قدرتها الاستيعابية فلا يجوز بأى حال أن تتعرض لأى مضايقة أو تعطيل . وسيتخذ البلاطان الاجراءات المناسبة لتجنب أى تأخير فى تفريغ السفن . وانطلاقا من نفس هذا المبدأ فان ممر قناة القسطنطينية ومضيق الدردنيل تصبح حرة ومفتوحة لجميع السفن التجارية للدول الاجنبية التى فى حالة سلم مع الباب العالى والمتجهة إلى الموانىء الروسية فى البحر الاسود سواء كانت هذه السفن محملة أو فارغة وبنفس الشروط التى اعطيت للسفن التى تحمل العلم الروسى .

وأخيرا فان الباب العالى يعترف للبلاط الامبراطورى الروسى بحق اتخاذ الضمانات الكافية لتأمين الحرية الكاملة للتجارة والملاحة فى البحر الأسود ويعلن (الباب العالى بشكل مطلق انه لن يقوم بوضع أى عقبة من جانبه وتحت أى ظرف أو مبرر . وفوق هذا فان الباب العالى يتعهد بأنه من الان فصاعدا لن يقوم بايقاف السفن فى ممر قناة القسطنطينية ومضيق الدردنيل من وإلى البحر الأسود والأبيض سواء كانت فارغة أو محملة ، وسواء كانت روسية أو تخص احدى الامم التى ليست فى حالة حرب معلنة معه .

وفى حالة ـ لاسمح الله ـ حدوث انتهاك لأحد هذه الشروط المذكورة فى هذه المادة .. فان الباب العالى يعترف مقدما بحق البلاط الامبراطورى الروسى فى أن يعتبر هذا الانتهاك نوعا من الاعمال العدائية ويتخذ الاجراءات الانتقامية الفورية تجاه الدولة العثمانية .

(والمادة التاسعة تتعلق بالغرامات المفروضة على الباب العالى مقابل خسائر الروس فى الحرب الاخيرة) .

(بقية المواد العاشرة حتى السادسة عشر تتعلق بالاجراءات الخاصة بترتيب الاوضاع الناجمة عن الحرب الاخيرة وتأكيد المعاهدات السابقة وخاصة اتفاقية لندن (٦ يوليو سنة ١٨٢٧) بشأن التدخل العسكرى لحل الازمة اليونانية والتى سبق أن رفضها الباب العالى ...) .

٣ ـ معاهدة التحالف الدفاعي بين الأمبراطورية العثمانية وروسيا المعروفة بمعاهدة Ankiar Skelessi في ٨ يوليو سنة ١٨٣٣ م

المادة الاولى :

سيكون هناك سلام وصداقة وتحالف إلى الابد بين صاحب الجلالة امبراطور كل الروس وصاحب الجلالة امبراطور العثمانيين وامبراطوريتيهما ورعاياهما فى البر والبحر . والهدف الوحيد لهذا التحالف هو الدفاع المشترك عن الدولتين ضد كل اعتداء ، يلتزم صاحبا الجلالة بأن يتفاهما بدون تحفظ على كل المواضيع التى تتعلق باطمئنانهما وسلامتهما . وبأن يقدم كل منهما للآخر لهذا الغرض كل عون مادى وكل مساعدة فعالة .

المادة الثانية :

إن معاهدة التحالف الدفاعى الحاضرة تؤيد وتكرس حرفا حرفا معاهدة السلام المعقودة فى ادرنه Adrianople فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٢٩ وكذلك جميع المعاهدات التى تمت وقتئذ والميثاق الموقع فى بطرسبرج Petersburg فى ١٤ ابريل سنة ١٨٣٠ وكذلك التوصية التى تمت فى استانبول فى ٩ و ٢١ يوليو سنة ١٨٣٢ بشأن اليونان .

المادة الثالثة :

عملا بمبدأ الدفاع المشترك الذى هو أساس معاهدة التحالف الحاضرة وبسبب الرغبه المخلصة فى المحافظة على استقلال الباب العالى التام فان صاحب الجلالة ملك كل الروس يتعهد فى حالة حدوث ظروف تستدعى لاسمح الله ، من الباب العالى طلب المساعدة البرية

والبحرية من روسيا ، بان يقدم له برا وبحرا كل الجيوش التى يجدها الفريقان المتعاقدان ضرورية وقد تم الاتفاق على أن تكون هذه الجيوش والوحدات التى يطلب الباب العالى نجدتها تحت تصرفه .

المادة الرابعة :

وانسجاما مع ماذكر اعلاه فان نفقات تموين الجيوش البرية والوحدات البحرية التى يقدمها احد الفريقين لمساعدة الآخر تكون على عاتق الفريق الذى يطلب المساعدة ..

المادة الخامسة :

إن فى نية كل من الفريقين المتحالفين أن تستمر هذه المعاهدة إلى اطول فترة ولكن ظروفا جديدة قد تطرأ فتقضى بإدخال بعض التعديلات عليها فتحسبا لهذه الظروف والتعديلات اتفق الطرفان على جعل مدة هذه المعاهدة ثمانى سنوات تبدأ من اليوم الذى يتم فيه توقيع صاحبى الجلالة عليها . وقبل ان تنقضى هذه المدة يتداول الفريقان ويتفاهما على تجديدها وفقا للظروف والاحوال .

المادة السادسة :

يتم اقرار هذا المعاهدة من قبل كل من الفريقين العاليين ويجرى تبادل وثائقها فى الاستانة وذلك بعد مضى شهرين على توقيعها أو قبل ذلك إذا أمكن .

وهذه الوثيقة المؤلفة من ستة بنود قد تم وضعها فيما بيننا على نسختين ذيلها كل منا بتوقيعه وخاتمه عملا بالصلاحيات المطلقة المعطاة له واحتفظ كل من الجانبين بنسخة ..

مادة سرية مستقلة

قضت المادة الاولى من معاهدة التحالف الدفاعى المعقودة بين البلاط الامبراطورى الروسى والباب العالى بأن يقدم كل من الفريقين المتحالفين للآخر المساعدات المادية الأكثر فعالية لتأمين سلامة المملكتين ولكن صاحب الجلالة امبراطور البلاد الروسية رغبة منه فى أن لا يثقل كاهل الباب العالى العثمانى بتحميله اعباء هذه المساعدات ويكتفى من حليفه باقفال مضيق الدردنيل أى بأن لا يسمح لأى سفينة حربية أجنبية أن تدخله لاى سبب من الاسباب .

ويكون لهذه المادة السرية المستقلة ذات القيمة والقوة اللتين لمواد المعاهدة وهى جزء منها له مثلها صفة الالزام ..

٤ - الاتفاقية التجارية المعروفة باتفاقية بلطة ليمان

بين بريطانيا والإمبراطورية العثمانية Balta Liman
١٦ أغسطس ١٨٣٨م

المادة الاولى :

كل الحقوق والمميزات والاعفاءات الممنوحة لرعايا وسفن بريطانيا العظمى بموجب الامتيازات والمعاهدات القائمة تعتبر الآن سارية المفعول وإلى الأبد باستثناء ما يجرى تعديله فى هذه الاتفاقية وفى نفس الوقت فان أى حقوق أو مميزات أو اعفاءات يمنحها الباب العالى الآن أو فى المستقبل لسفن ورعاية أية دولة أجنبية فانه يتم منح مثل ذلك لسفن ورعايا بريطانيا العظمى ..

المادة الثانية :

يسمح لرعايا صاحب الجلالة البريطانية أو وكلائهم بابتياع جميع البضائع بدون استثناء من جميع انحاء الامبراطورية العثمانية (سواء للاتجار الداخلى أو للتصدير) ويتعهد الباب العالى بالغاء جميع الاحتكارات سواء كانت على المنتجات الزراعية أو أى بضاعة أخرى مهما تكن وكذلك التصاريح الصادرة من الحكام المحليين سواء فيما يتعلق بشراء البضائع أو نقلها من منطقة إلى أخرى بعد شرائها ، وأى محاولة لإجبار رعايا صاحب الجلالة البريطانية للحصول على هذه التصاريح من قبل الحكام المحليين يعتبر خرقا للمعاهدات وسيقوم الباب العالى على الفور بانزال العقاب الصارم على أى وزير أو موظف يرتكب مثل هذا العمل وتعويض الرعايا البريطانيين عن كل ما يلحق بهم من اذى أو خسائر يمكنهم اثباتها .

المادة الثالثة :

إذا اشترى التاجر البريطاني أو وكيله أي بضاعة تركية بغرض بيعها في الداخل فانه يدفع عند الشراء وعند البيع نفس الضريبة التي يدفعها في الاحوال المماثلة أكثر طبقات المجتمع التركي افضلية سواء كان مسلما أو غيره .

المادة الرابعة :

ونفس الشيء في حالة شراء التاجر البريطاني أو وكيله أي بضاعة تركية بغرض التصدير ومعفاة من جميع الضرائب ايا كان نوعها عند نقلها إلى الميناء المناسب حيث يؤدى عليها ضريبة موحدة هي ٩٪ عوضا عن جميع الضرائب الداخلية وبالتالي يتم دفع الضريبة الجمركية المقررة حاليا وهي ٣٪ عند التصدير ولكن البضائع التي يتم شراؤها من الموانى للتصدير والتي تم دفع الضريبة عليها عند الدخول يتم دفع ٣٪ فقط كضريبة جمركية عليها .

المادة الخامسة :

الانظمة الصادرة بموجب فرمانات لعبور السفن التجارية البريطانية لكل من الدردنيل والبسفور يتم هيكلتها بشكل يحد من تأخيرها (أي السفن) قدر الإمكان .

المادة السادسة :

توافق الحكومة التركية على أن الاجراءات الواردة في هذه الاتفاقية تشمل جميع انحاء الامبراطورية في أوربا وآسيا ومصر والمناطق الافريقية التابعة للباب العالي وعلى جميع الرعايا العثمانيين كما توافق الحكومة التركية على حل جميع القضايا التجارية مع الدول الاجنبية على نفس الأسس الواردة في هذه الاتفاقية .

المادة السابعة :

كما هو متبع بين بريطانيا العظمى والباب العالى بهدف تذليل الصعوبات وعدم التأخير فى تقدير قيمة البضائع الواردة أو المصدرة من الدولة العثمانية بواسطة الرعايا البريطانيين يتم تعيين لجنة من اشخاص ذوى خبرة بالاحوال فى البلدين لمدة ١٤ عاما لتحديد مبلغ النقود الواجبة الدفع حسب التعريفة المقررة وحيث ان اللجنة القديمة وفق الاتفاقيات السابقة قد انتهت مدتها (الـ ١٤ عاما) فان الطرفين يوافقان على تسمية اعضاء جدد لتحديد مبلغ النقود التى يتفق على دفعها من قبل الرعايا البريطانيين على أساس الـ ٣٪ على جميع الواردات والصادرات كما تقوم هذه اللجنة بوضع المعايير والترتيبات التى يتم بموجبها تقدير قيمة الضرائب الداخلية على البضائع التركية التى سيتم تصديرها وفقا لما جاء فى هذه الاتفاقية كما تحدد هذه اللجنة الموانى التى يتم فيها جمع الضرائب .

هذه التعرفة الجديدة ستكون نافذة المفعول لمدة سبع سنوات من تاريخ تحديدها وفى نهاية هذه المدة يستطيع أى من الطرفين أن يطالب بتعديلها ، وإذا لم يطالب أى من الطرفين بذلك فى خلال ستة شهور بعد انتهائها تتجدد لمدة سبع سنوات اخرى تبدأ من تاريخ انتهاء السبع سنوات الأولى وهكذا فى كل نهاية سبع سنوات أخرى ..

٥ - اتفاق بين بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا لاقرار السلام في الشرق وضع في العاصمة البريطانية في ١٥ تموز ١٨٤٠ وهو الاتفاق المعروف باسم معاهدة لندن

لما كان جلالة السلطان قد توجه إلى أصحاب الجلالة ملكة بريطانيا العظمى وايرلندا ، وامبراطور النمسا ملك المجر وبوهيميا ، وملك بروسيا ، وامبراطور البلاد الروسية ، بطلب العون والمساعدة فيا يعانيه بفعل عداء محمد على باشا مصر من صعوبات وشدائد تهدد سلامة الامبراطورية العثمانية واستقلال عرش السلطان .

ولما كان أصحاب الجلالة المذكورين اوفياء للصداقة الخالصة القائمة بينهم وبين السلطان وراغبين رغبة صادقة فى السهر على سلامة واستقلال الامبراطورية العثمانية تأمينا لاستقرار السلام فى أوربا ، وملزمين بتنفيذ العهد الذى قطعوه على أنفسهم فى المذكرة الجماعية التى وجهها ممثلوهم فى الاستانة إلى الباب العالى فى ٢٧ تموز ١٨٣٩ وبالحؤول دون سفك الدماء الذى ستسببه مواصلة الاعمال الحربية التى بدأت فى سوريا بين باشا مصر ورعايا جلالة السلطان .

فقد قرر أصحاب الجلالة وجلالة السلطان أن يعقدوا فيا بينهم اتفاقا لتحقيق الأهداف المبينة اعلاه وعينوا لوضع هذا الاتفاق مفاوضيهم الآتية اسماؤهم :

عن جلالة ملكة بريطانيا العظمى وايرلندا : صاحب المقام الجليل اللورد بالمرستون مستشار جلالتها فى مجلسها الخاص وحامل وشاح الحمام العالى وعضو البرلمان وأمين الدولة الأول ووزير الخارجية .

وعن جلالة امبراطور النمسا وملك المجر وبوهيميا : البارون فيليب نومن حامل وسام ليوبولد من درجة قومندور وصليب الاستحقاق المدنى ووسام البرج والسيف البرتغالى وصليب الجنوب البرازيلى وصليب القديس ستانيسلاس الروسى من الدرجة الثانية ، مستشار البلاط والوزير المفوض المطلق الصلاحية لدى صاحبة الجلالة البريطانية .

وعن صاحب الجلالة ملك بروسيا : البارون هنرى غليوم فون بيلو فارس النسر الاحمر من الدرجة الأولى وحامل الوشاح الأكبر من وسامى ليوبولد النمساوى ومملكة هانوفر ، ووسامى القديس ستانيسلاس من الدرجة الثانية والقديس فلاد يمير الروسى من الدرجة الرابعة ، وقومندور وسام الصقر السكسونى ، ومن امناء ومستشارى البلاط ، والوزير المفوض المطلق الصلاحية لدى صاحبة الجلالة البريطانية .

وعن صاحب الجلالة امبراطور البلاد الروسية : البارون دى برونوف الحامل وسام القديسة حنة من رتبة فارس درجة أولى ، ووسامى القديس ستانيسلاس من الدرجة الأولى والقديس فلاديمير من الدرجة الثالثة ، وقومندور وسام القديس اسطفان المجرى ووسامى النسر الاحمر ومنظمة مالطة من درجة فارس ، ومستشار البلاط والوزير المفوض المطلق الصلاحية لدى صاحبة الجلالة البريطانية .

وعن صاحب المهابة والجلالة والقوة السلطان عبد المجيد امبراطور العثمانيين : شكيب افندى حامل « نيشان الافتخار » من الدرجة الأولى ، ومن كبار رجال الديوان الامبراطورى ، والمستشار الفخرى لوزارة الخارجية وسفير جلالته لدى صاحبة الجلالة البريطانية .

وبعد أن تبادل المفاوضون أوراق اعتمادهم ووجدوها صحيحة شكلا تم اتفاقهم وتوقيعهم على المواد التالية :

١ ـ لما كان جلالة السلطان قد اتفق مع اصحاب الجلالة المذكورين على شروط التسوية التى ينوى جلالته أن يتكرم بها على محمد على وهى الشروط المبينة تفصيلا فى الوثيقة المستقلة الملحقة بهذا الاتفاق فان اصحاب الجلالة يتعهدون بتوحيد جهودهم والعمل متفقين لجعل محمد على يتقيد بنص التسوية وروحها على أن يحتفظ كل منهم بحرية العمل وفاقا للوسائل المتوافرة له .

٢ ـ إذا رفض باشا مصر قبول هذه التسوية التى ستبلغ إليه من قبل السلطان بالتعاون مع اصحاب الجلالة فان اصحاب الجلالة يتعهدون ، حالما يطلب منهم السلطان ذا ، بأن يتخذوا التدابير المتفق عليها فيا بينهم لتنفيذ التسوية .

ولما كان السلطان قد دعا أصحاب الجلالة حلفاءه أن ينضموا إليه لقطع المواصلات البحرية بين مصر وسوريا ومنع ارسال الجند والخيل والسلاح والذخائر والمؤن الحربية بمختلف انواعها من أحد هذين الاقليمين إلى الآخر فان أصحاب الجلالة يتعهدون بأن يعطوا فورا الأوامر اللازمة لقادة أساطيلهم فى البحر المتوسط لتنفيذ طلب جلالته ، ويعدون أيضا بأن يقدّم قادة أساطيلهم ، كل فى مدى الوسائل التى بيده ، كل المساعدات الممكنة لرعايا السلطان المقيمين على ولائهم واخلاصهم لجلالته .

٣ ـ إذا قام محمد على ، عقب رفضه الانصياع لشروط التسوية المذكورة ، بتوجيه جيوشه البرية وقواه البحرية نحو الاستانة فان اصحاب الجلالة ، عند أول طلب يقدم من قبل السلطان الى ممثليهم فى العاصمة العثمانية ، يلبون هذا الطلب ويبادرون للدفاع عن عرشه متفقين متعاونين ولصون البوسفور والدردنيل وعاصمة السلطنة عن كل اعتداء .

وقد اتفق أصحاب الجلالة على أن القوى التى سيستعملونها لهذا الغرض ستبقى فى مواقعها ومراكزها الدفاعية طول المدة التى يريدها السلطان . عندما يرى جلالته أن وجودها لم يعد ضروريا فانها ستنسحب معا ويعود كل منها إلى قواعده فى البحر الأسود أو البحر المتوسط .

٤ ـ اتفق أصحاب الجلالة اتفاقا صريحا على أن التعاون المنصوص عليه فى المادة السابقة والذى يضع المضايق والعاصمة العثمانية بصورة مؤقتة تحت حمايتهم لصد كل اعتداء يأتى من جانب محمد على لا يعتبر عند حصوله الا تدبيرا استثنائيا وضع ونفذ بناء على طلب صريح من السلطان لهذا الغرض فقط . ومن المتفق عليه بينهم أيضا أن هذا التدبير لايغير

ولا ينقض شيئا من القاعدة القديمة التى وضعها الباب العالى وحرّم دائما بموجبها دخول الدردنيل والبسفور على جميع الوحدات الحربية الاجنبية . والسلطان يعلن فى هذا الاتفاق أنه ، الا فى الحالة المذكورة سابقا ، عازم عزما صادقا على الحفاظ فى المستقبل على هذه القاعدة القديمة من سياسته ، وعلى عدم السماح لأية سفينة حربية أجنبية بالدخـول إلى مضيقى البوسفور والدردنيل كما يتعهد اصحاب الجلالة من جهتهم باحترام الارادة السلطانية وبعدم الشذوذ عن هذا المبدأ الذى قررته .

٥ ـ يتم التصديق على هذا الاتفاق وتبادل وثائقه فى لندن خلال شهرين أو قبل ذلك إذا أمكن ..

٦ ـ كتاب وزيري مقدم إلى محمد علي باشا
بتاريخ ٢١ ذي القعدة سنة ١٢٥٦ هـ الموافق ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م

إن الحضرة السلطانية الفخيمة راضية عن اعتنائكم فى تقديم مواجب الخضوع الحقيقية والقيام بفرائض الطاعة لسدتها الملوكية فثبتتكم على ولاية مصر بطريق التوارث وقد اصدرت خطا شريفا حاويا بعض شروط متعلقة بهذا الشأن مرفوقا بوسام وزيرى وطربوش مرصع بالحجارة الكريمة ، وكل ذلك يرسله اليكم سعادة وكيل العدلية حالا السيد مهيب افندى من قبل جلالة السلطان المعظم . على أن حكمتكم وحسن تدبيركم لايسمحان لكم قط بأن تتعدوا حدود الخضوع والامانة اللذان هما ينبوع السعادة فى الدارين . أما الباب العالى فله بكم ثقة تامة . ولم تكن ست الشروط المحكى عنها بسبب سوء مقاصد نحو سعادتكم ، ولكن الاحسان العظيم الذى منحتم بتوليتكم مصر بطريقة التوارث كان لابد منه من اقتراح بعض شروط يتقيد بها ، وما المقصود من اقتراحها سوى منع المنازعات التى ربما تحدث فى مستقبل مجهول غير معلوم وضمان سعادة اهالى مصر ، فلم يبق بعد ذلك سببا لشكوى الباب العالى وقلق سعادتكم ، لا عما خصكم شخصيا ولا عما كان من مختصا بعائلتكم لأن انواع الخلاف التى دامت زمنا طويلا زالت اليوم والحمد لله بتمامه ، ولا ريب عندى بأن مافطرتم عليه من الحكمة يجعلكم ان تقدروا احسانات الحضرة الفخيمة السلطانية نحوكم حق قدرها ، فتبذلون قصارى جهدكم فى سبيل معرفة هذا الجميل بحيث مع مشيئة الرحمن لا نكون جميعا الا جسدا واحدا فلا يقسمنا من بعضنا شيء ، ونشتغل اجلنا فى ظل ظليل الحضرة السلطانية فى خدمة الدين والسلطنة السنية والوطن والأمة ، واهنيء نفسى بذلك انا وجميع وزراء الباب العالى تهنئة صادقة ..

صورة الخط الشريف الهمايوني
المانح محمد علي ولاية مصر
بطريق التوارث تحت شروط معلومة

مؤرخ في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م الموافق ٢١ ذي القعدة سنة ١٢٥٦ هـ

رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدات امانتكم وصدق عبوديتكم الشاهانية ولمصلحة بابنا العالى ، فطول اختباركم ومالكم من الدراية بأحوال البلاد المسلمة ادارتها لكم من مدة مديدة ، لايتركان لنا ريبا بأنكم قادرون بما تبدونه من الغيرة والحكمة فى ادارة شئون ولايتكم ، على الحصول من لدنا الشاهانى على حقوق جديدة فى تعاطفتنا الملوكية فتقدرون فى الوقت نفسه احساناتنا اليكم قدرها وتجتهدون ببث هذه المزايا التى امتزتم بها فى اولادكم ، وبمناسبة ذلك صممنا على تثبيتكم فى الحكومة المصرية المبينة حدودها فى الخريطة المرسومة لكم من لدن صدرنا الأعظم ، ومنحناكم فضلا على ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتى بيانها : متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية الى من تنتخبه سدتنا الملوكية من اولادكم الذكور ، وتجرى هذه الطريقة نفسها بحق اولاده وهلم جرا . واذا انقرضت ذريتكم الذكور لايكون لأولاد نساء عائلتكم الذكور حق ايا كان فى الولاية المذكورة . على ان حق التوارث الممنوح لوالى مصر لا يمنحه رتبة ولا لقبا اعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقا فى التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه وجميع إحكام خطنا الشريف الهمايونى الصادر عن كلخانه ، وكافة القوانين الادارية الجارى العمل بها أو تلك التى سيجرى العمل بموجبها فى ممالكنا العثمانية ، وجميع العهود المعقوده أو التى ستعقد فى مستقبل الايام بين بابنا العالى والدول المتحابة ، يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها فى ولاية مصر أيضا ، وكل ما هو مفروض على المصريين من الأموال والضرائب يجرى تحصيله باسمنا

الملوكى ، ولكن لا يكون أهالى مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالى معرضين للمضار والأموال والضرائب غير القانونية ، يجب ان تنظم تلك الأموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية وربع الايرادات الناتجة من الرسوم الجماركية ومن باقى الضرائب التى تتحصل فى الديار المصرية يتحصل بتمامه ولا يخصم منه شىء ويؤدى إلى خزينة بابنا العامرة . والثلاثة الارباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بمصاريف التحصيل والأدارة المدنية والجهادية ، وبنفقات الوالى وبأثمان الغلال الملزومة مصر بتقديمها سنويا الى البلاد المقدسة مكة والمدينة . ويبقى هذا الخراج مستمرا دفعه من الحكومة المصرية بطريقة تأديته المشروحة مدة خمس سنوات تبتدىء من عام ١٢٥٧ أى يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ . ومن الممكن ترتيب حالة اخرى بشأنهم فى مستقبل الأيام تكون أكثر موافقة لحالة مصر المستقبلة ونوع الظروف التى ربما تجد عليها . ولما كان من واجبات بابنا العالى الوقوف على مقدار الايرادات السنوية والطرق المستعملة فى تحصيل العشور وباقى الضرائب ، وكان الوقوف على هذه الاحوال يستلزم تعيين لجنة مراقبة وملاحظة فى تلك الولاية ، فينظر فى ذلك فيا بعد ، ويجرى ما يوافق ارادتنا السلطانية ، ولما كان من اللزوم أن يعين بابنا العالى ترتيبا لسك النقود لما فى ذلك من الأهمية بحيث لا يعود يحدث فيا بعد خلاف لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة ، اقتضت ارادتى السنية أن تكون النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنقود المضروبة فى ضربخانتنا العامرة بالاستانة ، سواء كان من قبيل عيارها أو من قبيل هيئتها وطرزها ، ويكفى أن يكون لمصر فى أوقات السلم ثمانية عشر ألف نفر من الجند للمحافظة فى داخلية مصر ، ولا يجوز ان تتعدى ولايتكم هذا العدد ، ولكن حيث أن قوات مصر العسكرية معدة لخدمة الباب العالى كأسوة قوات المملكة العثمانية الباقية فيسوغ أن يزاد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى موافقا فى ذلك الحين . على انه بحسب القاعدة الجديدة المتبعة فى كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية بعد ان تخدم الجند مدة خمس سنوات يستبدلون بسواهم من العساكر الجديدة ، فهذه القاعدة يجب اتباعها أيضا فى مصر . بحيث ينتخب من العساكر الجديدة الموجودة فى الخدمة حالا عشرون ألف رجل ليبتدئوا الخدمة فيحفظ منها ثمانية عشر ألف رجل فى مصر ، وترسل الالفان لهنا لأداء مدة خدمتهم ، وحيث أن خمس العشرين ألف رجل واجب استبدالهم سنويا ، فيؤخذ سنويا من مصر اربعة

آلاف رجل حسب القاعدة المقررة من نظام العسكرية حين سحب القرعة ، بشرط أن تستعمل فى ذلك مواجب الانسانية والنزاهة والسرعة اللازمة ، فيبقى فى مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندى من الجنود الجديدة ، والاربعمائة يرسلون إلى هنا ، ومن اتم مدة خدمته من الجنود المرسلة إلى هذا الطرف ومن الجنود الباقية فى مصر ، يرجعون إلى مساكنهم ولايسوغ طلبهم للخدمة مرة ثانية ، ومع كون مناخ مصر ربما يستلزم اقمشة خلاف الاقمشة المستعملة لملبوسات العساكر فلا بأس فى ذلك ، فقط يجب ان لا تختلف هيئة الملابس والعلائم التمييزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقى الجنود العثمانية وكذا ملابس الضابطان وعلائم امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها ، يجب ان تكون مماثلة لملابس ورايات وعلائم رجالنا وسفننا . وللحكومة المصرية ان تعين ضباط برية وبحرية حتى رتبة الملازم ، اما ما كان اعلى من هذه الرتبة فالتعيين إليها راجع لارادتنا الشاهانية . ولا يسوغ لوالى مصر أن ينشىء من الان فصاعدا سفنا حربية الا بإذننا الخصوصى ، وحيث ان الامتياز المعطى بوراثة ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة أعلاه ، ففى عدم تنفيذا أحد هذه الشروط موجب لإبطال هذا الامتياز والغاية للحال . وبناء على ذلك قد اصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكى كى تقدروا انتم واولادكم قدر احساننا الشاهانى ، فتعنون كل الاعتناء بإتمام الشروط المقررة فيه ، وتحمون أهالى مصر من كل فعل اكراهى ، وتكفلون امنهم وسعادتهم من الحذر من مخالفة أوامرنا الملوكية واخبار بابنا العالى عن كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم ..

المراجع العربية

١ ـ آل الشيخ ، الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف (تحقيق وتعليق)
لمع الشهاب فى سيرة محمد بن عبد الوهاب ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز (٢) الرياض

٢ ـ اباظه ، فاروق
التنافس البريطانى الامريكى فى جنوب البحر الاحمر ، فى النصف الاول من القرن التاسع عشر . (بحث القى فى ندوة « البحر الاحمر فى التاريخ » ، جامعة الاسكندرية (١٠ - ١٥ مارس ١٩٧٩) .

٣ ـ اباظة ، فاروق
عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر ١٨٣٩ ـ ١٩١٨ ، القاهرة ١٩٧٦

٤ ـ ابن اياس ، ابو البركات محمد بن احمد
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، القاهرة ١٩٦٠

٥ ـ البحراوى ، محمد عبد اللطيف
حركة الاصلاح العثمانى فى عصر السلطان محمود الثانى ١٨٠٨ ـ ١٨٣٩ ، القاهرة ١٣٩٨ / ١٩٧٨

٦ ـ ابن بشر ، الشيخ عثمان بن عبد الله
عنوان المجد فى تاريخ نجد ، سنة ١٣٩١

٧ ـ البطريق ، عبد الرحمن
التيارات السياسية المعاصرة ، بيروت ١٩٧٤

٨ ـ الجبرتى ، عبد الرحمن
عجائب الاثار فى التراجم والاخبار ، ١٣٨٦ - ١٩٦٧

٩ ـ **حتى ، فيليب ، وآخرون**

تاريخ العرب (مطول) ، دار الكشاف ـ بيروت ط٣ ١٩٦١

١٠ ـ **خورى ، اميل وعادل اسماعيل**

السياسة الدولية فى الشرق العربى من سنة ١٧٨٩ الى ١٩٥٨ ، الجزء الثانى من مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ الى معاهدة المضايق سنة ١٨٤١ .

دار النشر للسياسة والتاريخ بيروت ١٩٦٠

١١ ـ **الرافعى ، عبد الرحمن**

عصر محمد على ، القاهرة ١٩٥١

١٢ ـ **السالمى ، نور الدين**

تحفة الاعيان بسيرة اهل عمان ط ٥ ١٩٧٤/١٣٩٤

١٣ ـ **السباعى ، احمد**

تاريخ مكة ـ مكة ١٣٨٧

١٤ ـ **السروجى ، محمد محمود**

الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر ، دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٧

١٥ ـ **شبيكة ، مكى**

السودان فى قرن . القاهرة . ١٩٦١/١٣٨٠

١٦ ـ **شبيكه ، مكى**

مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، معهد البحوث والدراسات العربية ـ القـــاهرة ١٩٧٢

١٧ ـ **شكرى ، محمد فؤاد**

مصر والسودان ، الوضع التاريخى للمسألة ، القاهرة ١٩٤٦

١٨ ـ **شكرى ، محمد فؤاد**

مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٥٨

١٩ ـ **شكرى ، محمد فؤاد واخرون**

بناء دولة مصر محمد على ، الفاهرة ، ١٩٤٨/١٣٩٧

٢٠ ـ شكرى ، محمد فؤاد واخرون (جمع وتقديم)
نصوص ووثائق فى التاريخ الحديث والمعاصر ، مكتبة الانجلو المصرية
٢١ ـ ضرار ، صالح ضرار ،
تاريخ السودان الحديث ، بيروت ، ١٩٦٨
٢٢ ـ العابد ، صالح محمد
دولة القواسم فى الخليج العربى ، بغداد ، ١٩٧٦
٢٣ ـ عبد الرحيم ، عبد الرحيم عبد الرحمن
الدولة السعودية الاولى ١٧٤٥/١٨١٨ ، ١١٥٨ / ١٢٢٣ ـ القاهرة ١٩٧٦
٢٤ ـ عرض حكومة المملكة العربية السعودية
التحكيم لتسوية النزاع الاقليمى بين مسقط وابو ظبى ، وبين المملكة العربية السعودية ، ١٩٥٥/١٣٧٤
٢٥ ـ عسه ، احمد
معجزة فوق الرمال ، لبنان ، ١٩٦٦
٢٦ ـ العقاد ، صلاح
التيارات السياسية فى الخليج العربى ، القاهرة ، ١٩٧٤
٢٧ ـ على ، محمد كرد
خطط الشام ـ بيروت ١٩٧٠
٢٨ ـ عمر ، عمر عبد العزيز
دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر
١ ـ مصر (١٥١٧ ـ ١٩٥٢)
٢ ـ القضية الفلسطينية ـ بيروت ١٩٧٥
٢٩ ـ ابن غنام ، الشيخ حسن
تاريخ نجد المسمى روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات ذوى الاسلام ، ط ١ الرياض ، ١٩٤٩/١٣٦٨

٣٠ ـ **فهمى ، نعيم زكى**
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، القاهرة ١٩٧٣
٣١ ـ **قاسم ، جمال زكريا**
دولة بوسعيد فى عمان وشرق افريقيا ١٧٤١ ـ ١٨٦١ ، القاهرة ١٩٦٨
٣٢ ـ **لوريمر ، ج . ج**
دليل الخليج ـ القسم التاريخى ، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر ، الدوحة ١٩٦٧
٣٣ ـ **مبارك ، على**
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ، القاهرة ١٩٦٩
٣٤ ـ نوار ، عبد العزيز
تاريخ العرب المعاصر ـ مصر والعراق ، بيروت ١٩٧٣

المــراجــع الأجنبيّــة

1 — Ali, Abbas Ibrahim Muhammad

The British, the Slave, Trade and Slavery in the Sudan 1820 — 1881

2 — Anderson, M.S.

The Eastern Question 1774 — 1923 London 1966

3 — Anderson, M.S. (Editor)

The Great Powers and the Near East 1774—1923

4 — August, James (St.John)

Egypt and Mohamed Ali

Travels in the Or lley of the Nile. London 1834

5 — Bullard, Sir Reder

Britain and the Middle East from Earliest Times to 1952. London

6 — Bowle, John,

The Imperial Achievement

The Rise and Transformation of the British Empire. England 1974

7 — Dakin, Douglas

The Unification of Greece 1770—1923 London 1972

8 — Dodwell, Henry

The Founder of Modern Egypt. A Study of Muhammad Ali. Cambridge,

At the University Press 1931

9 — Handbooks prepared under the direction of the Historical Section of the Foreign Office No.15 History of the Eastern Question. London 1920

10 — Holt, P.M. (Editor)
Political and Social Change in Modern Egypt. London 1968

11 — Hurewitz, J.C.
Diplomacy in the Near and Middle East. A Documentary Record 1535—1914. New York 1972

12 — Israel, Fred L. (Editor)
Major Peace Treaties of Modern History (1648—1967)
New York 1967.

13 — Macro, Eric,
Yemen and the Western World London 1968

14 — Marlowe, John,
Anglo—Egyptian Relations 1800—1953. London 1954

15 — Marriott, Sir, John, A.R.,
The Eastern Question. A Historical Study in European Diplomacy Oxford, At The Clarendon Press 1969

16 — Miles, S.B.
The Countries and Tribes of the Persian Gulf, London 1966

17 — Mosely, Philip, E,
Russian Diplomacy and the Opening of the Eastern Question in 1838 and 1839
Cambridge, Harvard University Press MCM XXXLV

18 — Richmond, J.C.B.
Egypt 1798—1952. London 1977

19 — Seton —Watson, Hugh

The Russian Empire 1801 — 1917

Oxford, At the Clarendon Press 1967

20 — Vatikiotis

The Modern History of Egypt. London 1969

21 — Williams, David, M.

British Commercial Policy and Trade Expansion 1750—1850

Oxford, At the Clarendon Press 1972

22 — Winder, R. Bayly,

Saudi Arabia in the Nineteenth Century St. Martin's Press,

New York, 1965.

الوثائق

- مجموعة الوثائق التركية ، الوثيقة رقم ١٩٦٨٧ من رئيس الكتاب الى السلطان فى شوال سنة ١٢٢٤ .
- مجموعة الوثائق التركية ، الوثيقة رقم ٣٨١٤ من والى مصر الى الامام سعيد بن سلطان .
- مجموعة الوثائق التركية ، الوثيقة رقم ١٩٥٧٢ من محمد على إلى رئيس الكتاب
- مجموعة الوثائق التركية ، الوثيقة رقم ١٩٦٥٠ من والى مصر إلى السلطان .

الدوريات

- مجلة الدارة (السعودية) السنة الثالثة ، العدد الثالث ، شوال ١٣٩٧ .
- السيد احمد مرسى عباس .
- حقائق جديدة عن حرب الدرعية وهل اشترك فيها الجنود المصريون حقا ؟ ..

التقارير

Bowring, Dr. John

Report on Egypt and Crete

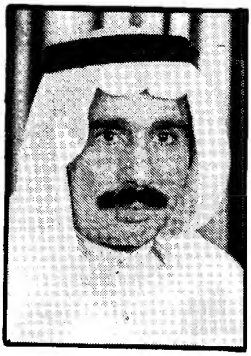
Public Record Office, London (F.O. 78/38 Turkey)

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٩
تمهيد	١١
الحملة الفرنسية على مصر واثارها	١٢
استيلاء محمد على على السلطة فى مصر	١٦
الفصل الاول :	
غزو الجزيرة العربية	٢١
(أ) قيام الدولة السعودية الاولى	٢٣
(ب) موقف الدولة العثمانية من التوسع السعودى	٢٥
(ج) الحملات العسكرية	٣٠
(د) تصفيه القواسم فى الخليج	٣٤
الفصل الثانى :	
من السودان الى اليونان	٤٥
(أ) غزو السودان	٤٧
(ب) غزو اليونان	٦٦
علاقة الثورة اليونانية بالقوى الاوربيه	٦٧
موقف محمد على من الثورة اليونانية	٦٩
التواطؤ والخيانه	٧٠
الفصل الثالث :	
غزو الشام	٧٧
(أ) بين الجزائر والشام	٧٩
الموقف بعد معاهدة ادرنة	٨٠
(ب) مشروع احتلال الجزائر	٨١
(ج) غزو الشام	٨٦

الفصل الرابع :

القمه والسقوط ٩٧
من صلح كوتاهيه ومعاهده انكياد اسكلس حتى اتفاقيه لندن ٩٩
التناقض فالصدام ١٠١
استخلاص وخاتمة ١١٩
الملحق الأول : ١٢٩
مقتطفات من تقرير الدكتور بورنج ١٣١
الملحق الثانى : ١٣٩
معاهدات واتفاقيات ١٤١
١ ـ معاهدة السلام والتجاره والتحالف السرى بين بريطانيا العظمى
والامبراطوريه العثمانيه ٥ يناير ١٨٠٩ .... ١٤٢
٢ ـ معاهده السلام بين امبراطور روسيا وامبراطور العثمانيين ١٤٧
٣ ـ معاهدة التحالف الدفاعى بين الامبراطورية العثمانيه وروسيا ١٥٠
٤ ـ الاتفاقية المعروفه باتفاقيه بلطة ليان بين بريطانيا
والامبراطوريه العثمانيه ١٥٣
٥ ـ اتفاق بين بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وهو الاتفاق المعروف باسم
معاهده لندن ١٥٦
٦ ـ كتاب وزيرى مقدم الى محمد على باشا ١٦٠
الخط الشريف الهمايونى المانح محمد على ولايه مصر بطريق الثورات تحت
شروط معلومه ١٦١
المراجع العربيه ١٦٥
المراجع الاجنبيه ١٦٩
الوثائق ١٧٢
الدوريات ١٧٢
التقارير ١٧٢



المؤلف

- ولد بمدينة الرياض عام ١٣٥٩هـ
- تخرج في جامعة الرياض سنة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م تخصص تاريخ.
- عمل في الهيئة المركزية للتخطيط سنة ١٣٨٥هـ ١٣٨٦هـ ثم معيداً بقسم التاريخ بكلية الشريعة بمكة المكرمة سنة ١٣٨٦ - ١٣٨٧هـ .
- تحصل على درجة دكتوراه فلسفة في التاريخ من جامعة مانشستر في بريطانيا سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- شغل منصب أستاذ مساعد في قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز منذ سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ، حيث تولى تدريس تاريخ الجزيرة العربية والخليج لطلاب قسم التاريخ مرحلتي البكالوريوس، والدراسات العليا ، وطلاب معهد الدراسات الدبلوماسية التابع لوزارة الخارجية بجدة .
- يشغل الآن منصب رئيس قسم التاريخ كما يعمل مستشاراً غير متفرغ في وزارة الخارجية .

طبعت بمطابع دار البلاد ـ جدة